

أَخْبَارُ الْخَوَارِجِ

مِنْ كِتَابِ

الْكَمَلِ

فِي اللَّغَةِ وَالْأَدَبِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ

تَأَلَّفَ

الإمام أبي العباس المبرّد

دار الفكر

اهداء 2005

١. د. عباس محمد الحميد

جامعة الإسكندرية

أَخْبَارُ الْخَوَارِجِ

مِنْ كِتَابٍ

الْكَلَامِ

فِي اللَّفْتِ وَالْأَدَبِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ

تَأَلَّفَ

الْإِمَامُ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكامل

حدثنا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز قال : حدثنا أبو عثمان سعيد بن جابر قال : حدثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش قراءةً عليه قال : قرئ لي هذا الكتاب على أبي العباس محمد بن يزيد المبرد :

الحمد لله حمداً كثيراً يبلغُ رضاه ، ويوجب مزيدَه ، ويجيرُ من سخطه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلاة تامة زاكية ، تؤدّي حقه ، وتزلفه عند ربه .

قال أبو العباس : هذا كتاب ألفناه يجمع ضرباً من الآداب ، ما بين كلام منشور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خُطبة شريفة ، ورسالة بليغة .

والنية أن تُفسّر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مُستغلق ، وأن تُشرح ما يعرض فيه من الإغراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكثفاً ، وعن أن يُرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً ، وبالله التوفيق والجل والقدرة ، وإليه مفزعنا في درك كل طلبة ، والتوفيق لما فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته ، وعقد يرضاه ، وقول صادق يرفعه عمل صالح ، إنه على كل شيء قدير .

أخبار الخوارج

قال أبو العباس : ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنَ الصُّفَرِيَّةِ أَنَّ الْخَوَارِجَ لَمَّا عَزَمُوا عَلَى الْبَيْعَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبٍ الرَّاسِيَّ مِنَ الْأَزْدِ تَكْرَرًا ذَلِكَ ، فَأَبَوْا مِنْ سِوَاهُ ، وَلَمْ يُرِيدُوا غَيْرَهُ . فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُمْ قَالَ : يَا قَوْمُ ! اسْتَيْتُوا الرَّأْيَ . أَيُّ دَعْوَةٍ يَغْبُ . وَكَانَ يَقُولُ : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الرَّأْيِ الدَّيْرِيِّ .

قوله « اسْتَيْتُوا الرَّأْيَ » ، يَقُولُ : دَعُوا رَأْيَكُمْ فَاتَّعَلِقُوا بِهِ ثُمَّ تَعَقَّبُوهُ ، يُقَالُ « بَيَّتَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا » ، إِذَا فَعَلَهُ لَيْلًا . وَفِي الْقُرْآنِ : (إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ) أَيُّ أَدَارُوا ذَلِكَ لَيْلًا بَيْنَهُمْ . وَأَنشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ :

أَتَوْنِي فَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّتُوا وَكَانُوا أَتَوْنِي بِأَمْرِ نَكْرٍ
لَأُنْكِحَ أَيْمَهُمْ مُنْتَدِرًا وَهَلْ يُنْكِحُ الْعَبْدَ حُرٌّ لِحَرْ

« وَالرَّأْيُ الدَّيْرِيُّ » : الَّذِي يَعْرِضُ مِنْ بَعْدِ وَقُوعِ الشَّيْءِ ، كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :

وَلَا يَعْرِفُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصِيبَهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدَبَّرَا
وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ ذَا رَأْيٍ وَفَهْمٍ ، وَلِسَانٍ وَشَجَاعَةٍ ، وَإِنَّمَا لَجُّوا إِلَيْهِ وَخَلَعُوا مَعْدَانَ الْإِبَادِيِّ لِقَوْلِ مَعْدَانَ :

سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَايَعَ اللَّهَ شَارِيًا وَلَيْسَ عَلَى الْحِزْبِ الْمُقِيمِ سَلَامٌ
فَبَرِئْتُ مِنْهُ الصُّفَرِيَّةُ ، وَقَالُوا : خَالَفْتَ ، لِأَنَّكَ بَرِئْتَ مِنَ الْقَعْدِ .
قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَالْخَوَارِجُ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِهَا تَبَرُّوا مِنَ الْكَاذِبِ ، وَمِنْ ذِي الْمَعْصِيَةِ الظَّاهِرَةِ .

وَحَدَّثْتُ : أَنَّ وَاصِلَ بْنَ عَطَاءٍ أَبَا حَذِيفَةَ أَقْبَلَ فِي رُفْقَةٍ ، فَاحْتَسَوْا
 الْحَوَارِجَ ، فَقَالَ وَاصِلٌ لِأَهْلِ الرُّفْقَةِ : إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكُمْ ، فَاعْتَزِلُوا
 وَدَعُونِي وَإِيَّاهُمْ ، وَكَانُوا قَدْ أَشْرَفُوا عَلَى الْعَطَبِ ، فَقَالُوا لَهُ : شَأْنُكَ ،
 فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : مَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ؟ قَالَ : مُشْرِكُونَ مُسْتَجِيرُونَ ،
 لِيَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ ، وَيَعْرِفُوا حُدُودَهُ ، فَقَالُوا : قَدْ أَجَرْنَاكُمْ ! قَالَ :
 فَعَلَّمُونَا ، فَيَجْعَلُوا يَعْلَمُونَهُ أَحْكَامَهُمْ ، وَجَعَلَ يَقُولُ : قَدْ قَبِلْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ،
 قَالُوا : فَاْمُضُوا مُصَاحِبِينَ ، فَإِنَّكُمْ إِخْوَانُنَا ! قَالَ : لَيْسَ ذَلِكَ لَكُمْ ، قَالَ اللَّهُ
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
 كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) فَأَبْلَغُونَا مَأْمَنَنَا ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ،
 ثُمَّ قَالُوا : ذَاكَ لَكُمْ ، فَسَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ حَتَّى بَلَغُوهُمْ الْمَأْمَنَ .

وَذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ : أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ لَمَّا وَجَّهَ
 إِلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ لِيُنَازِلَهُمْ ، قَالَ لَهُمْ : مَا الَّذِي
 نَقِمْتُمْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالُوا : قَدْ كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا ، فَلَمَّا حَكَّمْ
 فِي دِينِ اللَّهِ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَلَنِيْتُبُ بَعْدَ إِقْرَارِهِ بِالْكَفْرِ نَعْدُ لَهُ !
 فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ لَمْ يَشُبْ إِيمَانُهُ شَكٌّ أَنْ يَقِرَّ عَلَى نَفْسِهِ
 بِالْكَفْرِ . قَالُوا : إِنَّهُ قَدْ حَكَّمْ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَنَا بِالْحَكْمِ
 فِي قَتْلِ صَيْدٍ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)
 فَكَيْفَ فِي إِمَامَةٍ قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؟ فَقَالُوا : إِنَّهُ قَدْ حَكَّمْ عَلَيْهِ فَلَمْ
 يَرْضَ . فَقَالَ : إِنَّ الْحُكُومَةَ كَالْإِمَامَةِ ، وَمَتَى فَسَقَ الْإِمَامُ وَجَبَتْ
 مَعْصِيَتُهُ ، وَكَذَلِكَ الْحُكْمَانِ ، لَمَّا خَالَفَا نُبَذَتْ أَقَاوِيلُهُمَا . فَقَالَ بَعْضُهُمْ
 لِبَعْضٍ : لَا تَجْعَلُوا احْتِجَاجَ قَرِيشٍ حُجَّةً عَلَيْكُمْ ! فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ
 قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ : (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :
 (وَتَنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدَا) .

★ ★ ★

والشيء يُذكرُ بالشيء ، وجاء في الحديث : أن رجلاً أعرايياً أتى عمرَ
 بنَ الخطاب رضي الله عنه فقال : إني أصبتُ ظلياً وأنا مُحَرَّمٌ ؟ فالتفتَ عمرُ
 إلى عبدِ الرحمن بنِ عوفٍ ، فقال : قل ، فقال عبدُ الرحمن : يُهدي شاةً ،
 فقال عمرُ : أهدِ شاةً ، فقال الأعرايُّ : واللهِ ما دَرَيْتُ أميرُ المؤمنينَ ما فيها
 حتى استفتيتُ غيره ! فخففه عمرُ وضوان الله عليه بالدرة ، وقال : أتقتلُ في
 الحرمِ وتغيبُ الفتيا ؟ ! إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال : (يحكمُ به ذوا
 عدلٍ مِنْكُمْ) فأنا عمرُ بن الخطاب ، وهذا عبدُ الرحمن بن عوفٍ .

قال أبو العباس : وفي هذا الحديثُ مُصْرُوبٌ من الفقه : منها ماذكروا
 أنَّ عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ قال أولاً ، ليكون قولُ الإمام حُكماً قاطعاً .
 ومنها أنه رأى أنَّ الشاةَ مثلُ الظبيةِ ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : (فجزاءٌ
 مثلُ ما قُتِلَ مِنَ النِّعَمِ) . وأنه لم يسأله : أخطأَ قَتْلُهُ أمَ عمدًا ؟
 وجعل الأمرينَ واحداً . ومنها أنه لم يسأله : أقتلتَ صيداً قبلَه وأنتَ مُحَرَّمٌ ؟
 لأن قوماً يقولون : إذا أصابَ ثانيةٌ لم يحكمُ عليه ، وليكنَّا نقولُ له :
 اذهبْ فاتقِ اللهَ ، لقول الله تبارك وتعالى : (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ) .

قال أبو العباس : مِنْ طَرِيفِ أَخْبَارِ الْحَوَارِجِ قولُ قطري بنِ الفجاءةِ
 المازنيِّ لأبي خالد القنانيِّ ، وكانَ مِنْ قَعَدِ الْحَوَارِجِ :

أبا خالدٍ يا ثَقِيفُ فَلَستَ بِخَالِدٍ	وما جَعَلَ الرَّحْمَنُ عَذْرًا لِقَاعِدٍ
أَتَزْعُمُ أَنَّ الْحَارِجِيَّ عَلَى الْهُدَى	وَأَنْتَ مُقِيمٌ بَيْنَ لِصٍّ وَجَاهِدٍ

فكتب إليه أبو خالدٍ :

لقد زادَ الحِياةَ إليَّ حُبًّا	بنايَ ، إِيَّاهُ مِنَ الضَّعَافِ
أُحاذِرُ أَنْ يَرَيْنِ الْفَقْرَ بَعْدِي	وَأَنْ يَشْرِبْنَ رَنْقًا بَعْدَ صَافٍ
وَأَنْ يَعْرِينَ إِنْ كَسِيَ الْجَوَارِي	فَتَنَبَّوْا الْعَيْنُ عَنْ كَرَمِ عِجَافٍ
ولولا ذاكَ قد سوَّمتُ مُهْرِي	وفي الرَّحْمَنِ لِلضُّعْفَاءِ كَافٍ
أَبَانَا مَنْ لَنَا إِنْ غَيَبَ عَنَّا	وصارَ الْحَيُّ بَعْدَكَ فِي اخْتِلَافٍ

وهذا خلاف ما قال عمران بن حطان ، أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، وقد كانت رأس القعد من الصقرية وخطيبهم وشاعرهم ، قال لما قتل أبو بلال ، وهو مرداس بن أدية ، وهي جدته ، وأبوه حدير ، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، قال عمران بن حطان :

لقد زاد الحياة إلي بغضاً	وحباً للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي	وأرجو الموت تحت قوى العوالي
ولو أنني علمت بأن تحفي	كحتف أبي بلال لم أبال
فمن بك همه الدنيا فإنني	لها والله رب البيت قالي

وفيه يقول :

يا عين بكئي لمرداس ومصرعه	يارب مرداس اجعلني كمرداس
تركنتي هائلاً أبكي لمرزنتي	في منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكأس
فكل من لم يذوقها شارب عجلأ	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

★ ★ ★

قال أبو العباس : وكان من حديث عمران بن حطان فيما حدثني العباس ابن الفرج الرياشي عن محمد بن سلام : أنه لما أطرده الحجاج كان ينتقل في القبائل ، فكان إذا نزل في حي انتسب نسباً يقرب منه ، ففي ذلك يقول :

نزلنا في بني سعد بن زيد	وفي عك وعامر عوثنات
وفي لحم وفي أدد بن عمرو	وفي بكر وحى بني الغدان

ثم خرج حتى نزل عند روح بن زنباع الجذامي ، وكانت روح يقري الأضياف ، وكان ماسراً لعبد الملك بن مروان أثيراً عنده ، فانتسب

له من الأزد . وفي غير هذا الحديث : أن عبد الملك ذكر رَوْحاً فقال :
 مَنْ أَعْطِيَ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ أَبُو زُرْعَةَ؟ أَعْطِيَ فِقَةً أَهْلَ الْحِجَازِ، وَدَهَاءَ أَهْلِ الْعِرَاقِ ،
 وَطَاعَةَ أَهْلِ الشَّامِ . وَجَعُ الْحَدِيثِ : وَكَانَ رَوْحُ بْنُ زُبَاعٍ لَا يَسْمَعُ
 شِعْراً نَادِراً وَلَا حَدِيثاً غَرِيباً عِنْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَيَسْأَلُ عَنْهُ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ
 إِلَّا عَرَفَهُ وَزَادَ فِيهِ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ إِنَّ لِي جَاراً مِنَ الْأَزْدِ
 مَا أَسْمَعُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَبِيراً وَلَا شِعْراً إِلَّا عَرَفَهُ وَزَادَ فِيهِ ، فَقَالَ :
 خَبِّرْنِي بِبَعْضِ أَخْبَارِهِ ، فَخَبَّرَهُ وَأَنْشَدَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ اللُّغَةَ عِدْنَانِيَّةٌ ،
 وَإِنِّي لِأَحْسِبُهُ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ ، حَتَّى تَذَاكُرُوا لَيْلَةَ قَوْلِ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ
 يَدْحُ ابْنِ مُلْجَمٍ لَعَنَهُ اللَّهُ :

بِاضْرِبَةٍ مِنْ شَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَاناً
 إِنِّي لِأَذْكُرُهُ حِيناً فَأَحْسِبُهُ أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَاناً
 قَلَبَهُ الْفَقِيهُ الطَّبْرِيُّ فَقَالَ :

بِاضْرِبَةٍ مِنْ شَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَهْدِمَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ بَنِيَاناً
 إِنِّي لِأَذْكُرُهُ يَوْماً فَالْعَنَهُ لَهَا وَالْعَنَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَا
 قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الطَّبِيبُ يَرُدُّ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ :

بِاضْرِبَةٍ مِنْ غَدُورٍ صَارَ ضَارِبُهَا أَشَقَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ إِنْسَاناً
 إِذَا تَفَكَّرْتُ فِيهِ ظَلْتُ أَلْعَنُهُ وَالْعَنُ الْكَلْبَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَا

فَلَمْ يَدْرِ عَبْدُ الْمَلِكِ لِمَنْ هُوَ ، فَجَعَلَ رَوْحٌ إِلَى عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ ، فَسَأَلَهُ
 عَنْهُ ، فَقَالَ عِمْرَانُ : هَذَا يَقُولُهُ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ يَدْحُ بِهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ
 مُلْجَمٍ قَاتِلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَجَعَلَ رَوْحٌ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ
 لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : ضَيْقُكَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ ، أَذْهَبُ فَجِئْتُ بِهِ ، فَجَعَلَ إِلَيْهِ ،
 فَقَالَ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَحَبَّ أَنْ يَرَاكَ ، قَالَ لَهُ عِمْرَانُ : قَدْ أَرَدْتُ أَنْ
 أَسْأَلَكَ ذَلِكَ فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْكَ ، فَاْمْضِ فَإِنِّي بِالْأَثَرِ ! فَجَعَلَ رَوْحٌ إِلَى عَبْدِ

الملك فأخبره ، فقال له عبدُ الملك : أما إنَّك ستُرجعُ فلا تجده ! فرجع وقد ارتحل عمرانُ ، وخلف رُقعةً فيها :

قد ظنَّ ظنَّكَ من لحمٍ وغسان	ياروحُ كم من أخِي مئوى تزلُّ به
من بعدِ ما قبلِ عمرانُ بنُ حطَّان	حتى إذا خفَّتهُ فارقتُ منزله
فيه روائعُ من إنسٍ ومن جان	قد كنتُ جارك حوَّلاً ما تُروِّعني
ما أدرك الناس من خوف ابن مروان	حتى أردت بي العُظمى فأدركني
في الثَّابتات مُخطوباً ذاتَ ألوان	فاعذِرْ أخاك ابن زُباعٍ فإنَّ له
وإن لقيتُ مَعديّاً فعدتاني	يوماً يمانٍ إذا لقيتُ ذا بين
كنتَ المُقدَّم في سرِّي وإعلاني	لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغية
عند الولاية في طه وعمران	لكنَّ أبت لي آياتُ مطهرة

ثم ارتحل حتى تزل بزُفر بن الحُرث الكلبي ، أحد بني عمرو بن كلاب ، فانتسب له أوزاعياً ، وكان عمرانُ يُطيلُ الصلاة ، وكان غلمانُ من بني عامرٍ يضحكون منه ، فأناه رجلٌ يوماً يمتن رآه عند روح بن زُباعٍ فسلم عليه ، فدعاه زُفرٌ فقال : من هذا ! فقال : رجلٌ من الازد رأيتُه ضيفاً لروح بن زُباعٍ ، فقال له زُفرٌ : يا هذا ؟ أزدياً مرةً وأوزاعياً مرةً ؟ ! إن كنت خائفاً آمنَّاك ، وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أَمسى هرب وخلف في منزله رُقعةً فيها :

إن التي أصبحتُ يعني بها زُفرٌ أَعيتُ عيائاً على روح بن زُباعٍ
قال أبو العباس : أنشدني الرِّياضيُّ . أَعيا عياها على روح بن زُباعٍ ،
وأنكره كما أنكرناه ، لأنه قصر الممدود ، وذلك في الشعر جائز ، ولا يجوز مدُّ المقصور .

ما زال يسألني حوَّلاً لا يُخبره والناسُ من بين مخدوعٍ وخداعٍ
حتى إذا انقطعتُ عني وسائلُهُ كفَّ السؤال ولم يُولع ياهلعي

فاكففت كما كف عني إني رجلٌ
واكففت لسانك عن لومي ومساآلي
أما الصلاة فإني غيرُ تاركها
أكرم بروح بن زتباع وأسرته
جاورتهم سنة فيما أمر به
فاعمل فإنك منعي بواحدة
إما صميم وإما فقعة القاع
ماذا تريدُ إلى شيخ لأوزاع
كلُّ امرئٍ للذي يُعنى به ساعي
قومٌ دعا أولهم للعلی داعي
عرضي صحيح ونومي غيرُ تهجاع
حسب اللیب بهذا الشیب من ناعي
ثم ارنحل حتى أتى عمان ، فوجدهم يُعظّمون أمر أبي بلال ويُظهرونه ،
فاظهر أمره فيهم ، فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى أهل عمان ، فارتحل
عمران هارباً ، حتى أتى قوماً من الأزد فلم يزل فيهم حتى مات . وفي نزوله
به يقول :

نزلنا بحمد الله في خير منزلٍ
نزلنا بقوم يجمعُ الله شملهم
من الأزد إن الأزد أكرمُ أسرةٍ
فاصبحتُ فيهم آمناً لا كمعشرٍ
أم الحيّ قحطان ؟ فتلكم سفاقة
وما منها إلا يُسرٌ بنسبةٍ
فنحنُ بنو الإسلام والله واحدٌ
وأولى عباد الله بالله من شكرٍ
نسرٌ بما فيه من الأُنس والحقر
وليس لهم عودٌ سوى المجد يُعصر
يمانية طابوا إذا نُسب البشرُ
أتوني فقالوا من ربيعة أو مضرُ
كما قال لي روحٌ وصاحبه زفرُ
تقرّبني منه وإن كان ذا نفرُ
وأولى عباد الله بالله من شكرٍ

قوله « ياروحُ كم من أخي مثوى نزلتُ به » قد مر تفسيره ، يقالُ « هذا
أبو مثواي » ، ولأنني « هذه أمُ مثواي » ، ومنزلُ الضيافة وما أشبهها « المثوى »
وكذلك قال المفسرون في قول الله عز وجل (أكرمي مثواه) أي إضافة
ويقالُ من هذا « نوى يثوي ثويّاً » كقولك « مضى يخضي مضياً » ، ويقالُ
« نواة » و « مضاء » ، كما قال الشماخ :

طال الثواءُ على رسم يميؤود أودى وكلُّ جديدٍ مرةً مودي

وقوله « فيه روائعُ من إنس ومن جان » الواحدةُ « رائعة » يقال « راعني يروعني روعاً » أي : أفرعني . قال الله تعالى ذكره : (فلما ذهب عن إبراهيم (الروحُ) ويكونُ « الرائعُ » الجميل يقال : جمالٌ رائعٌ ، يكونُ ذلك في الرجل والفرس وغيرهما ، وأحسبُ الأصل فيها واحداً : أنه يُفرطُ حتى يروع ، كما قال الله جل ثناؤه : (يكادُ سنا بريقه ينهبُ بالآبصار) للأفراط في ضيائه ، و « الرائعُ » ميموزٌ ، وكذلك كل فعلٍ من الثلاثة بما عينه واو أو ياءٌ إذا كانت معتلةً ساكنةً ، تقولُ « قال يقول » و « باع يبيع » و « خاف يخافُ » و « هاب يهاب » يعتلُّ اسمُ الفاعل فيهمزُ موضع العين نحو « قاتل » و « بائع » و « خائف » و « هائب » . فإن صحَّت العين في الفعل صحَّت في اسم الفاعل ، نحو « عورَ الرجلُ فبورَ عاورٌ » و « صيدَ فهو صايدٌ » و « الصيدُ » داءٌ يأخذُ في الرأس والعينين والشؤون وإنما صحَّت في « عور » و « حول » و « صيد » لأنه منقولٌ من « احول » و « اعور » . وقد أحكمنا تفسير هذا في الكتاب المقتضب .

وقوله :

« يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا بينٍ وإن لقيتُ معدياً فعدناني »

يُريد : أنا يوماً يمانٍ ، ولولا أن الشعر لا يصلحُ بالنصب لكان النصبُ جائزاً ، على معنى أتقل يوماً كذا ويوماً كذا ، والرفع حسنٌ جميلٌ . وهذا الشعرُ يُنشدُ نصباً .

أفي السِّلمِ أعياراً جفاءً وغلظةً وفي الحربِ أمثالِ النساءِ العواركِ

« العواركُ » مُهن الحوائضُ . وكذلك قوله :

أفي الولائمِ أولاداً لواحدةٍ وفي المحافلِ أولاداً لعلات

قال « اللات » ، سُميت لأن الواحدة « تُعلُّ » بعد صاحبها ، وهو من « العلل » وهو الشربُ الثاني ، أي يختلقون ويتحولون في هذه الحالات . ومن

كلام العرب: أُمِيماً مرةً وقِيماً أخرى؟ وكذلك إن لم تستقم وأخبرت قلت
عَمِيماً مرةً علم الله وقِيماً أخرى . أي : تنقل . ومن ثم قال له زُفَرُ بْنُ
الْحَرْث : أزدياً مرةً وأوزاعياً أخرى؟ والرفع على « أنت » جيدٌ بالغٌ .

وقوله : « لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغيةً » يكون على وجهين : لنفسِ
طاغيةٍ ، والآخَرُ للمذكَّر ، وزاد الهاء للتوكيد والمبالغة ، كما يقال : رجل
راويةٌ وعلامةٌ ونسابةٌ ، وكلاهما وجهٌ . ويقال : جاءت طاغيةُ الرُّومِ ، يرادُ
الجماعةُ الطاغيةُ ، كما قال رسولُ الله ﷺ : « تقتلك الفئةُ الباغيةُ » .

وقوله « عند الولاية » إذا فتحت فهو مصدرٌ « الوليُّ » وفي القرآن
المجيد : (مَالِكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) . والولايةُ مكسورةٌ نحو السياسة
والرياضة والإيالة ، وهي الولايةُ ، وأصله من الإصلاح ، يقال « آلهُ يؤلُّهُ
أولاً » ، إذا أصلحه . قال عمرُ بن الخطاب : قد ألنا وإبل علينا . تأويل ذلك
قد ولينا وولي علينا . وهذه كلمةٌ جامعةٌ ، يقول : قد ولينا فعلنا ما يصلحُ
الوالي ، ووُلِّي علينا فعلنا ما يصلحُ الرعيةُ .

وقوله « حتى إذا ما انقضتْ مني وسائله » ، « الوسائلُ » واحدُها وسيلةٌ ،
وهي : الذريعةُ والسببُ . يقال : قد توَسَّلتُ إلى فلانٍ ، قال رؤبةُ بن
العجاج :

والناسُ إنْ فصلتْهم فصائلاً كلُّ إلينا يبتغي الوسائلَ

وقوله : « ولم يزلْ ياعلعي » أي : يافزاعي وترويعي . والهلْعُ من
الجبين عند ملاقاته الأقران ، يقال : نعوذ بالله من الهلع . ويقال : رجلٌ هُلوعٌ
إذا كان لا يصبر على خيرٍ ولا شرٍّ ، حتى يفعل في كل واحدٍ منها غير الحقِّ ،
قال الله وهو أصدق القائلين : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إذا سَأَهُ الشَّرُّ
جَزُوعاً . وإذا سَأَهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً) . وقال الشاعرُ :

ولي قلبٌ سقيمٌ ليس يصحو ونفسٌ ما تفتقُ من الهلاع

وقوله . « إِمَّا صَمِيمٌ وَإِمَّا فَقْعَةُ الْقَاعِ » ، الصَّمِيمُ ، الخالصُ من كل شيءٍ ، يقال : فلانٌ من صميم قومه ، أي : من خالصهم . وقال جريرٌ لهشام ابن عبد الملك :

وتنزلُ من أُمِّيَّةٍ حيثُ تلقى شؤونُ الرأسِ مجتمِعِ الصَّمِيمِ
وقوله « وإِمَّا فَقْعَةُ الْقَاعِ » يقال لمن لا أصل له : هو فقْعةٌ بقاعٍ ، وذلك لأنَّ الفقْعَةَ لا عروق لها ولا أغصان ، والفقْعَةُ الكُمأةُ البيضاءُ ، ويقال : حمامٌ فقِيعٌ : لبياضه . ومن ذا قولُ الشاعر :

قومٌ إذا نسبوا يكونُ أبومُ عند المناسبِ فقْعَةٌ في قرقر
وقال بعضُ القرشيين :

إذا ما كنتُ متَّخذاً خليلاً فلا تجعلُ خليلك من تميم
بلوتُ صميمهم والعبد منهم فما أدنى العبيد من الصَّمِيمِ
وقوله « نسرٌ بما فيه من الأنسِ والحقر » ، فاصلٌ « الحقر » ، شدَّةُ الحياة يقال « امرأةٌ خفرةٌ » ، إذا كانت مستورةً لاستحيائها ، قال ابنُ عمير الثَّقَفِيُّ :
تضوُّعُ مكأبطنُ نعان أنْ مشَتْ به زينبُ في نسوةٍ خفرات
وقوله « إنَّ الأزدَ أكرمُ أسرةٍ » ، يقولُ : عصابةٌ وقيلةٌ ، ويقالُ للرجل : من أيِّ أسرةٍ أنت ؟ وأصلُ هذا من الاجتماع ، يقال للقتب « مأسورٌ » ، وقد مضى تفسيره .

وينشدُ « يمانيةٌ قرَّبوا إذا نسب البشرُ » يريدُ « قرَّبوا » . وهذا بجائزٌ في كلِّ شيءٍ مضمومٍ أو مكسورٍ إذا لم يكن من حركات الإعراب ، تقولُ في الأسماءِ في « فخذٍ » ، « فخذتُ » ، وفي « عضدٍ » ، « عضدتُ » . وتقولُ في الأفعالِ « كرمَ عبدُ الله » ، أي كرمُ ، و « قد علمَ الله » ، أي علمَ الله . قال الأخطلُ :

فإن أجهُ يضجرُ كما ضجرَ بازلُ من الإبلِ دبوتُ صفحتاهُ وكاهلهُ

وقال آخر : .

عجبتُ لمولودٍ وليس له أبٌ وذي ولدٍ لم يلدَهُ أبوان

ولا يجوزُ في « ضرب » ولا في « جل » ، أن يسكنَ ، لحقة الفتحة .
وقوله « أتوتني فقالوا من ربيعة أو مضر » يقول : أمن ربيعة أم من مضر ؟ ويجوزُ في الشعر حذفُ ألف الاستفهام ، لأن « أم » التي جاءت بعدها تدلُّ عليها . قال ابنُ أبي ربيعة :

لعمرك ما أدري وإن كنتُ دارياً بسبعٍ ومن الجمر ام بثلاث
يريدُ : أبسبع ؟ وقال التميمي :

لعمرك ما أدري وإن كنتُ دارياً شعيثُ بن سهمٍ أم شعيثُ بن منقر
الروايةُ على وجهين : أحدهما « من ربيعة أم مضر أم الحي قحطان » يريدُ :
إذا أم ذا ؟ والأصلحُ في الرواية « من ربيعة أو مضر » ، أم الحي قحطان ،
لأن ربيعة أخو مضر ، فأراد من أحد هذين أم الحي قحطان ، لأنه إذا قال :
أزيدُ عندك أم عمرو ؟ فاجوابُ : نعم ، أو لا ، لأن أحد هذين عندك ،
ومعنى الأول : أيها عندك ؟ ويروى - وحدثني المازني - : أن صفيّة بنت عبد
المطلب ألقاها رجلاً ، فقال لها : أين الزبير ؟ قالت : وما تريدُ إليه ؟ قال :
أريد أن أباطشه ! فقالت : ها هو ذاك ، فصار إلى الزبير فباطشه . فغلبه
الزبيرُ ، فمرَّ بها مفلولاً ، فقالت صفيّة :

كيف رأيت زيرا . ألقطاً أو قرأ . أم قرشياً صقرا

لم تشكك بين الأقط والتمر فتقول أيها هو ؟ ولكنها أرادت : رأيتُ
طعاماً أم قرشياً صقراً ؟ أي أحد هذين رأيتُ أم صقراً ؟ ولو قالت : ألقطاً
أم قرأ : كان محالاً على هذا الوجه .

وقوله : « وما منها إلا يسرُ بنسبة » معناه : وما منها واحدٌ ، فحذف
لعلم المخاطب . قال الله جلَّ اسمه : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به

قبل موته (أي : وإن أحدٌ . ومعنى « إن » ، معنى « ما » ، قال الشاعر :
وما الدهرُ إلا ثلاثٌ فمنها أموتُ وأخرى أبتغي العيش أكدهُ
يريدُ : فمنها تارة .

وقوله :

« فنحنُ بنو الإسلامِ واللهُ واحدٌ وأولى عباد الله بالله من شكر ،
يقول : انقطعت الولايةُ إلا ولاية الإسلام ، لأن ولاية الإسلام قد قاربت
بين الغرباء . وقال الله عز وجل : (إنما المؤمنون إخوةٌ) . وقال عز وجل
فباعد به بين القرابة : (إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غيرٌ صالح) وقال
نهارُ بن توسة الشكري :

دعيَّ القومَ ينصرُ مدعيه ليُلحقهُ بندي الحُب الصميم
أي الإسلامُ لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبسٍ أو تمج

* * *

ويقالُ فيما يُروى من الأخبار : إن أول من حكم عروة بن أدية ، وأدية
جدة له جاهلية ، وهو عروة بن مُحدير ، أحد بني ربيعة بن حنظلة . وقال
قومٌ : بل أول من حكم رجل يقال له سعيدٌ من بني محارب بن خصفة بن
قيس بن عيلان بن مُضر ولم يختلفوا في إجماعهم على عبد الله بن وهب الراسبي ،
وأنه امتنع عليهم ، وأوماً إلى غيره ، فلم يقنعوا إلا به ، فكان إمام القوم ،
وكان يُوصفُ بالرأي .

قال أبو العباس : فأما أولُ سيفٍ سُلَّ من سيوف الخوارج فيسِفُ عروة
ابن أدية ، وذلك : أنه أقبلَ على الأشعثِ فقال : ما هذه الدَّيْثَةُ يا أشعثُ ؟
وما هذا التحكيمُ : أمرُطٌ أوتقُ من شرطِ الله عز وجل ؟ ! ثم شهِر عليه
السيفَ والأشعثُ مولٍ ، فضربَ به عجزَ البغلة ، فشَبَّتِ البغلةُ فنقرت الياينةُ ،
وكانوا جلَّ أصحابِ عليٍّ صلواتُ الله عليه ، فلما رأى ذلك الأحنفُ قصد

هو وجارية بن قدامة ومسعود بن فدي بن أعبد وشبث بن ربعي الرباحي ،
إلى الأشعث ، فسألوه الصّقع ، ففعل .

وكان عروة بن أدية نجاً من حرب النّهران ، فلم يزلّ باقياً مدةً من
خلافة معاوية ، ثم أتى به زيادٌ ومعه مولى له ، فسأله عن أبي بكرٍ وعمر ،
فقال خيراً ، ثم سأله فقال : ما تقولُ في أمير المؤمنين عثمان بن عفّان وأبي
ترابٍ عليّ بن أبي طالبٍ ؟ فتولى عثمان ست سنين من خلافتِهِ ، ثم شهد عليه
بالكفر ! وفعل في أمر عليّ مثل ذلك إلى أن حكم ، ثم شهد عليه بالكفر !
ثم سأله عن معاوية ؟ فسبّه سبّاً قبيحاً ! ثم سأله عن نفسه ؟ فقال : أولئك
لؤنيةٍ وآخرك لدعوةٍ ، وأنت بعدُ عاصٍ لربك ! ثم أمر به فضربت عنقه ،
ثم دعا مولاه فقال : صف لي أموره ؟ فقال : أأطنبُ أم أختصرُ ؟ فقال :
بل اختصر ، فقال : ما أتيت به بطعامٍ بهارٍ قطُّ ، ولا فرشتُ له فراشاً
بليلٍ قطُّ .

وكان سببُ تسميتهم الحرورية : أن عليّاً لما ناظرهم بعد مناظرة ابن
عباس رحمه الله إياهم ، فكان بما قال لهم : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما
رفعوا المصاحف قلتُ لكم أن هذه مكيدةٌ ووهمٌ ، وأنهم لو قصدوا إلى
حكم المصاحف لم يأتوني ثم سألوني التحكيم ، أفعلتمُ أنه كان منكم أحدٌ أكره
لذلك مني ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فهل علمتمُ أنكم استكروهموني على
ذلك حتى أجبتمكم إليه ، فاشتدّت أن حكمها نافذةٌ ما حكما بحكم الله عزّ
وجلّ ، فإن خالفاه فأنا واثم من ذلك برآء ، أو أنتم تعلمون أن حكم الله
لا يعدّوني ؟ قالوا : اللهم نعم - وفيهم في ذلك الوقت ابنُ الكواء ، وهذا
من قبل أن يذبحوا عبد الله بن خبابٍ ، فلما ذبحوه بكسروا في الفرقة الثالثة -
فقالوا : حكمت في دين الله برأينا ، ونحن مقرون بأننا قد كفرنا ، ونحن
ثابون ! فأقرر بثل ما أقررنا به وتبّ ، تنهض معك إلى الشام !! فقال :
أما تعلمون أن الله جل ثناؤه قد أمر بالتحكيم في شقاق بين رجلٍ وامرأة ، فقال تبارك
وتعالى : (فابعدوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) وفي صيدٍ أصيب في الحرم ،

كارنب يساوي ربيع دينار ، فقال عز وجل (يحكمُ به نوا عدلٍ منكم) فقالوا : إن عمراً لما أبى عليك أن تقول في كتابك « هذا ما كتبه عبدُ الله عليُّ أميرُ المؤمنين » محوت اسمك من الخلافة ، وكتبت « عليُّ بنُ أبي طالبٍ » فقال لهم رضي الله عنه : لي برسول الله ﷺ أسوةٌ ، حيثُ أبى عليه سهيلُ بن عمرو أن يكتب « هذا كتابُ كُتبه محمدُ رسولُ الله وسهيلُ بن عمرو » فقال : لو أقررنا بأنك رسولُ الله ما خالفناك ، ولكني أقدمُك لفضلك ، ثم قال : اكتب « محمدُ بنُ عبد الله » فقال لي : يا عليُّ ، امحُ « رسولُ الله » فقلتُ : يا رسول الله ، لا تَسْخِرْ نفسي بِمحو اسمك من النبوة ، فقال عليه السلام : قفني عليه ، فمحا يده ﷺ ، ثم قال اكتب « محمدُ بنُ عبد الله » ثم تبسّم إلي فقال ، يا عليُّ : أما إنك ستسامُ مثلها فتعطي فرجع معه منهم ألفان من حروراء ، وقد كانوا تجمّعوا بها ، فقال لهم عليُّ صلواتُ الله عليه : مانستمكم ؟ ثم قال : أنتم الحروريةُ ، لاجتماعكم بحروراء .

والنسبُ إلى مثل « حروراء » « حروراويُّ » فاعلم ، وكذلك كلُّ ما كان في آخره ألفُ التانيث الممدودة ، ولكنه نسب إلى البلد بحذف الزوائد ، فقل « الحروريُّ » .

★ ★ ★

وقال الصلّتانُ العبدَيُّ في كلمةٍ له :

أرى أمةً شهّرت سيقها	وقد زيد في سوطها الاصبحي
بنجديةٍ وحروريةٍ	وأزرق يدعو إلى أزرق
فلتنا أننا المسلمون	على دين صديقنا والنبي

وفي هذا الشعر بما يستحسنُ قوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبير	مرورُ الليالي وكرُّ العشي
إذا ليلةٌ هرمت يومها	أتى بعد ذلك يومٌ فتي

نروحُ ونغدو لحاجتنا حاجةً من عاش لانتقضي
تموتُ مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

قوله « وقد زيد في سوطها الأصبحي » ، فإنه تسمى هذه السياطُ التي يعاقبُ بها السلطانُ « الأصبحيَّة » وتنسبُ إلى ذي أصبح الحميري ، وكان ملكاً من ملوك حمير ، وهو أولُ من اتخذها ، وهو جدُّ مالك بن أنس الفقيه رضي الله عنه .

« والنجدية » تنسبُ إلى نجدة بن عويمر ، وهو عامرُ الحنفي ، وكان رأساً ذا مقالةٍ منفردةٍ من مقالات الخوارج ، وقد بقي من أهلها قومٌ كثيرٌ . وكان نجدةٌ يصلي بمكة بجذاء عبد الله بن الزبير في جمعه في كل جمعة ، وعبد الله يطلبُ الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحرم . قال الراعي مخاطباً عبد الملك :

إني حلفتُ على يمينٍ برةٍ لا أكذبُ اليوم الخليفة قبيلاً
ما إن أتيتُ أبا خيبٍ وافتداً يوماً أريد بيدي تبديلاً
ولا أتيتُ نجدة بن عويمر أبغي الهدى فيزيدي تضليلاً
من نعمة الرحمن لا من حيلتي إني أعدُّ له عليّ فضولاً

وفي هذه القصيدة :

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه بالاصبحيَّة قائماً مغلولاً

قوله « وأزرق يدعو إلى أزرق » يريدُ من كان من أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي ، وكان نافعٌ شجاعاً مقدِّماً في فقه الخوارج ، وله ولعبد الله بن عباس مسائل كثيرة ، وسنذكر جملة منها في هذا الكتاب إن شاء الله .

وقوله « على دين صدِّيقنا والنبي » فالعربُ تفعلُ هذا ، وهو في الواو جائرٌ ، أن تبدأ بالشيء ، وغيرهُ المقدمُ . قال الله عز اسمه : (هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ) وقال : (يامعشر الجن والإنس) وقال : (واسجدوا واركعوا مع الراكعين) وقال حسَّانُ بن ثابتٍ :
بهاينُ منهم جعفرٌ وابنُ أمِّه عليٌّ ومنهم أحمدُ المتغيرُ

يعنى : بني هاشم . ومن كلام العرب ربيعة ومضر وقيس وخندف وسلم وعامر . وأصحاب نافع بن الأزرق هم ذوو الحدة والجد ، وهم الذين أحاطوا بالبصرة حتى ترحل أكثر أهلها منها ، وكان الباقون على الترحل ، فقلد المهلب حربيهم ، فهزمهم إلى الفرات ، ثم هزمهم إلى الأهواز ، ثم أخرجهم عنها إلى فارس ، ثم أخرجهم إلى كرمان . وفي ذلك يقول شاعر منهم في هذه الحرب التي صاحبها صاحب الزنج بالبصرة ، يرثي البلد ، ويذكر المنقبة التي كانت لهم . قال الأخفش : أنشدني يزيد المهلب لنفسه :

سقى الله مصرأ خف أهله من مصر	وماذا الذي يبقى على عقب الدهر
ولو كنت فيه إذ أبيح حريمه	لمت كريماً أو صدرت على عنبر
أبيح فلم أملك له غير عبوة	تهيب بها أن حاردت لوعة الصدر
ونحن رددنا أهلها إذ ترحلوا	وقد نظمت خيل الأزارق بالجر
ومن يخش أطراف المنايا فإتنا	لبسنا لمن السابغات من الصبر
فإن كربه الموت عذب مذاقه	إذا ما مزجناه بطيب من الذكر
وما رزق الانسان مثل منية	أراحت من الدنيا ولم تحز في القبر

وفي هذا الشعر يقول :

ليشكر بنو العباس نعمى تجددت	فقد وعد الله المزيد على الشكر
لقد جنبتم أسرة حسدتكم	فسلت على الإسلام سيفاً من الكفر
وقد نغصتهم جولة بعد جولة	يبيتون فيها المسلمين على دعر

وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

ألا طرقت من أهل نية طارقة	على أنها معشوقة الدل عاشقة
تيت وأرض السوس بيني وبينها	وشولاف رستاق حمة الأزارقة
إذا نحن شئنا صادقنا عصابة	حرورية أضحت من الدين مارقة

وكان مقدار من أصاب علي صلوات الله عليه منهم بالنهروان ألفين ومائتي مائة ، في أصح الأقاويل ، وكان عددهم ستة آلاف ، وكان منهم بالكوفة

زُهاءُ ألفين من مُيسرُ أمره ولم يشهر الحرب ، فخرج منهم رجلٌ بعد أن قال عليٌ رضوان الله عليه : ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خُبابٍ ، فقالوا : كلنا قتلهُ وشريك في دمه ! ثم حمل منهم رجلٌ على صفِ عليٍّ ، وقد قال عليٌ : لا تبدؤوهم بقتالٍ ، فقتل من أصحاب عليٍّ ثلاثة وهو يقولُ : أقتلهم ولا أرى عليّاً ولو بدا أوجرتُهُ الخطيأ

فخرج إليه عليٌ صلوات الله عليه فقتله ، فلما خالطه السيفُ قال : حبّذا الروححةُ إلى الجنة ، فقال عبد الله بنُ وهبٍ : ما أدري إلى الجنة أم إلى النار ؟ فقال رجلٌ من بني سعدٍ : إنما حضرتُ اغتراراً بهذا ، وأراه قد شك!! فانخزل بجماعةٍ من أصحابه ، ومال ألفٌ إلى ناحية أبي أيوب الأنصاري ، وكان رحمة الله على ميمنة عليٍّ ، وجعل الناسُ يتسلّون ، وقد قال عليٌ ، وقيل له : إنهم يريدون الجسر ، فقال : لن يبلغوا النُطفة ، وجعل الناسُ يقولون له في ذلك ، حتى كادوا يشكّون ، ثم قالوا : قد رجعوا بأمر المؤمنين ، فقال : والله ما كذبتُ ولا كذبتُ ، ثم خرج إليهم في أصحابه ، وقد قال لهم : إنه والله ما يُقتلُ منكم عشرةٌ ، ولا يُفقتُ منهم عشرةٌ ، فقتل من أصحابه تسعة ، وأفقت منهم ثمانية .

* * *

قال أبو العباس: وقيل: أولُ من حكم ولفظ بالحكومة ولم يُشدّ بها رجلٌ من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرّة ، من بني صريمٍ ، يقال له الحجاجُ بنُ عبد الله ، ويُعرفُ بالبُرك ، وهو الذي ضرب معاوية على ألبته ، فإنه لما سمع بذكر الحكمين قال : أبحكمُ في دين الله ؟ لاحكم الله ! فسمعه سامعٌ فقال : طعن والله فأنقذ .

وأولُ من حكم بين الصفتين رجلٌ من بني يشكر بن بكر بن وائلٍ ، فإنه كان في أصحاب عليٍّ ، فحمل على رجلٍ منهم فقتله غيلةً ، ثم مرق بين

الصفين فحكم ، وحمل على أصحاب معاوية ، فكثروه ، فرجع الى ناحية عليّ صلوات الله عليه ، فحمل على رجل منهم ، فخرج إليه رجل من همدان فقتله ، فقال شاعر همدان :

ما كان أغنى البشكري عن التي تصلى بها جمرأ من النار حاميا
غداة يُنادي والرماحُ تنوشه خلعتُ علياً بادياً ومُعاويا
وجاء في الحديث ، ان علياً رضي الله عنه مُتليّ بحضرته : (قُلْ هَلْ
مُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) فقال عليّ : أهلُ حروراءَ منهم

ورُوي عن عليّ صلوات الله عليه : انه خرج في غداةٍ يُوقظُ الناس للصلاة
في المسجد ، فمرَّ بجماعةٍ تتحدثُ ، ، فسلمَ وسلموا عليه ، فقال وقبض على
لحيته : ظننتُ أن فيكم أسقاها ، الذي يخضبُ هذه من هذه . وأوماً يده إلى
هامته ولحيته .

ومن شعر عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين الذي لا اختلاف فيه أنه قاله ،
وأنه كان يُردّده : أنهم لما ساموه أن يُقرّ بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى
الشام ، فقال : أبعدُ صحبة رسول الله ﷺ والتفقه في الدين أرجع كافراً !! :
يا شاهد الله عليّ فاشهد أني على دين النبي أحمد
من شك في الله فإنني مهتدي

ويروى : أني توليت وليّ أحمد

ويروى : « أن رجلاً أسود شديد بياض الثياب وقف على رسول الله ﷺ
وهو يقسم غنائم خيبر ، ولم تكن إلا لمن شهد الحديبية فأقبل ذلك الأسود على
رسول الله ﷺ ، فقال : ما عدت منذُ اليوم ! فغضب رسول الله ﷺ حتى
رؤي الغضب في وجهه . فقال عمر بن الخطاب : ألا أقتله يا رسول الله ؟ فقال
رسول الله : إنه سيكون لهذا ولأصحابه نبالٌ » .

وفي حديث آخر : « أن رسول الله ﷺ قال له ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ » ثم قال لأبي بكر : اقبله ، فمضى ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ! رأيت راعياً ، ثم قال لعمر : اقبله ، فمضى ثم رجع ، فقال يا رسول الله ! رأيت ساجداً ، ثم قال لعلي : اقبله ، فمضى ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ! لم أره ، فقال رسول الله : لو قتل هذا ما اختلف اثنان في دين الله .

قال أبو العباس : وحدثني إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة في إسناده ذكره : « أن علياً رضي الله عنه وجه إلى رسول الله ﷺ بنهجه من اليمن ، فقسمها أربعاً ، فأعطى ربعاً للأقرع بن حابس الجاشعي ، وربعاً لزيد الخيل الطائي ، وربعاً لعينة بن حصن الفزاري ، وربعاً لعلمة بن علاثة الكلبي فقام إليه رجل مضطرب الخلق ، غائر العينين ، فأتى الجبهة ، فقال له : لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله !! فغضب رسول الله ﷺ حتى تورد خده ، ثم قال : أيامني الله عز وجل على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ فقام إليه عمر فقال : ألا أقتله يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : انه سيكون من ضئضئ هذا قوم يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية ، تنظر في النصل فلا ترى شيئاً ، وتنظر في الرصاص فلا ترى شيئاً ، وتنتاري في الفوق .

قوله ﷺ « من ضئضئ هذا ، أي : من جنس هذا . يقال : فلان من ضئضئ صدق ، ومن محند صدق ، وفي مركب صدق . وقال جرير للحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ، وهو ابن عم الحجاج ، وكان عاملاً على البصرة :

أقبلن من نهران أو وادي خيم على قلاصير مثل خيطان السلم
إذا قطعن علماً بدا علم حتى أغنناها إلى باب الحكم
خليفة الحجاج غير المشهم في ضئضئ المجد ومجوح الكرم
ويقال « مرق السهم من الرمية » إذا نفذ منها وأكثر ما يكون ذلك ان

لا يعلق به من دمها شيء ، وأقطع ما يكون السيف إذا سبق الدم . قال امرؤ القيس بن عابس الكندي :

وقد أختلس الضرب ة لا يدمي لها نصلي

فأما ما وضعه الأصمعي في كتاب الاختيار فعلى غلطٍ وضع . وذكر الأصمعي أن الشعر لإسحق بن سويد الفقيه ، وهو لأعرابي لا يعرف المقالات التي ييل إليها أهل الأهواء ، أنشد الأصمعي :

برئت من الحوارج لت منهم من الغزال منهم وابن باب
ومن قومٍ إذا ذكروا علياً يردئون السلام على السحاب
ولكني أحبُّ بكلِّ قلبي وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصدِّيق حياً به أرجو غداً حسن الثواب

فإن قوله « من الغزال منهم » يعني واصل بن عطاء ، وكان يكنى أبا حذيفة ، وكان معتزلاً ، ولم يكن غزاً ، ولكنه كان يلقب بذلك ، لأنه كان يلزم الغزالين ، ليعرف التعفُّفات من النساء ، فيجعل صدقته لهنّ ، وكان طويل العنق . ويروى عن عمر بن عبيد ، أنه نظر إليه من قبل أن يكلمه ، فقال : لا يفلح هذا ما دامت عليه هذه العنق !

وقال بشار بن بردٍ يهجو واصل بن عطاء :

ماذا منيت بغزالٍ له عتقٌ كنيقتك الدوَّ إن ولي وإن مثلاً
عتق الزرافة ما بالي وبالكُم تكفرون رجالاً أكفروا رجلاً
ويروى ، لا بلّ كأنه لا يشكُّ فيه : إن بشاراً كان يتعصب للنار على الأرض ، ويصوّب رأي إبليس - لعنه الله - في امتناعه من السجود لآدم عليه السلام ، ويروى له :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

فهذا ما يرويه المتكلمون .

وقتلهُ أميرُ المؤمنين المهديُّ على الإلحاد . وقد روى قومٌ أن كتبهُ فنُشتَ فلم يصبَ فيها شيءٌ بما كان يرُمى به ، وأُصيبَ له كتابٌ فيه : إني أردتُ هجاءَ آلِ سليمان بنِ عليٍّ ، فذكرتُ قرابتهم من رسولِ الله ﷺ فأمسكتُ منهم إلا إني قلتُ :

دينارُ آلِ سليمانٍ ودرهمهم
كبابليّين حقاً بالعفاريّات
لا يرنجيان ولا يرنجى نوالهما
كما سمعت بهاروت وماروت

وحدثني المازنيُّ قال : قال رجلٌ لبشارٍ : أأأكلُ اللحم وهو مبينٌ لديانتك؟! يذهبُ به إلى أنه ثنويٌّ ! قال : فقال بشارٌ : ليسوا يدرّون أن هذا اللحم يدفع عني شر هذه الظلّمة .

وكان واصلُ بنُ عطاءٍ أحدَ الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللّغة في الرأ ، فكان يخلّصُ كلامه من الرأ ، ولا يُفطنُ بذاك ، لاقتداره وسهولة ألفاظه . ففي ذلك يقولُ شاعرٌ من المعتزلة ، يمدحه بإطالته الخطب واجتبابه الرأ ، على كثرة تردّدها في الكلام ، حتى كأنها ليست فيه :

علمٌ يبادل الحروف وقامعٌ
لكلّ خطيبٍ يغلبُ الحق باطله

وقال آخرٌ :

ويجعلُ البر قمحاً في تصرّفه
وخالف الرأ حتى احتال للشعر
ولم يطق مطراً والقولُ يعجله
فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

وبما يحكى عنه قوله ، وذكر بشاراً : أما لهذا الأعمى المكتني بأبي معاذ من يقله؟! أما والله لولا أن الغيلة خلقت من أخلاق الغالية لبعثتُ إليه من يبعجُ بطنه على مضجعه ، ثم لا يكونُ الاسدّوسياً أو عقلياً .

فقال « هذا الأعمى » ولم يقل بشاراً ، ولا ابن برّدٍ ، ولا الضريرَ وقال « من أخلاق الغالية » ولم يقل المغيرة ، ولا المنصورية . وقال « لبعثنا إليه » ولم يقل لأرسلتُ إليه . وقال « على مضجعه » ولم يقل على فراشه

ولا مرقده . وقال « يعجب » ولم يقل يقرؤ . وذكر « بني عقيل » لأن
بشاراً كان يتوالى إليهم . وذكر « بني سدوس » لأنه كان نازلاً فيهم .
واجتاب الحرف شديد .

قال : ولما سقطت ثيابا عبد الملك بن مروان في الطست قال : والله لولا
الخطبة والنساء ما حلفت بها .

قال : وخطب الجمعي ، وكان متزوع إحدى التبتين ، وكانت يصفر
إذا تكلم ، فأجاد الخطبة ، وكانت لنكاح ، فرد عليه زيد بن علي بن الحسين
كلاماً جيداً ، إلا أنه فضله بتمكث الحروف وحسن مخارج الكلام ، فقال عبد
الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر يذكر ذلك .

صحت مخارجها وتم حروفها فله بذاك مزية لا تنكر
« المزية » الفضية .

وأما قوله « وابن باب » فإنه ، عمرو بن عبيد بن باب ، وكان موثق
بني العدوية ، من بني مالك بن حنظلة ، فهذان معتزليان ، وليسا من الخوارج ،
ولكن قصد إسحق بن سويد إلى أهل البدع والأهواء ، إلا تراه ذكر الرافضة
معها ، فقال :

ومن قوم إذا ذكروا علينا أشاروا بالسلام على السحاب
ويروي : يردون السلام على السحاب

★ ★ ★

ثم نرجع إلى ذكر الخوارج .

قال أبو العباس : فلما قتل علي بن أبي طالب أهل النهروان ، وكان بالكوفة
زهاء ألفين من الخوارج ، ممن لم يخرج مع عبد الله بن وهب ، وقوم ممن
استامن إلى أبي أيوب الأنصاري : قتبعوا وأمرؤا عليهم رجلاً من طي ،

فوجه إليهم عليّ صلوات الله عليه وجلاً ، وهم بالنخيلة ، فدعاهم ورقى بهم ، فأبوا ، فعاودهم فأبوا ، فقتلوا جميعاً . فخرجت طائفة منهم نحو مكة ، فوجه معاوية من يقيم للناس حجّهم ، فناوشه هؤلاء الحوارج ، فبلغ ذلك معاوية فوجه بسر بن أرطاة ، أحد بني عامر بن لؤي ، فتوافقوا وتراضوا بعد الحرب بأن يصلي بالناس رجل من بني شيبه ، لثلاثين يوماً ، فلما انقضى نظرت الحوارج في أمرها ، فقالوا : إن علياً ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة ، فلو قتلناهما لعاد الأمر إلى حقّه ! وقال رجل من أشجع : والله ما عمرت دونها وإنه لأصل هذا الفساد . فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنة الله عليه : أنا أقتل علياً ، فقالوا : وكيف لك به ؟ قال : أغتاله ، قال الحجاج بن عبد الله الصريمي ، وهو البرك : وأنا أقتل معاوية . وقال زاذويه موالي بني العنبر بن عمرو بن عجم : وأنا أقتل عمرأ . فاجتمع رأيهم على أن يكون قتلهم في ليلة واحدة ، فجمعوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان ، فخرج كل واحد منهم إلى ناحية ، فأتى ابن ملجم الكوفة ، فأخفى نفسه وتزوج امرأة يقال لها قطام بنت علقمة من تيم الرّباب ، وكانت ترى رأي الحوارج ، والأحاديث تختلف ، وإنما يؤثر صحيحها ، ويروى في بعض الأحاديث أنها قالت : لا أقتع منك إلا بصدّق أسميه لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم ، وعبد وأمة ، وأن تقتل علياً ! فقال لها : لك ما سألت ، فكيف لي به ؟ قالت : تروم ذلك غيلة ، فإنّ ملت أرحت الناس من شرّ ، وأقت مع أهلك ، وإنّ أصبت مررت إلى الجنة ونعيم لا يزول ! فأنعم لها بذلك . وفي ذلك يقول :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب عليّ بالحسام المصم

فلا سهر أغلى من عليّ وإن غلا ولاقتك إلا دون فتك ابن ملجم

قال أبو العباس : وقد ذكروا أن القاصد إلى معاوية يزيد بن ملجم والقاصد إلى عمرو وآخر من بني ملجم ، وأن أباهم نهم ، فلما عصوه قال : استعدوا للموت ، وأن أهمّ حضتهم على ذلك . والخبر الصحيح ما ذكرت لك أول مرة .

فأقام ابن ملجم ، فقال : أن امرأته قطام لامته ، وقالت : ألا تخفي لما قصدتَ له ؟ لشد ما أحيت أهلك ! قال : إني قد وعدت صاحبي وقتاً بعينه . وكنت هنالك رجلاً من أشجع ، يقال له شبيب ، فواطأه عبد الرحمن .

ويروى : أن الأشعث نظر إلى عبد الرحمن متقلداً سيفاً في بني كندة ، فقال : يا عبد الرحمن ، أرني سيفك ، فأراه إياه ، فرأى سيفاً حديداً ، فقال : ما تقلدك هذا السيف وليس بأوان حرب ؟ فقال : إني أردت أن أنحر به جزور القرية ! فركب الأشعث بغلته وأتى علياً صلوات الله عليه فخبّره ، وقال له : قد عرفت بسالة ابن ملجم وقتكه فقال عليّ : ماقتلني بعد !!

ويروى : أن علياً رضوان الله عليه كان يخطب مرةً ويذكر أصحابه ، وابن ملجم تلقاء المنبر ، فسمع وهو يقول : والله لأرجمنهم منك ! فلما انصرف عليّ صلوات الله عليه إلى بيته أتى به ملبباً ، فأشرف عليهم ، فقال : ما تريدون ؟ فخبّروه بما سمعوا ، فقال : ماقتلني بعد . فخلّوا عنه

ويروى : أن علياً كان يتمثل إذا رآه بيت عمرو بن معدي كرب في قيس بن مكشوح المرادي ، والمكشوح هيرة ، وإنما سمى بذلك لأنه ضرب على كشه :

أريد جاءه ويريد قتلي عزيزك من خليك من مراد

فيتنفي من ذلك ، حتى أكثر عليه ، فقال له المراديّ : إن قضي شيء كان . فقيل لعليّ : كأنك قد عرفته وعرفت ما يريد بك ، أفلا تقتله ؟ فقال : كيف أقتل قاتلي ؟ !

فلما كان ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان ، خرج ابن ملجم وشبيب الأشجعيّ ، فاعتورا الباب الذي يدخل منه عليّ رضي الله عنه ، وكانت عليّ يخرج مغلاً ، ويوقظ الناس للصلاة ، فخرج كما كان يفعل ، فضربه شبيب

فأخطاه ، وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلته ، فقال علي :
 قرئت ورب الكعبة ، شأنكم بالرجل . فيروى عن بعض من كان بالمسجد من
 الأنصار قال : سمعت كلمة علي ، ورأيت يريق السيف . فأما ابن ملجم
 فعمل على الناس بسيفه فأفرجوا له ، وتلقاه المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد
 المطلب بقطيفة ، فرمى بها عليه ، واحتمله فضرب به الأرض ، وكان المغيرة
 أبدأ ، فقعد على صدره . وأما شبيب فانتزع السيف منه رجل من حضرموت ،
 وصرعه وقعد على صدره . وكثر الناس ، فجعلوا يصيحون : عليكم صاحب
 السيف ، فخاف الحضرمي أن يكبوا عليه ولا يسمعوا عذره ، فرمى بالسيف ،
 وانسل شبيب بين الناس . فدُخِلَ بابن ملجم على علي رضي الله عنه ، فأمر
 فيه ، فاختلف الناس في جوابه ، فقال علي : إن أغش فالأمر إلي ، وإن
 أصب فالأمر لكم ، فإن أثرت أن تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تغفوا أقرب
 لتقوى . وقال قوم : بل قال : وإن أصبت فاضربوه ضربة في مقله .
 فأقام علي يومين ، فسمع ابن ملجم الرثة من الدار ، فقال له من حضره .
 أي عدو الله : إنه لا بأس على أمير المؤمنين ، فقال : أعلی من تبكي أم كلثوم ؟
 أعلی ؟ أما والله لقد اشتريت سيفي بألف درهم ، وما زلت أعرضه ، فما يعيه
 أحدٌ إلا أصلحت ذلك العيب ، ولقد أسقينه السم حتى لفظه ، ولقد ضربته
 ضربة لو قسمت على من بالشرق لأنت عليهم . ومات علي صلوات الله ورضوانه
 عليه ورحمته في آخر اليوم الثالث ، فدعاه الحسن رضي الله عنه ، فقال : إن
 لك عندي سرّاً ! فقال الحسن رضوان الله عليه : أتدرون ما يريد ؟ يريد أن
 يقرب من وجهي فيعض أذني فيقطعها ، فقال : أما والله لو أمكنتني منها
 لاقتلعتها من أصلها ! فقال الحسن : كلا والله ، لأضربنك ضربة تؤدبك إلى
 النار ، فقال : لو علمت أن هذا في يديك ما اتخذت إلهاً غيرك ، فقال عبد الله
 ابن جعفر : يا أبا محمد ، ادفعه إلي أسف نفسي منه . فاختلفوا في قتله ، فقال
 قوم : أحمى له ميلين وكحله بها ، فجعل يقول : إنك يا ابن أخي لتكحل
 عمك بملوئين مضاضين ، وقال قوم : بل قطع يديه ورجليه ، وهو في ذلك

يذكر الله عز وجل ، ثم حمد إلى لسانه ، فشق ذلك عليه ، ف قيل له : لم تجزع من قطع يديك ورجليك ونراك قد جزعت من قطع لسانك ؟ فقال : نعم ، أحببت أن لا يزال في بذكر الله رطباً ، ثم قتله .

ويروى : أن علياً رضي الله عنه أتى باین ملجم وقيل له إننا قد سمعنا من هذا كلاماً فلا نأمن قتله لك ؟ فقال : ما أصنع به ؟ ثم قال عليّ رضوان الله عليه :

اشدّ حيازيمك للموت فإن الموت لاقبكا
ولا تجزع من الموت إذا حل براديبكا
والشعر إنما يصحّ بأن تحذف « اشدّ » فتقول :
حيازيمك للموت فإن الموت لاقبكا

ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما عليه المعنى ، ولا يعتدون به في الوزن ، ويحذفون من الوزن ، علماً بأن المخاطب يعلم ما يزيدونه ، فهو إذا قال « حيازيمك للموت » فقد أضمر « اشدّ » فأظهره ، ولم يعتد به . وقال : وحدثني ابو عثمان المازني قال : فصحاء العرب ينشدون كثيراً :

لسعد بن الضباب إذا غدا أحب إلينا منك فافرس حرّ
وإنما الشعر : لعمرى لسعد بن الضباب إذا غدا

• • •

وأما الحجاج بن عبد الله الصريمي - وهو البرك - ، فإنه ضرب معاوية مصلياً فأصاب ما كتمه ، وكان معاوية عظيم الأوزاك ، فقطع منه عرقاً يقال أنه عرق السكاح ، فلم يولد لمعاوية بعد ذلك ولدٌ ، فلما أخذ قال : الأمان والبشارة ، قتل عليّ في هذه الصبيحة ، فاستؤني به حتى جاء الخبر ، فقطع معاوية يده ورجله ، فأقام بالبصرة ، فبلغ زراداً أنه قد ولد له ، فقال : أبولد له وأمير المؤمنين لا يولد له ، فقتله . هذا أحد الخبرين .

ويروى : أن معاوية قطع يديه ورجليه ، وأمر باتخاذ المقصورة ، ف قيل لابن عباس بعد ذلك : ما تأويل المقصورة ؟ فقال : يخافون أن يهظم الناس .

وأما زاذويه : فإنه أرصد لعمرؤ ، واشتكى عمرو بطنه ، فلم يخرج للصلاة ،
 وخرج إلى الصلاة خارجة ، وهو رجلٌ من بني سهم بن عمرو بن هصيص ،
 رهط عمرو بن العاص ، فضربه زاذويه فقتله ، فلما دخل به على عمرو فرآهم
 يخاطبونه بالإمرة قال : أو ما قتلتم عمرأ ؟ قيل : لا ، إنما قتلنا خارجة ،
 فقال : أردت عمرأ والله أراد خارجة .

* * *

وقال أبو زيد الطائي يرثي علي بن أبي طالب صلوات الله عليه :
 إن الكرام على ما كان من خلقه رهط امرئ خاره للدين مختار
 طبع بصير بأضغان الرجال ولم يعدل بحبر رسول الله أخبار
 وقطرة قطرت إذ حان موعدها وكل شيء له وقت ومقدار
 حتى تنصلها في مسجد طهر على إمام هدى إن معشر جاروا
 حمت ليدخل جنات أبو حسن وأوجبت بعده للقاتل النار
 قوله « خاره » إنما هو : اختاره ، وهو « فعله » و « اختاره » « افتعله »
 كما تقول : قدر عليه واقتدر عليه .

وقوله « بصير بأضغان الرجال » ، فهي أصرارها وغبائتها . قال الله تعالى :
 (فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) . و « الخبر » العالم . ويروي ابن علياً
 رضوان الله عليه مر يهودي يسأل مسلماً عن شيء من أمر الدين ، فقال له علي :
 اسألني ودع الرجل ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! أنت خبر ، أي : عالم ،
 قال علي : أن تسأل عالماً أجدي لك .

وقوله « حتى تنصلها » يريد : استخرجها .

وقوله « حمت » معناه قدرت .

قال الكمي :

والوصي الذي أمال التجوب يئ به عرش أمة لانهدام

قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه حكماً لا كغابر الحكام
الإمام الزكي والفارس المعت لم تحت العجاج غير الكهام
راعياً كان منجاً ففقدنا ه وفقد السيم هلك السوام

قوله « الوصي » فهذا شيء كانوا يقولونه ويكثرون فيه . قال ابن
قيس الرقيات :

نحن منّا النبي أحمد والصدّيق منّا التقي والحكام
وعلي وجعفر ذو الجناح بن هناك الوصي والشهداء
وقال كثير لما حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية في خمسة عشر
رجلاً من أهله في سجن عارم :

متجبر من لاقيت أنك عائد بل العائد المحبوس في سجن عارم
وصي النبي المصطفى وابن عمه وفكّك أعناق وقاضي مغارم
أراد : ابن وصي النبي ، والعرب تقيم المضاف إليه في هذا الباب مقام
المضاف ، كما قال الآخر :

صبّعن من كاظمة الحص الحرب يحملن عباس بن عبد المطلب
يريد : ابن عباس رضي الله عنه ، وقال الفرزدق لسليمان بن عبد الملك :
ورثم ثياب المجد فهي لبوسكم عن ابن مناف عبد شمس وهاشم
يريد : ابني عبد مناف .

وقال أبو الأسود :

أحب محمدًا حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصي
أحبهم لحب الله حتى أجيء إذا بعثت على هوي
هوى أعطيه منذ استدارت رحي الإسلام لم يعدل سويًا

« السوي » و « السواء » الذي قد سوى الله خلقه ، لا زمانة به ولا
داء . وفي القرآن : (بشراً سويًا) . وتقول : ساويت ذاك بهذا الأمر ،

أي : جعلته مثلاً له .

يقول الأزدلون بنو قشير طوال الدهر ما تنسى علياً
بنو عَمِّ النبي وأقربوه أحبُّ الناس كلَّهم إلينا
فإن يك حُبُّهم رشداً أصبه وليس بخطيء إن كان غيًّا
ويروى « ولست » وكان بنو قشير عثمانيَّةً ، وكان أبو الأسود نازلاً
فيهم ، فكانوا يرمونه بالليل ، فإذا أصبح شكوا ذلك ، فشكاهم مرةً ، فقالوا
له : ما نحن ترميك ، ولكنَّ اللهَ يرميك ! فقال : كذبتم والله ، لو
كان الله يرميني لما أخطأني .

قال : وكان نقش خاتمه :

ياغالبى حسبك من غالبٍ ارحم عليّ بن أبي طالب
وقوله « غير الكهائم » فالكهائم : الكليل من الرجال والسيوف ، يقال
سيفٌ كهائمٌ . وقوله :

« راعياً كان مسيحاً فقدنا » وفقد المسم هلك السَّوام ،
فالمسم : الذي يسم إبله أو غنمه توعى ، وكذلك كلُّ شيءٍ من الماشية ،
فجعل الراعي للناس كصاحب الماشية الذي يسمها ويسوسها ويصلحها ، ومتى لم
يرجع أمر الناس إلى واحدٍ فلا نظام لهم ، ولا اجتماع لأموالهم . قال ابن
قيس الرُّقَيَّات :

أيها المشتبي فناء قريشٍ بيدِ اللهِ عمرها والفناء
إن تودَّع من البلاد قريشٌ لا يكن بعدم لحي بقاء
لو تقفني ويترك الناس كانوا غم الذئب غاب عنها الرعاء
وقال الحميريُّ يعني علياً رضوان الله عليه :

كان المسم ولم يكن إلا لمن لزم الطريقة واستقام مسياً
ولما سمع عليُّ صلوات الله عليه نداهم « لاحكم إلا لله » قال : كلمةٌ عادةٌ
يراد بها جورٌ ، إنما يقولون لا إمارة ، ولا بدٌّ من إمارة ، برةٌ أو فاجرةٌ .

وروي أن علياً عليه السلام لما أوصى إلى الحسن في وقف أمواله وأن يجعلَ فيها ثلاثة من مواله وقف فيها عين أبي نيزر والبغيغة . وهذا غلط ، لأن وقفه لهذين الموضعين لستين من خلافته .

قال أبو العباس : حدثنا أبو عَلمٍ محمد بن هشام في إسناده ذكره آخره أبو نيزر ، وكان أبو نيزر من أبناء بعض ملوك الأعاجم ، قال : وصح عندي بعدُ أنه من ولد النجاشي ، (يعني أبا نيزر) ، فرغب في الإسلام صغيراً ، فأتى رسول الله ﷺ فأسلم ، وكان معه في بيوته ، فلما توفي رسول الله صار مع فاطمة وولدها عليهم السلام ، قال أبو نيزر : جاءني علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وأنا أقوم بالضيعتين : عين أبي نيزر والبغيغة ، فقال لي : هل عندك من طعام ؟ فقلت : طعام لا أرضاه لأمر المؤمنين ، قرع من قرع الضيعة صنعتها بإهالة سنخة ، فقال : علي به ، فقام إلى الربيع ، وهو جدول ، فغسل يديه ، ثم أصاب من ذلك شيئاً ، ثم رجع إلى الربيع ، فغسل يديه بالرمال حتى أنقأهما ، ثم ضمَّ يديه كل واحدةٍ منها إلى أختها ، وشرب بها حساً من ماء الربيع ، ثم قال : يا أبا نيزر ! إن الأكف أنظف الآنية ، ثم مسح ندى ذلك الماء على بطنه ، وقال : من أدخله بطنه النار فأبعده الله ، ثم أخذ المعول وانحدر في العين ، فجعل يضرب ، وأبطأ عليه الماء ، فخرج وقد تفضج جبينه عرقاً ، فانتكف العرق عن جبينه ، ثم أخذ المعول وعاد إلى العين ، فأقبل يضرب فيها وجعل يهيمهم فانتالت كأنها عتق جزور ، فخرج مسرعاً ، فقال أشهد الله أنها صدقة ، علي بدواة وصحيفة قال : فجعلت بها إليه ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تصدق به عبد الله علي أمير المؤمنين ، تصدق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيغة ، على فقراء أهل المدينة وابن السبيل ، ليقى الله بها وجهه حر النار يوم القيامة ، لاتباعاً ولا توهباً ، حتى يرثها الله وهو خير الوارثين ، إلا أن يحتاج إليها الحسن أو الحسينُ فما يطلق لها ، وليس لأحدٍ غيرهما . قال محمد بن هشام : فركب الحسين رضي الله عنه دُبرين ، فحمل إليه معاويةُ بعين أبي نيزر مائتي ألف دينار ، فأبى أن يبيع ،

وقال : إنما تصدق بها أبي ليقب الله بها وجهه حرّ النار ، ولست بأثعها بشيء .
وتحدث الزبيريون : أن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم ، وهو والي
المدينة : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين أحب أن يرد الألفه ، ويسل السخيمة ،
ويصل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاخطب إلى عبد الله بن جعفر ابنته
أم كلثوم على يزيد بن أمير المؤمنين ، وارغب له في الصداق ، فوجه مروان
إلى عبد الله بن جعفر ، فقرأ عليه كتاب معاوية ، وأعلمه بما في ردّ الألفه من
صلاح ذات البين ، واجتماع الدعوى ، فقال عبد الله : إن خالها الحسين ينبغي ،
وليس ممن يفتات عليه بأمر ، فأظنني إلى أن يقدم ، وكانت أمها زينب بنت
علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فلما قدم الحسين ذكر ذلك له عبد الله
ابن جعفر ، فقام من عنده فدخل إلى الجارية ، فقال : يا بنية ! إن ابن عمك القاسم
ابن محمد بن جعفر بن أبي طالب أحق بك ، ولعلك ترغين في كثرة الصداق
وقد غلشتك البغيغات ، فلما حضر القوم للإملاك تكلم مروان بن الحكم ،
فذكر معاوية وما قصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ، فتكلم الحسين فزوجها من
القاسم بن محمد فقال له مروان : أغدراً يا حسين ؟ ! فقال : أنت بدأت ،
خطب أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام عائشة بنت عثمان بن عفان ، واجتمعنا
لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير ، فقال مروان : ما كان
ذلك ، فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطب فقال : أنشدك الله ، أكان ذاك ؟
قال : اللهم نعم . فلم تزل هذه الضيعة في يدي بني عبد الله بن جعفر ، من
ناحية أم كلثوم ، يتوارثونها ، حتى ملك أمير المؤمنين المأمون ، فذكر ذلك
له ، فقال كلا ، هذا وقف علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فانتزعها من
أيديهم ، وعوضهم عنها ، وردّها إلى ما كانت عليه .

• • •

قال أبو العباس : رجع الحديث إلى ذكر الحوارج وأمر علي بن
أبي طالب .

قال : ويروى أن علياً في أول خروج القوم عليه دعا صعصة بن صوحان

العبدى ، وقد كان وجهه إليهم ، وزيد بن النضر الحارثي مع عبد الله بن العباس ، فقال لصعصعة : بأي القوم رأيتم أشد إطفاءً ؟ فقال : يزيد بن قيس الأرحبي ، فركب عليّ إليهم إلى حروراء ، فجعل يتخلّطهم ، حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتكأ على قوسه ، وأقبل على الناس ، ثم قال : هذا مقام من قَلَج فيه قَلَج يوم القيامة ، أنشدكم الله ، أعلمتم أحداً منكم كان أكره للحكومة مني ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلتم أنكم أكرهتموني حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتموني وناذرتوني ؟ قالوا : إنّنا أتينا ذنباً عظيماً ، فتبنا إلى الله ، فتب إلى الله منه واستغفره نعد لك ؟ فقال عليّ : إني أستغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا معه ، وهم ستة آلاف . فلما استقرّوا بالكوفة أشاعوا أن عليّاً رجع عن التحكيم ورآه ضاللاً ، وقالوا : إنّما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ويمجى المال فينفض إلى الشام ، فأتى الأشعث بن قيس عليّاً عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد تحدّثوا أنك رأيت الحكومة ضاللاً والإقامة عليها كفرًا !! فخطب عليّ الناس فقال : من زعم أنّي رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضاللاً فهو أضلّ ، فخرجت الحوارج من المسجد ، فحكمت ، فقيل لعليّ : إنّهم خارجون عليك ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلوني ، وسيفعلون ، فوجه إليهم عبد الله بن العباس ، فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباهاً قريحةً لطول السجود ، وأيدياً كثفناث الإبل ، و عليهم قمصٌ مرحضّةٌ ، وهم مشمرون ، فقالوا : ما جاء بك يا أبا العباس ؟ فقال : جئتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، وأعلننا بربه وسنة نبيه ، ومن عند المهاجرين والأنصار ، قالوا : إنّنا أتينا عظيماً حين حكّمنا الرجال في دين الله ، فإن تاب كما تبنا ونهض للمجاهدة عدونا رجعنا ، فقال ابن عباس : نشدتكم الله إلا ماصدقتم أنفسكم ! أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أربّ تساوي ربع درهم تصاد في الحرم ، وفي شقاق رجل وامراته ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : فأنشدكم الله ، هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية ؟ قالوا : نعم ،

ولكن علياً محاً نفسه من إمارة المسلمين ، قال ابن عباس : ليس ذلك بزيها عنه ، وقد محاً رسول الله ﷺ اسمه من النبوة ، وقد أخذ عليّ على الحكيم أن لا يجوزوا ، وإن يجوزوا فعليّ أولى من معاوية وغيره ، قالوا : إن معاوية يدعي مثل دعوى عليّ ، قال : فأبشها رأيتموه أولى فولئوه ، قالوا : صدقت ، قال ابن عباس : و متى جار الحكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهما ، قال : فاتبعه منهم ألفان وبقي أربعة آلاف ، فصلّى بهم صلواتهم ابن الكواء ، وقال متى كانت حزبٌ فرئيسكم شيث بن ربيعيّ الرّياحيّ ، فلم يزالوا على ذلك يومين ، حتى أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبيّ ، قال : ومضى القوم إلى النهروان ، وكانوا أرادوا المضي إلى المدائن . قال الأخفش : كذا كان يقول المبرد « النهروان » بكسر النون والراء ، وإنما هو « النهروان » بالفتح ، وانشد للطرمّاح :

قلّ في شطّ نهروان اغتماضي

• • •

قال أبو العباس : فمن طريف أخبارهم : أنهم أصابوا مسلماً ونصرانيّاً ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني ، فقالوا : احفظوا ذمة نبيكم !! ولقيم عبد الله بن خبّابٍ وفي عنقه مصحفٌ ، ومعه امرأته وهي حاملٌ ، فقالوا له : إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا أن نقتلك ! قال : ما أحيا القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب رجلٌ منهم على رُطبةٍ فوضعها في فيه ، فصاحوا به فلفظها تورّعاً ، وعرض لرجلٍ منهم خنزيراً فضربه الرجل فقتله ، فقالوا : هذا فساد في الأرض !! فقال عبد الله بن خبّابٍ : ما عليّ منكم بأش ، إني لمسلم ، قالوا له : حدثنا عن أبيك ؟ قال سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمي مؤمناً ويصبح كافراً ، فكن عبد الله المقتول ، ولا تكن القاتل » . قالوا : فما تقول في أبي بكرٍ وعمر ؟ فأتني خيراً ، فقالوا : فما تقول في عليّ أميرٍ

المؤمنين قبل التحكيم ، وفي عثمان ست سنين ؟ فأننى خيراً ، قالوا : فما تقول في الحكومة والتحكيم ؟ قال : أقول : إن علياً أعم بكتاب الله منكم ، وأشدُّ توقياً على دينه ، وأنفذ بصيرةً ، قالوا : إنك لست تتبّع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائها ! ثم قربه إلى شاطئ النهر ، فذبحوه ، فامدقروا دمه ، أي : جرى مستطيلاً على دقته . وساموا رجلاً نصرانياً بنخلة له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : ما كنا لناخذها إلا بشئ ! قال ما أعجب هذا ، أنقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا جنى نخلة ؟

ومن طريف أخبارهم : أن غيلان بن خرشة الضبّيّ سمر ليلة عند زيادٍ ومعه جماعة ، فذكروا أمر الخوارج ، فأخفى عليهم غيلان ، ثم انصرف بعد ليلٍ إلى منزله ، فلقبه أبو بلال مرداس بن أدية فقال له : يا غيلان ! قد بلغني ما كان منك الليلة عند هذا القاسق ، من ذكر هؤلاء القوم الذين شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنيام ، ما يؤمنك أن يلقاك رجلٌ منهم ، أحرص والله على الموت منك على الحياة ، فينفذ حضنك برمحه ؟ فقال غيلان : لن يبلغك أني ذكرتهم بعد هذه الليلة .

ومرداسٌ تتخله جماعة من أهل الأهواء ، لقشفه وبصيرته ، وصحة عبادته ، وظهور ديانته ، وبيانته . تتخله المعتزلة ، وترغم أنه خرج منكراً لجور السلطان ، داعياً إلى الحق . وتحتجُّ له بقوله لزيدٍ حيث قال على المنبر : والله لا آخذنَّ المحسن منكم بالمسيء ، والحاضر منكم بالغائب ، والصحيح بالسقيم ، والمطيع بالعاصي ، فقام إليه مرداسٌ فقال : قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان وما هكذا ذكر الله عزَّ وجلَّ عن نبيه إبراهيم عليه السلام ، إذ يقول : (وإبراهيمَ الذي وفى ، ألا تَوَرَّوْا وَازْرَوْا وَزَّرْ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعَاهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى) وأنت ترغم أنك تأخذ المطيع بالعاصي ، ثم خرج في عقب هذا اليوم . والشيعُ تتخله ، وترغم أنه كتب إلى الحسين أن علياً صلواتُ الله عليه : أما إني لستُ أرى رأيي الخوارج ، وما أفا إلا على دين أبيك .

وهذا رأي قد استهوى جماعة من الأشراف . يُروى : أنت المنذر بن
لجارد كان يرى رأي الحوارج . وكان يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن
يوسف يراه . وكان صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق يراه . وكان
عدة من الفقهاء يُنسبون إليه ، منهم عكرمة مولى ابن عباس . وكان يقال
ذلك في مالك بن أنس ، ولعل هذا يكون باطلا . ويروى الزُّبَيْرُون :
أن مالك بن أنس المديني كان يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير ، فيقول :
والله ما اقتلوا إلا على الشريد الأعفر !

فأما أبو سعيد الحسن البصري فإنه كان يُنكرُ الحكومة ، ولا يرى
رأيهم ، وكان إذا جلس فتمكّن في مجلسه ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثاً ، ولعن
قتله ثلاثاً ، ويقول : لو لم نلعنهم للعنا ، ثم يذكر علياً فيقول : لم يزل
أمير المؤمنين علي رحمه الله يتعرفه النصر ، ويساعده الظفر ، حتى حكم ،
فلم تُحكّم والحق معك ؟ ألا تمضي قدماً لا أبالك وأنت على الحق ؟ !

* * *

قال أبو العباس : وهذه كلمة فيها جفاء ، والعرب تستعملها عند الحث على
أخذ الحق والإغراء ، وربما استعملتها الجفافة من الأعراب عند المسألة والطلب ،
فيقول القائل للأمير والخليفة : انظر في امر رعيتك لا أبالك ! وسمع سليمان بن
عبد الملك رجلاً من الأعراب في سنة جدية يقول :

ربّ العباد مالنا ومالكنا قد كنت تسقينا فما بدا لك

انزل علينا الغيث لا أبالك

فأخرجه سليمان أحسن حرج ، فقال أشهد أنه لا أبأ له ولا ولد ولا صاحبة ،
وأشهد أن الخلق جميعاً عباده . وقال رجل من بني عامر بن صعصعة أبعد من
هذه الكلمة لبعض قومه :

أبني عقيل لا أبأ لأبيكم أي وأي بني كلاب أكرم

وقال رجلٌ من طَيِّيٍّ ، أنشده أبو زيد الانصاري :

ياقرط قرط حيّ لا أبالك	ياقرط إني عليكم خائفٌ حذر
أن روى رققش واصطاف أعزّه	من التلاع التي قد جادها المطر
قلتم له اهج عيماً لا أبالك	في كفّ عبدكم عن ذاكم قصر
فإن بيت تميم نو سمعت به	فيه تمت وأرست عزها مضر

قوله « ياقرط قرط حيّ » نصبها معاً أكثر على السنة العرب ، وتأويلها :
أنهم أرادوا « ياقرط حيّ » ، فأقحموا « قرطاً » ، الثاني توكيداً ، وكذلك الجرير :

ياتيم تيم عديّ لا أبالك لا يلقينكم في سومةٍ عمر
ومثله لعمر بن لجار :

يازيد زيد العملات الذبل تطاول الليل عليك فانزل

فإن لم ترد التوكيد والتكرير لم يجوز إلا رفع الأول « يازيد زيد العملات »
و « ياتيم تيم عديّ » كما تقول « يازيد أخا عمرو » على النعت . ومثل الأول
في التوكيد « يابؤس للحرب » أراد : يابؤس الحرب ، فأقحم اللام توكيداً ؛
لأنها توجب الإضافة . وعلى هذا جاء « لا أبالك » و « لا أبأ لزيد » ولولا
الإضافة لم تثبت الألف في الأب ؛ لأنك تقول : رأيتُ أباك ، فإذا أفردت
قلت : هذا أبٌ صالحٌ . وإنما كانت « لا أباك » كما قال الشاعر :

أبالموت الذي لا بدّ أني مُلاقٍ لا أباكٍ مُتخوِّفني
وقال آخرُ :

وقدمات شماغٍ ومات مزردٌ وأيُّ كريمٍ لا أباكٍ مُمخِلدٌ

وقوله : « أن روى رققش » ، « رققش » رجلٌ . و « روى » استقى
لأهله ، يقال : فلانٌ راويةٌ أهله : إذا كان يستقي لأهله ، والتي على البعير
والحمار مزادةٌ ، فإذا كبرت وعظمت وكانت من ثلاثة آدمية فهي المثلثة ،
وأصغر منها السطيحة ، وأصغرهن الطنبع .

وقوله « واصطاف أعزُّهُ » يريدُ : اقتعلت ، من الصِّيف ، أي : أصابت
البقل فيه .

و « التَّلعةُ » : ما ارتفع من الأرض في مُستقرِّ المسيل إذا تجافى السيلُ
عن مَنته ، وجمعه « تلاعٌ » .

وقوله : « ذُو سمعت به » يريدُ : الذي ، وكذلك تفعلُ طيءٌ ، تجعلُ
« ذُو » في معنى « الذي » ، قال زيدُ الحِمْيَرُ لَبْنِي فزارة وذكر عامر بن
الطُّفَيْل فقال :

إني أرى في عامرٍ ذُو تَرَوْنِ

وقال عارقُ الطائيُّ :

فإن لم يُغيِّرْ بعضُ ما قد فعلتمُ لاَتُحِينَ للعظمِ ذُو انا عارقهُ
يريدُ : الذي ..

ومن مُظرفاء المحدثين البائية منْ يعملُ هذا اعتماداً لإيثار لغة قومه ، قال الحسنُ
ابن هانئ الحكمي :

سُحب المدامة ذُو سمعت به لم يُبق في غيرها فضلا

وقال حبيبُ بن أوسِ الطائي :

أنا ذُو عرفتِ فإن عرتك جهالةُ فانا المقيمُ قِيامة العذال

وقال الحسنُ بنُ وهبِ الحارثي :

عللاني بذكرها عللاني واسقياني أو لا فمن تسقيان

أنا ذُو لم يزلْ يهونُ على التَّد مان إن عزَّ جانبُ التَّدمان

ويكونُ العزيزُ في ساعة الرو ع بصدق الطعان يوم الطعان

* * *

عاد الحديثُ إلى ذكر الخواارج :

قال أبو العباس ، وكان في جملة الخواارج لَدَدَ واحتجاجٌ ، على كثرة

خطبائهم وشعرائهم ، وتفاذ بصيرتهم ، وتوطنين أنفسهم على الموت ، فمنهم الذي طعن فأنفذ الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : (وعجلت إليك رب لترضى) .

ويروى عن النبي ﷺ أنه لما وصفهم قال : « سيام التحليق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، علامتهم رجلٌ مخدج اليد » . وفي حديث عبد الله بن عمرو : « رجلٌ يقال له عمرو ذو الحويصرة ، أو الحيصرة » . وروى عن النبي ﷺ : « أنه نظر إلى رجلٍ ساجدٍ ، إلى أن صلى النبي عليه السلام ، فقال : ألا رجلٌ يقتله ؟ فحسر أبو بكر عن ذراعه وانتضى السيف وصمد نحوه ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال : أقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله ؟ فقال النبي عليه السلام : ألا رجلٌ يفعل ؟ ففعل عمر مثل ذلك ، فلما كان في الثالثة قصد له علي بن أبي طالب عليه السلام فلم يرّه ، فقال رسول الله ﷺ : لو قتل لكان أول فتنةٍ وآخرها » .

ويروى عن أبي مريم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه ذكر الخدج عند النبي عليه السلام ، فقال أبو مريم : والله إن كان معنا في المسجد وكان فقيراً ، وكان يحضر طعامَ أمير المؤمنين عليٍّ إذا وضعه للمسلمين ، ولقد كسوته برنساً لي ، فلما خرج القوم إلى حروراء قات : والله لأنظرون إلى عسكرهم ، فجعلت أنخلهم حتى صرت إلى ابن الكواء وشبث بن ربعي ، ورس عليّ تشادهم ، حتى وثب رجلٌ من الخوارج على رسولٍ لعليٍّ ، فضرب دابته بالسيف ، فحمل الرجل مرجه وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم انصرف القوم إلى الكوفة ، فجعلت أنظر إلى كثرتهم كأنما ينصرفون من عيدٍ ، فرأيت الخدج ، وكان مني قريباً ، فقلت : أكنت مع القوم ؟ فقال : أخذت سلاحي أريدكم فإذا بجماعةٍ من الصبيان قد عرضوا لي فأخذوا سلاحي وجعلوا يتلاعبون بي ! فلما كان يوم البهر قال عليٌّ أمير المؤمنين : اطلبوا الخدج ، فطلبوه فلم يجدوه حتى ساء ذلك علياً ، وحتى قال رجلٌ : لا والله يا أمير المؤمنين ما هو فيهم ،

فقال عليّ : والله ما كذّبت ولا كُذِّبت ، فجاء رجلٌ فقال : قد أصبناه يا أمير المؤمنين ، فخر عليّ ساجداً ، وكان إذا أتاه ما يُسرُّ به من الفتح سجد ، وقال : لو أعلم شيئاً أفضل منه لفعلته ، ثم قال : سيّاه أن يده كالثدي ، عليها شعرات كشارب السنور ، ايتوني بيده المحدثّة ، فأتوه بها ، فنصبها .

ويروى عن أبي الجلد : أنه نظر إلى نافع بن الأزرق الحنفي وإلى نظره وتوغّله وتعمّقه ، فقال : إني لأجد لجهنم سبعة أبوابٍ ، وإن أشدها حرّاً للخوارج ، فاحذر أن تكون منهم .

قال : وكان نافع بن الأزرق يتجمع عبد الله بن العباس فيسأله ، فله عنه مسائل من القرآن وغيره ، قد رجع إليه في تغييرها ، فقبله واتّحلّه ، ثم غلبت عليه الشقوة . ونحن ذاكرون منها صدراً إن شاء الله .

• • •

حدث أبو عبيدة معمر بن المثنى التيميّ النسابة عن أسامة بن زيد عن عكرمة قال : رأيت عبد الله بن العباس وعنده نافع بن الأزرق وهو يسأله ، ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه (والليل وما وسق) فقال ابن عباس : وما جمع ، فقال : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقات لو يجدن سائفاً ؟

هذا قول ابن عباس ، وهو الحق الذي لا يقدر فيه قاذحٌ . ويعرض القول فيحتاج المبتدئ إلى أن يزداد في التفسير .

قوله : « حقائقاً » إنما بنى الحقّة من الإبل ، وهي التي قد استحقّت أن يحمل عليها ، على « فعيلة » مثل « حقيقة » ولذلك جمعها على « حقائق » . ويقال : « استوسق » القوم : إذا اجتمعوا .

وروى أبو عبيدة في هذا الإسناد ، وروى ذلك غيره ، وسمّاه من غير وجهٍ : أنه سأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربك تحكّك سرياً » فقال ابن عباس : هو الجدول ، فسأله عن الشاهد : فأنشده :

سَلَمًا تَرَى الدَّالِجَ مِنْهَا أَزُورًا إِذَا يَبْعَجُ فِي السَّرِيِّ هَرَمَرًا
« السَّلَمُ » : الدَّلْوُ الَّذِي لَهُ عُرْوَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَهُوَ دَلْوُ السَّقَّائِينَ ، وَهُوَ الَّذِي
ذَكَرَهُ طَرِيقَةُ فَقَالَ :

لَهَا مَرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَانَتْهَا أَمْرًا بَسْمِي دَالِجٍ مُتَشَدِّدٍ
و « الدَّالِجُ » ، الَّذِي يَمْشِي بِالدَّلْوَيْنِ الْبَثْرِ وَالْحَوْضِ وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ يُنْشِدُونَ :
« تَرَى الدَّلِيَّ مِنْهُ أَزُورًا » وَهَذَا خَطَأٌ لِأَوْجِهِ لَهُ .

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ : أَنَّ نَافِعًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ (عَتَلِيَّ
بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ) : مَا الزَنِيمُ ؟ قَالَ : هُوَ الدَّعِيُّ الْمَلْزُوقُ ، أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ
حَسَّانَ بْنِ قَابَتٍ :

زَنِيمٌ تَدَاعَاؤُ الرِّجَالِ زِيَادَةٌ كَازِيدٍ فِي عَرْضِ الْأَدِيمِ الْكَدْعُ ؟

وَيَزَعُمُ أَهْلُ اللُّغَةِ أَنَّ اسْتِقَاقَ ذَلِكَ مِنَ الزَّيْمَةِ الَّتِي يَجْلُو الشَّاةُ ، كَمَا يَقُولُونَ
لِمَنْ دَخَلَ فِي قَوْمٍ لَيْسَ مِنْهُمْ : زَعْنَفَةٌ وَلِلْجَمْعِ « زَعَانِفٌ » ، وَ « الزَّعْنَفَةُ »
الْجَنَاحُ مِنَ الْأَجْنَحَةِ السَّمَكِ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ : كَذَا قَالَ « زَعْنَفَةٌ »
وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ « زَعْنَفَةٌ » بِكسر الزاي وَهُوَ الْوَجْهُ .

وَيُرْوَى عَنْ غَيْرِ أَبِي عُبَيْدَةَ : أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ جَلَّ اسْمُهُ (وَالتَّقَتِ السَّاقُ
بِالسَّاقِ) ؟ قَالَ الشَّدَّةُ بِالشَّدَةِ ، فَسَأَلَهُ عَنِ الشَّاهِدِ ؟ فَأَنْشَدَهُ :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّتْهَا وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَرَا
قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَقَرَأْتُ عَلَى عِمَارَةَ بْنِ عَقِيلِ بْنِ بِلَالِ بْنِ جَرِيرٍ قَصِيدَةَ جَرِيرٍ ،
الَّتِي يَجُودُ فِيهَا آلُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ ، وَيَدْجُ هَلَالُ بْنُ أَحْوَزَ الْمَازَنِيُّ ، وَيَذَكُرُ
الْوَقْعَةَ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ عَلَيْهِمُ بِالسَّنَدِ فِي سُلْطَانِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، بِسَبَبِ
خُرُوجِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ عَلَيْهِ :

أَقُولُ لَهَا مِنْ لَيْلَةٍ لَيْسَ طَوُّهَا كَطَوْلِ اللَّيَالِي لَيْتَ صُبْحُكَ نَوْرًا
أَخَافُ عَلَى نَفْسِ ابْنِ أَحْوَزَ إِنَّهُ جَلَّاسٌ مَحْمَاً فَوْقَ الْوُجُوهِ فَأَسْفَرَا

قال الشيخ أبو يعقوب : الذي رَوِيَ في شعر جرير :

حذاراً على نفس ابن أحوز إنه جلا كل وجه من معدٍ فأسفرا

وقوله « عدي » ، يعنى عدي بن أرطاة الفزاري ، قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط ، وكان عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

جعلت لقبر للخيار ومالك وقبر عدي في المقابر أقبرا

ويروى « للخيار وواسط » الحيار : موضع بعمان ، فيه قبر الحيار بن سبرة المجاشعي ، وواسط : بها قبر عدي بن أرطاة الفزاري .

وأطفأت نيران المزون وأهلها وقد حاولوها فتنة أن تسعرا

« المزون » ، عمان ، بالفارسية .

فلم تبق منهم راية يعرفونها ولم تبق من آل المهلب عسكريا

الأرب ساسي الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرأ

فهذا نظير ذلك . و « المزون » ، عمان . قال الكمي : قال الكمي :

فأما الأزد أزد أبي سعيد فأكره أن أسمى المزونا

وقال آخر يعني الحرب :

فإن شمرت لك عن ساقها فوياً حذيف ولا تسام

تقول : « وياً لزيد » إذا زجرته عن الشيء فأغريته به . و « واهأله » : إذا تعجبت منه . و « حذيف » يريد حذيفة ، فرخم .

ويروى عن أبي عبيدة من غير وجه : أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس فقال : رأيت نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم ، مع ما خوله الله وأعطاه ، كيف عني بالهدهد على قلته وضوئته ؟ فقال له ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء ، والهدهد قنأ ، الأرض له كالزجاجة ، يرى باطنها من ظاهرها ، فسأل عنه لذلك . قال ابن الأزرق : قف ياوقاف ! كيف يبصر ما تحت الأرض والفخ يغطى له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه ؟ فقال ابن عباس : ويحك يا ابن الأزرق ! أما علمت أنه إذا جاء القدر عشي البصر ؟ !

وبما سأله عنه (الم ، ذلك الكتاب) فقال ابن عباس : تأويله :
 هذا القرآن . هكذا جاء ، ولا أحفظُ عليه شاهداً عن ابن عباس ، وأنا أحسبه
 أنه لم يقبله إلا بشاهدي ، وتقديره عند التحوين إذا قال « ذلك الكتاب » : أنهم
 قد كانوا وعدوا كتاباً ، هكذا التفسير ، كما قال جل ثناؤه : (فلما جاءهم
 ما عرفوا كفروا به) يعني بذلك اليهود ، وقال : (يعرفونه كما يعرفون
 أبناءهم) ، فعناه : هذا الكتاب الذي كنتم تتوقعونه . وبيت خفاف بن ندبة
 على ذلك يصحُّ معناه . وكان من خبره : أنه غزاً مع معاوية بن عمرو أخي
 خنساء ، سرة وفزارة ، فعمد ابننا حرمة دريد وهاشم المزيان عمدة معاوية ،
 فاستطرد له أحدهما ، فحمل عليه معاوية ، فطعنه ، وحمل الآخر على معاوية
 فطعنه متمكناً ، وكان صميم الحيل ، فلما تادوا قتل معاوية :

قال خفاف بن ندبة ، وهي أمه ، وكانت حبشية ، وأبوه عمير ، وهو أحد
 بني سليم بن منصور : قتلتني الله إن رمت حتى أثار به ، فحمل على مالك بن
 حمار ، وهو سيد بني شمع بن فزارة ، فطعنه فقتله ، فقال خفاف بن ندبة :

إن تك خلي قد أصيبَ صميها فعمداً على عيني تيممت مالكا
 وقفت له علوى وقد خام صخبي لأبني مجدأ أو لأثار هالكا
 أقول له والرئمع ياطر متته : تأمل خفافاً إنني أنا ذلكا

يريد : أنا ذلك الذي سمعت به . هذا تأويل هذا . وقوله « ياطر متته » أي
 يثني . يقال أطرأت القوسَ آطرها أطرأ ، وهي ماطورة . و « علوى » فرسه .
 وبما سأله عنه قوله عز وجل : (لهم أجرٌ غير ممنونٍ) فقال ابن عباس :
 غير مقطوع ، فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرفه أخو بني
 يشكر ، حيث يقول :

وترى خلفهن من مرعة الرجب مع منيناً كأنه أهباء
 قال أبو العباس : « منين » يعني الغبار ، وذلك أنها تقطعه قطعاً ورامها ،
 و « المنين » الضعيف المؤذن بانقطاع ، أنشدني التوزي عن أبي زيد :

باريتها إن سلمت بيني . وسلم الساقى الذى يلينى . ولم تخشى عقد المنين
 تريد الحبل الضعيف ، فهذا هو المعروف ، ويقال « منين » و « بمنون » كقتيل
 ومقتول ، وجريح ومجروح ، وذكر التورى فى كتاب الأضداد أن « المنين »
 يكون القوي ، يجعله « فعلاً » من « المنة » والمعروف هو الأول .
 وقال غير ابن عباس : (لهم أجر غير بمنون) لا يُمن عليهم فيكدر
 عندهم .



ويروى من غير وجه : أن ابن الأزرق أتى ابن عباس يوماً فجعل يأسأله
 حتى أمله ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر ، وطلع عمر بن عبد الله بن أبي
 ربيعة على ابن عباس ، وهو يومئذ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس :
 ألا تنشدنا شيئاً من شعرك ؟ فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر	غداة غد أم رائج فتهجر
بجاجة نفس لم تقل في جوابها	قتليغ عنراً والمقالة تعذر
تيم إلى نعم فلا الشمل جامع	ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع	ولا نأياً يسلي ولا أنت تصبر
وأخرى أنت من دون نعم ومثلها	هى ذا النهى لو يرعوي أو يفكر
إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة	لها كلها لاقته يتنمر
عزيز عليه أن أمر يابها	مر لي الشقاء والبغض مظهر
ألكني إليها بالسلام فإنه	يشهر إلماي بها وينكر
بآية ما قالت غداة لقيتها	يدفع أكتاف هذا الشهر
قفي فانظري بأسم هل تعرفينه ؟	أهذا المغيري الذي كان يذكر
أهذا الذي أطريت نعماً فلم أكن	وعيشك أنساه إلى يوم أقبر
فقلت : نعم ، لا شك غير لونه	سرى الليل محيي نصه والتهجر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا	عن العبد والإنسان قد يتغير

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضى وأما بالعشي فيخصر
حتى أنها ، وهي ثانون بيتاً ، فقال له ابن الأزرق : الله أنت يا ابن عباس !
انضرب إليك اكباد الإبل ، نسألك عن الدين ، فتعرض ، ويأتيك غلام من
قريش ، فيشدك سفاً فتسمعه ؟! فقال : الله ما سمعت سفاً ، فقال ابن
الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيغزى وأما بالعشي فيخسر ؟
فقال : ما هكذا قال ، إنما قال « فيضى وأما بالعشي فيخصر » قال :
أو تحفظ الذي قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه ، ولو شئت أن
أردتها لرددتها ! قال : فارددها ؟ فأنشده إياها كلها .

وروى الزبيريون : أن نافعاً قال له : ما رأيت أروى منك قط ، فقال له
ابن عباس : ما رأيت أروى من عمر ، ولا أعلم من علي .

وقوله « فيضى » يقول : يظهر للشمس . و « يخصر » يقول : في البردين ،
فاذا ذكر العشي فقد دلّ على عيب العشي . قال الله تبارك وتعالى : (وأنتك
لا تظلم فيها ولا تضحي) « والضح » الشمس ، وليس من « ضحيت »
يقال « جاء فلان بالضح والريح » يراد به الكثرة . قال علقمة :

أغرأ أبرزه للضح راقبه مقلد قضب الرمان مغموم
له « فغمة » أي : رائحة طيبة ، يعني إريقاً فيه شراب . وفي الحديث :
« أن رسول الله ﷺ لما توجه إلى تبوك جاء أبو خيصة ، وكانت له امرأتان ،
وقد أعدت كل واحدة منها من طيب ثمر بستانه ، ومهدت له في ظل »
فقال : أظلل بمدود ، وثمره طيبة ، وماء بارد ، وامرأة حسنة ، ورسول
الله في الضح والريح ؟! ما هذا بخير ، فركب ناقته ومضى في أثره . وقد
قال لرسول الله ﷺ في نفر تخلفوا ، أبو خيصة أحدهم ، فجعل لا يذكر
له أحد منهم إلا قال : دعوه فان يرد الله به خيراً يُلحقه بكم ، فقبل ذات
يوم : يا رسول الله ! نرى رجلاً يرفعه الآل ، فقال رسول الله ﷺ كن أبا
خيصة ، فكان هو .

وإذا انبسطت الشمس فهو « الضحى » مقصورٌ ، فإذا امتدَّ النهارُ وبينها مقدارُ ساعةٍ أو نحو ذلك فذلك « الضحَاءُ » ممدودٌ مفتوحُ الأولِ .

★ ★ ★

وذكرت الرواة : ان الحجاج أتيَ بامرأةٍ من الخوارج ، وبحضرة يزيدُ ابن ابي مسلمٍ مولاه ، وكنت يستشيرُ برأي الخوارج ، فكلَّم الحجاجُ المرأةَ فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد بن ابي مسلمٍ : الأميرُ وبُلكَ بكلمك ! فقالت : بل الويل والله لك يا فاسقُ الرَّدْيِ . « والرَّدْيِ » عند الخوارج : هو الذي يعلم الحقَّ من قولهم ويكتمه .

وذكروا انَّ عبدَ الملك بن مروان أتيَ برجلٍ منهم فبحثه ، فرأى منه ما شاءَ فهمًا وعلمًا ، ثم بحثه ، فرأى ما شاءَ إرثًا ودَهْنًا ، فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مُستبصرًا محققًا ، فزاد في الاستدعاء ، فقال له : لتغنيكَ الأولى عن الثانيةِ ، وقد قلتَ فسمعتُ ، فاسمعْ أقلُّ ، قال له : قلُّ ، فجعل يبيطُ له من قول الخوارج ويُرَبِّن له من مذهبهم بلسانٍ طلقٍ وألفاظٍ بيّنةٍ ومعانٍ قريبةٍ ، فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يُوقِع في خاطري ان الجنة خلقت لهم ، وأني أولى بالجهادِ منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبت الله عليَّ من الحجة وقرّر في قلبي من الحقِّ ، فقلت له : لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطني الله في الدنيا ، ومكّن لنا فيها ، وأراك لست تحيب بالقول ، والله لأقتلنك إن لم تطيع ، فأنا في ذلك إذ دخل عليّ بابني مروان - قال ابو العباس : كان مروان أخا يزيدَ لأمه ، أمُّها عاتكةُ بنت يزيدَ بن معاوية ، وكان أيتاً عزيزَ النفس ، فدخِلَ به في هذا الوقتِ على عبد الملك - باكياً لضرب المؤدّب إياه ، فتقَّ ذلك على عبد الملك ، فأقبلَ عليه الحارِجي ، فقال له : دَعَه يبك ، فإنه أرحبُ لشدِّقه ، وأصحُّ لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ان لا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبوتها ، فأعجب

ذلك من قوله عبد الملك ، فقال له متعياً : أما يشغلك ما أنت فيه وبِعَرَضِهِ
عن هذا ؟ فقال : ما ينبغي ان يشغل المؤمن عن قول الحق شيء ، فأمر
عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال بعد يعتذر إليه : لولا ان تقد
بالفاظك اكثر رعتي ما حبستك ، ثم قال عبد الملك : من شككني ووهمني
حتى مالت بي عصمة الله فغير بعيد أن يستهوي من بعدي . وكان عبد الملك
من الرأي والعلم بموضع .

وترجم الرواة : ان رجلاً من اهل الكتاب وفد على معاوية ، وكان موصوفاً
بقراءة الكتب ، فقال له معاوية : اتجد نعتي في شيء من كتب الله ؟ قال :
إي والله ، لو كنت في أمة لوضعت يدي عليك من بينهم ! قال : فكيف
تجدني ؟ قال أجذك اول من يحول الخلافة ملكاً ، والحشة لنا ، ثم إن
ربك من بعدها لغفور رحيم ، قال معاوية : فسرتني عني ، ثم قال : لا تقبل
هذا مني ، ولكن من نفسك ، فاختبر هذا الخبر ! قال : ثم يكون ماذا ؟
قال : ثم يكون منك رجل شراب للخمر ، سفاك للدماء ، يحتجن الأموال ،
ويصطنع الرجال ويحبس الحيول ، ويبيع حرمة الرسول ! قال : ثم ماذا ؟
قال : ثم تكون فتنة تتشعب بأقوام حتى يفضي الأمر بها إلى رجل أعرف
نعتي ، يبيع الآخرة الدائمة بحظيرة من الدنيا مخسوس ، فيجتمع عليه ، من
آلِكَ وليس منك ، لا يزال لعدوه قاهراً ، وعلى من ثاواه ظاهراً ، ويكون له
قرين مبيت لعين ! قال : أفترأيه إن رأيت ؟ قال : شديداً ، فأراه من الشام
من بني أمية ، فقال : ما أراه هنا ، فوجه به إلى المدينة مع ثقات من
رؤسله ، فإذا عبد الملك يسعى مؤثراً في يده طائر ، فقال للرؤس : ما هو ذا ،
ثم صاح به : إليّ أبو من ؟ قال : أبو الوليد ، قال : يا أبا الوليد ! إن
بشرتك ببشارة تسرك ما تجعل لي ؟ قال : وما مقدارها من السرور حتى
نعلم مقدارها من الجحلم ؟ قال : أن تملك الأرض ! قال : ما لي من مال ،
ولكن أرايتك إن تكلفت لك جعلاً آنال ذلك قبل وقته ؟ قال : لا ،

قال : فإن حرمتك أتوخره عن وقته ؟ قال : لا ، قال : فمبنيك ما سمعت !!
فذكروا أن معاوية كان يكرم عبد الملك ليجعلها يبدأ عنده بجأزيه بها في
مخلفته في وقته .

وكان عبد الملك من أكثر الناس علماً . وأبوهم أدباً ، وأحسنهم في شيبته
ديانة ، فقتل عمرو بن سعيد ، وتسمى بالخلافة ، فسلم عليه بها أول
تسليمه ، والمنصف في حجه ، فأطبقه وقال : هذا فراق بيني وبينك !!

قال أبو العباس : وحدثني ابن عائشة عن حماد بن سلمة في إسناده ذكره :
أن عبد الملك كان له صديق ، وكان من أهل الكتاب ، يقال له يوسف ،
فأسلم ، فقال له عبد الملك يوماً - وهو في عنقوان نسكه ، وقد مضت
جيوش يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المري ، من مرة غطفان - يريد
المدينة - : ألا ترى خيل عدو الله قاصدة لحرم رسول الله ﷺ ؟ ! فقال
له يوسف : جيشك والله إلى حرم رسول أعظم من جيشه ! فنقض عبد الملك
ثوبه ، ثم قال : معاذ الله ! قال له يوسف : ما قلت شاكراً مُرتاباً ، وإني
لأجدك بجميع أوصافك ، قال له عبد الملك : ثم ماذا ؟ قال : ثم يتداولها
رمطك ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان .

قال : وحدثت عن ابن جعدبة ، قال : كنت عند أمير المؤمنين
المنصور ، في اليوم الذي أتاه فيه خروج محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ،
قال : فغمة ذلك ، حتى امتنع من الغداء في وقته ، وطال عليه فكره ،
فقلت : يا أمير المؤمنين ! أحدثك حديثاً ؟ كنت مع مروان بن محمد ، وقد
قصده عبد الله بن علي ، قال : فإننا لكذلك إذ نظر إلى الأعلام السود من
بعدي ، فقال : ما هذه البخت المجلة ؟ قلت : هذه أعلام القوم ، قال : فمن
تحتها ؟ قلت : عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس ، قال : وأبهم عبد
الله ؟ فقلت : الفتي المعروق الطويل ، الحفيف العارضين ، الذي رأته في وليمة
كذا يأكل فيجيد ، فالتني عنه فنسبته لك ، فقلت : إن هذا الفتي لتلقامة ،

قال : قد عرفته ، والله لوددتُ أن عليَّ بن أبي طالب مكانه ، قال : فقال لي المنصورُ : آله لسمعت هذا من مروان بن محمد ؟ قلتُ : والله لقد سمعته منه ، قال : يا غلامُ ! هات الغداء .

* * *

قال أبو العباس : وكان أهل النخيلة جماعةً بعد أهل التَّهروان ، من فارق عبد الله بن وهبٍ ، ومن لجأ إلى راية أبي أيوب ، ومن كان أقام بالكوفة ، فقال : لا أقاتلُ عليّاً ولا أقاتلُ معه ، فتواصوا فيما بينهم وتعاضدوا ، وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم ، فقام منهم قائمٌ يقالُ له المستوردُ ، من بني سعد بن زيد مناة ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمدٍ ، ثم قال : إنَّ رسول الله ﷺ أنا بالعدل ، تحقق رايته ، معلناً مقالته ، مبلغاً عن ربِّه ، ناصحاً لأُمَّته ، حتى قبضه الله غييراً مختاراً ، ثم قام الصديق فصدق عن نيته وقاتل من ارتدَّ عن دين ربِّه ، وذكر أن الله عزَّ وجلَّ قرن الصلاة بالزكاة ، فرأى أن تعطيل إحداهما طعنٌ على الأخرى ، لابن علي جميع منازل الدين ، ثم قبضه الله إليه موفوراً ، ثم قام بعده الفاروق ، ففرق بين الحقِّ والباطل ، مسوياً بين الناس في إعطائه ، لا مؤثراً لأقاربه ، ولا محكماً في دين ربِّه ، وها أنتم تعلمون ما حدث ، والله يقول : (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) فكلُّ أجاب وبابِع ، فوجه إليهم عليُّ بن أبي طالب عبد الله بن العباس داعياً ، فأبوا ، فسار إليهم ، فقال له عفيف بن قيس : يا أمير المؤمنين ! لا تخرج في هذه الساعة ؛ فإنها ساعة نحس لعدوك عليك ! فقال له عليُّ : توكلت على الله وحده ، وعصيت رأي كلِّ متكهنٍّ ، أنت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان ؟ ! إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها ، إن ربي على صراطٍ مستقيم) ، ثم سار إليهم فطعنهم جميعاً ، لم يفلت منهم إلا خمسةٌ ، منهم المستورد ، وابن جوين الطائيُّ ، وفروة بن شريك الأشجعيُّ ، وهم الذين ذكرهم الحسن البصريُّ ، فقبال : دعاهم إلى دين الله

فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً ، فسار
إليهم أبو حنّ فطحنهم طحنًا .

وفيهما يقول عمران بن حطان :

إني أدّين بما دارت الثّراة به يوم النّخيلة عند الجوّسق الحرب
وقال الحميريّ يعارض هذا المذهب :

إني أدّين بما دارت الوصي به يوم النّخيلة من قتل المحلّينا
وبالذي دارت يوم النهر دنت به وشاركت كفه كفي بصفيّنا
تلك الدّماء معاً ياربّ في عنقي ومثلها فاسقني آمين آمينا

وكان أصحاب النّخيلة قالوا لابن عباس : إذ كان عليّ على حقّ لم يشكّ
فيه وحكمتم مضطراً فما باله حيث ظفر لم يسبّ ؟ فقال لهم ابن عباس : قد
سمعت الجواب في التحكيم ، فأما قولكم في السّباء أفكتم ما بين أمّكم عائشة ؟ !
فوضعوا أصابعهم في آذانهم ، وقالوا : أمسك عنا غرب لسانك يا ابن عباس !
فإنه طلق ذلك ، غواصّ على موضع الحجة . ثم خرج المستورد بعد ذلك بمدة
على المغيرة بن شعبة ، وهو والي الكوفة ، فوجه إليه معقل بن قيس الرّياحيّ ،
فدعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له : علام يقتلّ الناس بيني وبينك ؟ فقال
له معقل : النّصف سألت ، فأقسم عليه أصحابه ، فقال : ما كنت لأبى عليه ،
فخرج إليه ، فاختلفا ضربتين ، فخرّ كلّ واحدٍ منها ميتاً .

وكان المستورد كثير الصلاة شديد الاجتهاد ، وله آدابٌ يُوصي بها وهي
محفوظة عنه .

كان يقول : إذا أفضيتُ برّميّ إلى صديقي فأفشاه لم أله ، لأنّي كنتُ
أولىّ بحفظه .

وكان يقول : لا تنفش إلى أحدٍ مرّاً ، وإن كان مخلصاً ، إلاّ على
جهة المشاورة .

وكان يقول : كنّ أحرصّ على حفظ مرّ صاحبك منك على حقن
دمك .

وكان يقول : أول ما يدلُّ عليه عائبُ الناس معرفتهُ بالعيوب ، ولا يعيبُ إلا معيبٌ .

وكان يقول : المال غير باقٍ عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك .

وكان يقول : بذلُ المالِ في حقِّه استدعاءٌ للزيد من الجواد .

وكان يُكثرُ أن يقولَ : لو مُلكت الأرضُ بجذافيرها ثم دُعيتُ إلى أن أستفيدَ بها خطيئةً ما فعلتُ .



قال : وخرجت الحوارجُ ، واتصل خروئجها ، وإلما تذكر منهم من كان ذا خبرٍ طريفٍ ، واتصلتْ به حكمٌ من كلامٍ وأشعارٍ .

فأول من خرج بعد قتل عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام حوثةُ الاسديّ ، فإنه كان مُتبعياً بالبنديين ، فكتب إلى حابس الطائي يسأله أن يتولى أمر الحوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية ، فأجابهُ ، فرجعاً إلى موضع أصحاب النُخيلة ، ومعاويةُ بالكوفة حيث دخلها مع الحسن بن علي ابن أبي طالب صلواتُ الله عليه ، بعد أن بايعهُ الحسن والحسين عليها السلام ، وقيس بن سعد بن عبادة ، ثم خرج الحسن يريدُ المدينة ، فوجههُ إليه معاويةُ وقد تجاوز في طريقه يسأله أن يكون المتولي لمحاربتهم ، فقال الحسن : والله لقد كفت عنك لحقن دماء المسلمين ، وما أحسبُ ذلك يسعني ، أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أولى بالقتال منهم ؟! فلما رجع الجوابُ إليه وجههُ إليهم جيشاً أكثرهم من أهل الكوفة ، ثم قال لأبيه أبي حوثة : اكفني أمر ابنك ، فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع ، فأبى فأداره ، فصمم ، فقال له : يا بني ! أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه ؟ فقال : يا أبت ! أنا والله إلى طعنة نافذةٍ أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوقُ مني إلى ابني ! فرجع إلى معاوية فأخبره الخبر ، فقال : يا أبا حوثة ! عتا هذا جداً ، فلما نظر حوثة إلى أهل الكوفة قال : يا أعداء الله ! أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهذوا سلطانه ، واليوم تقاتلون

مع معاوية لشدوا سلطانه !! فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز ، فقال : يا أبت !
لك في غيري مندوحة ، ولي في غيرك عنك منهب ، ثم حمل على القوم
وهو يقول :

أُدررُ على هذي الجموع حوثه فغن قليل ما تنال المغفرة
فحمل عليه رجلٌ من طيهِ فقتله ، فرأى أثر السجود قد لوح جبهته ، فندم على
قتله ، ثم انهزم القوم جميعاً .

وأنا أحسب أن قول القائل :

وأجراً من رأيت بظهر غيبٍ على عيب الرجال ذوو العيوب
لما أخذه من كلام المستورد .

قال رجلٌ للمستورد : أريدُ أن أرى رجلاً عياباً ، قال : التمسه بفضل
معايب فيه .

وقال العباسُ بن الأحنف يعاتب من اتهمه بإفشاء مرءه :

تعتبت تطلب ما أستعق	به المجر منك ولا تقدر
وماذا يضرك من شهري	إذا كنت سرك لا يشهر
أمني تخاف انتشار الحديث	وحظي في ستره أوفر
ولو لم تكن في بقيا عليك	نظرت لنفسي كما تنظر

★ ★ ★

ويروى من حديث محمد بن كعب القرظي قال : قال عمارُ بن ياسر :
« خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات العشيرة . فلما قفلنا نزلنا منزلاً ،
فخرجتُ أنا وعلي بن أبي طالب صلواتُ الله عليه ننظرُ إلى قومٍ يعتملون ،
فنعنا ، فنعنا ، فسفت علينا الريح التراب ، فما نبها إلا كلام رسول الله ﷺ ،
فقال لعلي : يا أبا تراب ! لما عليه من التراب ، أتعلم من أسقى الناس ؟ فقال :
خبرني يا رسول الله ؟ فقال : أسقى الناسِ اثنان : أحمرٌ يهود الذي عقر الناقة ،

وأشعلها الذي يخضب هذه ، ووضع يده على لحيته ، من هذا ، ووضع يده على قرنه ، .

ويروى عن عياض بن خليفة الخزاعي قال : تلقاني أمير المؤمنين عليّ صلوات الله عليه في الغلس ، فقال لي : من أنت ؟ قلت : عياض بن خليفة الخزاعي ، فقال : ظننتك أشقاها الذي يخضب هذه من هذا ، ووضع يده على لحيته وعلى قرنه .

ويروى : أنه كان يقول كثيراً — قال أبو العباس : أحسبه عند الضجر بأصحابه — : ما يمنع أشقاها أن يخضب هذه من هذا ؟

ويروى عن رجل من ثقيف أنه قال : خرج الناس يعقبون دوابهم بالمداين ، وأراد عليّ أمير المؤمنين السير إلى الشام ، فوجه معقل بن قيس الرياحي ليرجعهم إليه ، وكان ابن عمّ لي في آخر من خرج ، فأتيت الحسن بن عليّ عليه السلام ذات عشية ، فسألته أن يأخذ لي كتاب أمير المؤمنين إلى معقل بن قيس في التوفيه عن عمّي ، فإنه في آخر من خرج ، فقال : تغدو علينا والكتاب مختمٌ إن شاء الله تعالى ، فبت ليلتي ، ثم أصبحت والناس يقولون : قتل أمير المؤمنين الليلة ، فأتيت الحسن ، وإذا به في دار عليّ عليه السلام ، فقال : لولا ما حدث لقضينا حاجتك ، ثم قال : حدثني أبي عليه السلام البارحة في هذا المسجد فقال : يا بني ! إني صليت مارزوقاً الله ، ثم نمت نومة ، فرأيت رسول الله ﷺ ، فشكوت إليه ما أنا فيه من مخالفة أصحابي وقلة رغبتهم في الجهاد ، فقال : ادع الله أن يريحك منهم ، فدعوت الله ، قال الحسن : ثم خرج إلى الصلاة فكان ما قد علمت .

وحدثت من غير وجه : أن علناً لما ضرب ثم دخل منزله اعترفته غشية ثم أفاق ، فدعا الحسن والحسين ، فقال : أوصيكما بتقوى الله والرغبة في الآخرة ، والزهد في الدنيا ، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها ، اعملا الخير ، وكونا للظالم خصماً ، والمظلوم عوناً ، ثم دعا محمداً فقال : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : بلى ، قال : فإني أوصيك به ، وعليك ببر أخويك

وتوقيهما ومعرفة فضلها ، ولا تقطعُ أمراً دُونها ، ثم أقبل عليهما فقال :
أوصيكما به خيراً ، فإنه شقيقكما وابنُ أيكما ، وأنتما تعلمان أن أباكما كان
مُحبَّهُ ، فأجابه . فلما قضى عليّ كرم الله وجهه قالت أمُّ العريان :

وَكُنَّا قَبْلَ مَهْلِكِهِ زَمَانًا نَرَى نَجْوَى رَسُولِ اللَّهِ فِينَا
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَكْرَمَهُمْ وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ فَلَا قَرَّتَ عُيُونُ الشَّامِتِينَ

ويروى : أن عبد الرحمن بن ملجم بات تلك الليلة عند الأشعث بن
قيس بن معدى كرب ، وأبى حُجر بن عدي سمع الأشعث يقول له :
فضحك الصُّبحُ ، فلما قالوا : قتل أمير المؤمنين قال حُجر بن عدي للأشعث :
أنت قتله يا أعور ! ويروى : أن الذي سمع ذاك أخو الأشعث ، عفيف بن
قيس ، وأنه قال لأخيه : عن أمرك كان هذا يا أعور !

وأخبارُ الخوارج كثيرةٌ طويلةٌ ، وليس كتابنا هذا مفرداً لهم ،
ولكننا نذكر من أمورهم ما فيه معنى وأدبٌ ، أو شعراً مستطرفٌ ،
أو كلامٌ من خطبةٍ معروفةٍ مختارة .

فخرج مُقريبُ بن مرة الأزديّ وزحافُ الطائي ، وكانا مجتهدين بالبصرة
في أيام زياد ، واختلف الناس في أمورهما ، أيها كان الرئيس ، فاعترضوا الناس ،
فلقبوا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار ، فقتلاه ، وكان يقال له
رؤبة الضبيعي ، وتنادى الناس ، فخرج رجلٌ من بني قطيعة من الأزد وفي
يده السيف ، فتداه الناس من ظهور البيوت : الحُرورية الحُرورية ! انج
بنفسك ، فتادوه : لساحرورية ، نحن الشرط ، فوقف فقتلوه ، وبلغ
أبا بلال خبرهما ، فقال : قريب لا قرّبه الله من الخير ، وزحاف لا عفا الله

عنه ، ركبها عشاء مظلمة ، يريد اعتواضها الناس ، ثم جعل لا يمر أن بقيّة إلا قتل من وجدا ، حتى مرّا ببني عليّ بن سودٍ من الأزد ، وكلاتوا رماة ، وكان فيهم مائةٌ يجيدون الرميّ ، فرمّوهم رميا شديداً ، فصاحوا : يا بني عليّ ! البقا ، لا رماة بيننا ، فقال رجلٌ من بني عليّ :

لا شيءَ للقوم سوى السهام مشحونة في غلّس الظلام

فعرّده عنهم الحوارج ، وخافوا الطلب ، فاشتقوا مقبرة بني يشكر ، حتى نفذوا إلى مزينة ، ينتظرون من يلحق بهم من ضر وغيرها ، فجاءهم ثمانون ، وخرجت إليهم بنو طاحية بن سودٍ وقبائل مزينة وغيرها ، فاستقل الحوارج فقتلوا عن آخرهم ، ثم غدا الناس إلى زيادٍ فقال : ألا نهى كل قومٍ سفاهم ؟ يا معشر الأزد ! لولا أنكم أطفأتم هذه النارَ لقلت إنكم أرتسموها ، فكانت القبائل إذا أحست بخارجيةٍ فيهم شدّتهم وثاقاً وأتت بهم زياداً ، فكان هذا أحداً ما يذكر من صحة تدبيره .

وله أخرى في الحوارج : أخرجوا معهم امرأة ، فظفر بها فقتلها ، ثم عرّاهها . فلم تخرج النساء بعد على زيادٍ ، وكن إذا دعين إلى الخروج قلن : لولا التعرية لسارعنا .

ولما قتل مصعب بن الزبير بنت النعمان بن بشير الأنصارية امرأة المختار - وليس هذا من أخبار الحوارج - أنكره الحوارج غاية الإنكار ، ورأوه قد أتى بقتل النساء أمراً عظيماً ، لأنه أتى مانه عن رسول الله ﷺ في سائر نساء المشركين . وللخواصّ منهم أخبارٌ ، فقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادةٍ عطبول
قيلت باطلاً على غير ذنبٍ إن لله درّها من قتل
كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصّنات بحر الذبول

★ ★ ★

قال : وكانت الحوارج أيام ابن عامرٍ أخرجوا معهم امرأتين ، يقال لإحدهما كحيلة ، والأخرى قطام ، فجعل أصحاب ابن عامر يعيرونهم ويصيحون بهم : يا أصحاب كحيلة وقطام ! يعرضون لهم بالفجور ، فتأديهم الحوارج بالدفع والردع ، ويقول قائلهم : لا تقف ما ليس لك به علم .

ويروى عن ابن عباس في هذه الآية : (والتذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) قال : أعياد المشركين . وقال ابن مسعود : الزور : الغناء فقيل لا بن عباس : أو ما هذا في الشهادة بالزور ؟ فقال : لا ، إنما آية شهادة الزور : (ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) .

عاد الحديث إلى أمر الحوارج .

وكان من المجتهدات من الحوارج ، ولو قلت : من المجتهدين - وأنت تعني امرأة - كان أفصح ، لأنك تريد رجالاً ونساءً هي إحداهم ، كما قال الله عز وجل : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وقال جل ثناؤه : (إلا عجوزاً في الغايين) . منهم البلجاء ، وهي امرأة من بني حرام بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، من رطب سجاح ، التي كانت ثباتاً ، وسذكراً خبرها في موضعه إن شاء الله . وكان مرداس بن حدير أبو بلال ، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة متعظم الحوارج ، وكان مجتهداً كثير الصواب في لفظه ، فلقبه غيلان بن خرشة الضبي ، فقال : يا أبا بلال ! إني سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء ، وأحسبها ستؤخذ ، فضى إليها أبو بلال ، فقال لها : إن الله قد وسع على المؤمنين في التقيّة . فاستترى ؛ فإن هذا المشرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك ، قالت : إن يأخذني فهو أشقى بي ، فأمّا أنا فما أحب أن يُعنت إنسان

بسبي ، فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق ، فمر أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلجاء ، فعرج إليها فنظرت ، ثم عضت على لحيته ، وقال لنفسه : لهذه أطيب نفساً عن بقية الدنيا منك يا مرداس .

ثم إن عبيد الله تتبع الحوارج فعبيسهم ، وحبس مرداساً ، فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقته ، فقال له : إني أرى لك مذهباً حسناً ، وإني لأحب أن أوليك معروفاً ، أفرأيت إن تركتك تتصرف ، ليلاً إلى بيتك ، أتدّلع إلي ؟ قال : نعم . فكان يفعل ذلك به ، ولج عبيد الله في حبس الحوارج وقتلهم ، فكلم في بعض الحوارج فليج وأبى ، وقال : أقمع النفاق قبل أن ينبجم ، لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع ، فلما كان ذات يوم قتل رجل من الحوارج رجلاً من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدري ما أصنع هؤلاء ، كلما أمرت رجلاً بقتل رجل منهم فتكوا بقاتله ؟! لأقتلن من في حبسي منهم ، فأخرج السجنان مرداساً إلى منزله كما كان يفعل ، وأتى مرداساً الخبر ، فلما كان السحر نهياً للرجوع ، فقال له أهله : اتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت ، فقال : إني ما كنت لألقى الله غادراً ! فرجع إلى السجنان ، فقال : إني علمت ما عزم عليه صاحبك ، فقال : أعلمت ورجعت ؟ !

ويروى : أن مرداساً مرّ بأعرابيّ حيناً بعيداً له ، فخرج البعير ، فقط مرداس مغشياً عليه ، فظن الأعرابي أنه قد صرع ، فقرأ في أذنه ، فلما أفاق قال له الأعرابي : قرأت في أذنك ، فقال له مرداس : ليس بي ماخفته علي ، ولكنني رأيت بعيرك مرجّ من القطران ، فذكرت به قطران جهنم ، فأصابني مارأيت ، فقال : لاجرّم والله لا فارقتك أبداً .

وكان مرداس قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، وأنكر التحكيم ، وشهد النهْر ، ونجا فيمن نجا ، فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جد ابن زياد في طلب الشراة ، عزم على الخروج ، فقال لأصحابه :

إنه والله ما يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجري علينا أحكامهم ، بجانبين للعدل مفارقين للفصل ، والله إن الصبر على هذا لعظيم ، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم ، ولكننا نتبذ عنهم ، ولا نجرّد سيفاً ، ولا نقاتل إلا من قاتلنا ، فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً ، منهم حريث بن حجل ، وكهمس بن طلق الصريمي ، فأرادوا أن يولوا أمرهم حريشاً ، فأبى فولوا أمرهم مرداساً ، فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصاري ، وكان له صديقاً ، فقال له : يا أخي أين تريد ؟ قال أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورّة ، فقال له : أعلم بكم أحد ؟ قال : لا ، قال : فارجع ، قال : أو تخاف علي مكروهاً ؟ قال : نعم ، وأن يؤتى بك ، قل : فلا تخف ، فإني لا أجرّد سيفاً ، ولا أخيف أحداً ، ولا أقاتل إلا من قاتلني ، ثم مضى حتى نزل آسك ، وهو ما بين رامهرمز وأرجان ، فر به مالٌ يحمل لابن زياد ، وقد قارب أصحابه الأربعين ، فحط ذلك المال فأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه ، ورد الباقي على الرسل ، وقال : قولوا لصاحبكم : إنما قبضنا أعطياتنا ، فقال بعض أصحابه : فعلام ندع الباقي ؟ فقال : إنهم يقسمون هذا الفية كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم .



ولأبي بلالٍ أشعارٌ في الخروج اخترت منها قوله :

أبعد ابن وهبٍ ذي النزاهة والتقى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب بقاءً أو أرجى سلامةً وقد قتلوا زيد بن حصنٍ ومالكا
فيا ربّ سلمٍ نيتي وبصيرتي وهبٌ لي التقى حتى ألاقى أولثكا

قوله : « وقد قتلوا » ولم يذكر أحداً ، وإنما فعل ذلك لعلم الناس أنه يعني مخالفه ، وإنما يحتاج الضميرُ إلى ذكرٍ قبله ليعرف ، فلو قال رجلٌ : ضربته ، لم يجوز ، لأنه لم يذكر أحداً قبل ذكره الماء ، ولو رأيت قوماً يلتمسون

الملال فقال قومٌ : هذا هو ، لم محتج إلى مقدمة الذكر ؛ لأن المطلوب معلومٌ ، وعلى هذا قال علقمة بن عبدة في افتتاح قصيدته :
هل ما علمت ما استودعت مكتوم أم جلبها إذ نأثك اليوم مصروم
لأنه قد علم أنه يريد حبيبة له :
وقوله : « حتى ألاقى » ولم يحرك الياء فقد مضى شرحه مستقصى .

★ ★ ★

ويروى : أن رجلاً من أصحاب ابن زيادٍ قال : خرجنا في جيشٍ نريد خراسان ، فررنا بأهلك ، فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلاً ، فصاح بنا أبو بلال : أقاصدون لقتالنا أتم ؟ وكنت أنا وأخي قد دخلنا زرباً ، فوقف أخي يبابه فقال : السلام عليكم ، فقال مرداسٌ : وعليكم السلام ، فقال لأخي : أجتّم لقتالنا ؟ فقال له : لا ، إنما نريد خراسان ، قال : فأبلغوا من لقيمك أنا لم نخرج لنفس في الأرض ، ولا لتروّع أحداً ، ولكن هرباً من الظلم ، ولنا نقاتل إلا من يقاتلنا ، ولا نأخذ على الفياء إلا أعطياتنا ، ثم قال : أندب إلينا أحدٌ ؟ قلنا : نعم ، أسلم بن زرعة الكلبي ، قال : فتى تروته يصل إلينا ؟ قلنا : يوم كذا وكذا ، فقال أبو بلالٍ : حببنا الله ونعم الوكيل .

وجهز عبيدُ الله أسلم بن زرعة في أسرع وقتٍ ، ووجهه إليهم في ألفين ، وقد تمام أصحاب مرداسٍ أربعين رجلاً ، فلما صار إليهم أسلمٌ صاح به أبو بلالٍ : اتق الله يا أسلم ؛ فإننا لا نريد قتلاً ، ولا نحتجن فياً ، فما الذي تريد ؟ قال أريد أن أردكم إلى ابن زيادٍ ، قال مرداسٌ : إذا يقتلنا ، قال : وإنت قتلكم ! قال : تشركه في دماننا ؟ قال : إني أدين الله بأنه حقٌ وأنكم مبطلون ، فصاح به حريث بن حبلٍ : أهو حقٌ وهو يطيع الفجرة ، وهو أحدم ، ويقتل بالظنّة ، ويخص بالفياء ، ويمجور في الحكم ؟! أما علمت أنه قتل ابن سعاد أربعة برآء ، وأنا أحد قتلته ، ولقد وضعت في بطنه دراهم كانت معه ؟! ثم

حملوا عليه حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه من غير قتال ! وكان معبد
 - أحد الخوارج - قد كاد يأخذه. فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضباً شديداً ، وقال :
 ويلك ! أنمضي في ألفين فتنهزم لحمة أربعين ؟! وكان أسلم يقول : لأنت ينمضي
 ابن زياد حياً أحب إلي من أن يمدحني ميتاً !! وكان إذا خرج إلى السوق أو
 مر بصبيان صاحوا به : أبو بلال وراءك !! وربما صاحوا به : يا معبد خذ !!
 حتى شكا ذلك إلى ابن زياد ، فأمر ابن زياد الشرط أن يكفوا الناس عنه ،
 فقي ذلك يقول عيسى بن فائق ، من بني تميم اللات بن ثعلبة ، في كلمة له :

فلمّا أصبحوا صلوا وقاموا	إلى الجرود العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم	فظل نوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاها	سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لنا أتاها	بأن القوم ولوا هاربينا
ألفا مؤمن فيا زعمتم	ويزعمهم بأسك أربعونا
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك	على الفئة الكثيرة ينصروننا

ثم ندب لهم عبيد الله بن زياد الناس ، فاختر عباد بن أخضر ، وليس
 بابن أخضر ، هو عباد بن علقمة المازني ، وكان أخضر زوج أمه ، فغلب
 عليه ، فوجهه في أربعة آلاف ، فهد لهم ، ويزعم أهل العلم أن القوم قد
 كانوا تتحوا عن درا مجرد من أرض فارس ، فصار إليهم عباد ، وكان التقاؤهم
 في يوم جمعة ، فناداه أبو بلال : اخرج إلي يا عباد ، فإني أريد أن أحاورك !
 فخرج إليه ، فقال : ما الذي تبغي ؟ قال : أن آخذ بأقنائكم فأردكم إلى الأمير
 عبيد الله بن زياد ! قال : أو غير ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : أن ترجع ،
 فإننا لا نخيف سيلاً ، ولا نذعر مسلماً ، ولا نخارب إلا من حاربنا ، ولا نجبي
 إلا ما جئنا ، فقال له عباد : الأمر ما قلت لك ، فقال له حريث بن حبل :
 أتحاول أن ترد فئة من المسلمين إلى جبار عبيد ؟ قال لهم : أنتم أولي بالضلال
 منه ، وما من ذاك بدء .

وقدم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان يريد الحج ، فلما رأى الجمع قال :
ما هذا ؟ قالوا الشراة ، فحمل عليهم ، ونشبت الحرب ، فأخذ القعقاع أسيراً ،
فأتى به أبو بلال ، فقال : ما أنت ؟ قال : لست من أعدائك ، وإنما قدمت
للحج فجهلت وغررت ! فأطلقه ، فرجع إلى عباد فأصلح من شأنه ، ثم حمل
عليهم ثانية ، وهو يقول :

أقاتلهم وليس علي بعث
أكره على الحورين مهري
نشاطاً ليس هذا بالنشاط
لأحملهم على وضع الصراط

فحمل عليه حريث بن حجل السدوسي وكهمس بن طلق الصرمي ، فأمرأه
فقتلاه ولم يأتيا به أبا بلال ، فلم يزل القوم يحتلدون حتى جاء وقت الصلاة ،
صلاة يوم الجمعة ، فناداهم أبو بلال : يا قوم ! هذا وقت الصلاة ، فوادعونا حتى
نصلي وتصلوا ، قالوا : لك ذاك ، فرمى القوم أجمعون أسلحتهم وعمدوا إلى
الصلاة ، فأمرع عباد ومن معه والحورية مبطون ، فهم من بين راكم وقائم
وساجد في الصلاة وقاعد ، حتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلهم جميعاً ، وأتى
برأس أبي بلال .

وتروى الشراة : أن مرداساً أبا بلال لما عقد على أصحابه وعزم على الخروج
رفع يديه وقال : اللهم إن كان ما نحن فيه حقاً فأرنا آية ، قال : فرجف
البيت . وقال آخرون : فارتفع السقف .

فروى أهل العلم : أن رجلاً من الخوارج ذكر ذلك لأبي العالية الرياحي
يعجبه من الآية ، ويرغبه في مذهب القوم ، فقال أبو العالية : كاد الحنف ينزل
بهم ثم أدركتهم نظرة الله .

فلما فرغ من أولئك الجماعة أقبل بهم فصلبت رؤوسهم ، وفيهم داؤود بن شيب ،
وكان ناسكاً ، وفيهم حبيبة النصري من قيس وكان مجتهداً .

فيروى عن عمران بن حطان : أنه قال : قال لي حبيبة : لما عزمت على

الخروج فكرت في بناتي ، فقلت ذات ليلة لأمسكن عن تقشدهن حتى انظر ،
فلما كان في جوف الليل استسقت بنية لي ، فقالت : يا أبة اسقني فلم أجبها ،
فأعادت ، فقامت أخية لها أسن منها فسقتها ، فعلت أن الله عز وجل غير
مضيعهن ، فأنمت عزمي .

وكان في القوم كهنس ، وكان من أبر الناس بأمه ، فقال لها بأمة !
لولا مكانك لخرجت ، فقالت يابني ! قد وهبتك لله ، ففي ذلك يقول عيسى
ابن فاتك الجبطين :

ألا في الله لا في الناس نالت	بداؤود وإخوته الجدوع
مضوا قتلًا ومزيقاً وصلباً	تحوم عليهم طيرة وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه	يفسفر عنهم وهم ركوع
أطار الحوف نومهم فقاموا	وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال عمران بن حطان :

يا عين بكسي لرداس ومصرعه	يارب مرداس اجعلني كمداس
تركني هائماً أبكي لمرزئي	في منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناس بعدك يارمداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلأ	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

★ ★ ★

قال أبو العباس : ثم إن عبّاد بن أخضر المازني لبث دهرأ في مصر ،
محموداً موصوفاً بما كان منه ، فلم يزل على ذلك حتى ائتمر به جماعة من الخوارج
أن يفتكوا به ، فذمر بعضهم بعضاً على ذلك ، فجلسوا له في يوم جمعة ،
وقد أقبل على بغلة له ، وابنه رديفه ، فقام إليه رجل منهم ، فقال : أسالك
عن مسألة ؟ قال : قل ، قال : رأيت رجلاً قتل رجلاً بغير حق ، وللقاتل

جاء وقدر وناحية من السلطان ، الولي ذلك المقتول أن يفتك به إن قدر عليه ؟ قال : بل يرفعه إلى السلطان ، قال : إن السلطان لا يعدي عليه لمكانه منه وعظيم جاهه عنده ، قال : أخاف عليه إن فتك به فتك به السلطان ، قال : دع ما تخافه من ناحية السلطان ، أتلقه تبعه فيما بينه وبين الله ؟ قال : لا ، قال : فحكم هو واصحابه ، وخطوه بأسياقم ، ورمى عباده ابنه فجا ، وتنادى الناس : قتل عباده ، فاجتمع الناس فأخذوا أفواه الطرق ، وكان مقتل عباده في سكة بني مازن عند مسجد بني كليب ، فجاء معبد بن أخضر أخو عباده ، وهو معبد بن علقمة ، وأخضر زوج أمها ، في جماعة من بني مازن ، فصاحوا بالناس : دعونا ونارتنا ، فأحجم الناس وتقدم المازنيون ، فحاربوا الحوارج حتى قتلهم جميعاً ، لم يفلت منهم أحد إلا عبيدة بن هلال ، فإنه خرق خصاً ونفذ منه ، ففي ذلك يقول الفرزدق :

لقد أدرك الأوتار غير ذميمة إذا ذم طلاب الترات الأخضر
هم جردوا الأسياف يوم ابن أخضر فنالوا التي ما فوقها نال نثار
أقادوا به أسداً لها في اقتعاصها إذا برزت نحو الحروب بشار
ثم ذكر بني كليب : لأنه قتل بحضرة مسجدهم ولم ينصروه ، فقال في كلمته هذه :

كفعل كليب إذ أخلت بجارها ونصر اللئيم معتم وهو حاضر
وما لكليب حين تذكر أول وما لكليب حين تذكر آخر
وقال معبد بن أخضر :

سأحي دماء الأخضريين إنه أي الناس إلا أن يقولوا ابن أخضرا

وكان مقتل عباده وعبيد الله بن زياد بالكوفة ، وخليفته على البصرة عبيد الله بن أبي بكر ، فكتب إليه يأمره أن لا يدع أحداً يعرف بهذا الرأي إلا حبسه وجد في طلبه ، بمن تغيب منهم ، فجعل عبيد الله بن أبي بكر يتبعهم فيأخذهم ، فإذا شفع إليه في أحد منهم كفه إلى أن يقدم ابن زياد ، حتى أتى

بعروة بن أدية فأطلقه ، وقال : أنا كفيلك ، فلما قدم عبيد الله بن زياد أخذ من في السجن منهم فقتلهم جميعاً ، وطلب الكفلاء بمن كفلوا به منهم ، فكل من جاءه بصاحبه أطلقه وقتل الخارجي ، ومن لم يأت بمن كفل به منهم قتله ، ثم قال لعبيد الله بن أبي بكرة : هات عروة بن أدية ، قال : لا أقدر عليه ، قال : إذا والله أقتلك فإنك كفيل ! فلم يزل يطلبه حتى دُلَّ عليه في سرب العلاء بن سوية المنقري ، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد ، فقرأ عليه الكاتب : إنا أصبناه في سرب ، فهاتف به عبيد الله بن زياد ، وكان كثير المحاورة ، عاشقاً للكلام الجيد ، مستحسناً للصواب منه ، لا يزال يبحث عن عنده ، فإذا سمع الكلمة الجيدة عرج عليها .

ويروى : أنه قال في عقب مقتل الحسين بن علي عليه السلام لزينب بنت علي رحمهما الله ، وكانت أسن من حمل إليه منهن ، وقد كلمته فأفصحت وأبلغت ، وأخذت من الحجة حاجتها ، فقال لها : إن تكوني بلغت من الحجة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً ، فقالت : ما للنساء والشعر ؟! وكلت مع هذا الكن يرتضخ لغة فارسية ، وقال لرجل مرة ، واتهمه برأي الخوارج : أهروري منذ اليوم ؟!

رجع الحديث :

فقال للكاتب : صحفت والله ولؤمت ، إنما هو « في سرب العلاء بن سوية » ولوددت أنه كان ممن يشرب النبيذ ، فلما أقيم عروة بن أدية بين يديه حاوره ، وقد اختلف الناس في خبره ، وأصحّه عندنا : أنه قال له : لقد جهزت أخاك علي ، فقال : والله لقد كنت به ضئيلاً ، وكانت لي عزاً ، ولقد أردت له ما أريده لنفسي ، فعزم عزمياً فضى عليه ، وما أحب لنفسي إلا المقام وترك الخروج ، قال له : أفأنت علي رأيه ؟ قال : كلنا نعبد رباً واحداً ! قال : أما لأمثلن بك ! قال : اختر لنفسك من القصاص ما شئت ؟ فأمر به فقطعوا يديه ورجليه ، ثم قال له : كيف ترى ؟ قال : أفسدت علي دنياي وأفسدت عليك آخرتك ، ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره ، ثم دعا مولاه فسأله عنه ، فأجابه جواباً قد مضى ذكره .

قوله « فتهاق ، حقيقة : تضاحك به ضحك هزئ » ، وقال ابن أبي ربيعة الهزومي :

ولقد قالت لجارات لها	وتعرت ذات يوم تبتد :
أكما ينعتني تبصرتني	عمر كن الله أم لا يقصد ؟
فتهاقن وقد قلن لها :	حسن في كل عين من تود
حسد محملته من أجلها	وقدياً كان في الناس الحد

. . .

وكان عيّد الله لا يلبث الخوارج ، يجسهم ثرةً ويقتلهم ثرةً ، وأكثر ذلك يقتلهم ، ولا يتغافل عن أحدٍ منهم . وسبب ذلك أنه كان أطلقهم من حبس زياد لما ولي بعده ، فخرجوا عليه .

فأما زياد فكان يقتل المعلن ويستصلح المسر ، ولا يجرد السيف حتى تقول التهمة ، ووجه يوماً مجينة بن كيش الأعرجي إلى رجلٍ من بني سعدٍ يرأى رأي الخوارج ، فجاءه مجينة فأخذه ، فقال : إني أريد أن أحدث وضوءاً للصلاة ، فدعني أدخل إلى منزلي ، قال : ومن لي بخروجك ؟ قال : الله عز وجل ، فتركه ، فدخل فأحدث وضوءاً ، ثم خرج فأتى به مجينة زياداً ، فلما مثل بين يديه ذكر الله زياداً ، ثم صلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بنخير ، ثم قال : قعدت عني فأنكرت ذلك ، فذكر الرجل ربّه فحمدّه ووحدّه وأثنى عليه ، ثم ذكر النبي عليه السلام ، ثم ذكر أبا بكر وعمر بنخير ، ولم يذكر عثمان ، ثم أقبل على زياد فقال : إنك قد قلت قولاً فصدقه بفعلك ، وكان من قولك : ومن قعد عنا لم نهجه ، فقعدت ، فأمر له بصلة وكسوة وحملان ، فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه ، فقال : ما لكم أستطيع أن أخبره ، ولكني دخلت على رجل لا يملك ضراً ولا نقماً لنفسه ، ولا موتاً ولا حياة ولا ثوراً ، فرزق الله منه ماترون .

وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول : ما أحسب الذي يمنعكم من إتياني إلا الرجلة ، فيقولون : أجل ، فيحملهم ، ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي ،

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ، فقال : قاتل الله زناداً ، جمع لهم كما تجمع
الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرية ، وأصلح العراق ، بأهل العراق ،
وترك أهل الشام في شأهم ، وجبى العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر
ألف ألف .

قال أبو العباس : وبلغ زناداً عن رجل يكنى أبا الخير ، من أهل البأس
والنجدة ، أنه يرى رأي الخوارج ، فدعاه فولاه جندى سابور وما يليها ، ورزقه
أربعة آلاف درهم في كل شهر ، وجعل عماله في كل سنة مائة ألف ، فكان
أبو الخير يقول : ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة !!
فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياداً شيئاً ، فتمرّ لزياد فحبسه ، فلم يخرج من
حبسه حتى مات .

* * *

وقال الرهين ، وكان رجلاً من مراد ، وكان لا يرى القعود عن الحرب وكان
في الدماء والمعرفة والشعر والفقه ، يقول الخوارج ، بئزلة عمران بن حطان ،
وكان عمران بن حطان في وقته شاعر قعد الصفرية ورئيسهم ومفتيهم .
وللهين المرادي ولعمران بن حطان مسائل كثيرة من أبواب العلم في القرآن
وفي الآثار ، وفي السير والسنن ، وفي الغريب وفي الشعر ، نذكر طريفها إن
شاء الله . قال المرادي :

يا نفس قد طال في الدنيا مُراوغتي	لا تأمنن لصرف الدهر تنغيصا
إني لبائع ما يفنى لباقيّة	إن لم يعقني رجاء العيش تريباً
وأسأل الله بيع النفس محتسباً	حتى ألاقى في الفردوس حرقوصاً

قال الأخفش : حرقوص : ذو النديّة .

وابن المتبحر ومرداساً وإخوته إذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصاً
قال أبو العباس : وهذه كلمة له ، وله أشعار في مذاهبهم .

وكان زيادٌ ولى شيان بن عبد الله الأشعري صاحب مقبرة بني شيان باب
عثمان وما يليه ، فجده في طلب الحوارج وأخافهم ، وكنوا قد كثروا ، فلم يزل
كذلك حتى أتاه ليلة وهو متكئ بباب داره وجلان من الحوارج ، فضرباه
بأسيفهما فقتلاه ، وخرج بنون له للاغاثة فقتلوا ، ثم قتلها الناس فأتي زيادٌ بعد
ذلك بوجله من الحوارج ، فقال : اقتلوه متكئاً كما قتل شيان متكئاً ، فصاح
الخارجي : يا عدلاء !! هزأ به !

فأما قول جرير :

ومنا قتي القتيان واللبأس معقلٌ ومنا الذي لاقى بدجلة معقلا
— : فإنه أراد معقل بن قيس الرياحي ، ورياح ابن يربوع ، وجرير من بني
كليب بن يربوع .

وقوله « ومنا الذي لاقى بدجلة معقلا » يريد المستورد التيمي ، وهو من
بني تيم بن عبد مناة بن أد ، وتيم ابن مر بن أد .

وأما قول ابن الرقيات :

والذي نغص ابن دومة ماتو حي الشياطين والسيوف ظماء
فأباح للعراق يضربهم بالسيف صلتاً وفي الضراب غلاء
— : فلما يريد ابن دومة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، والذي نغصه
مصعب بن الزبير ، وكان المختار لا يوقف له على مذهب ، كان خارجياً ، ثم صار
زبيرياً ، ثم صار رافضياً في ظاهره !!

وقوله « ماتو حي الشياطين » فإن المختار كان يدعي أنه يلهم ضرباً من
لشجاعة لأموه تكون ، ثم يحال فوقها ، فيقول للناس : هذا من عند الله
عز وجل .

فمن ذلك قوله ذات يوم : لتنزلن من السماء نارٌ دهماء ، فلتحرقن دار
أسماء ، فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أقد سجع بي أبو إسحق ؟ هو
الله محرق داري ! فتركه والدار وهرب من الكوفة .

وقال في بعض سبّعه : أما والذي شرع الأديان ، وجنّب الأوثان ،
وكرّه العصيان ، لأقتلن أزدعمان ، وجثّل قيس عيلان ، وتميّأ أولياء الشيطان ،
وحاشا النجيب ظيان ! فكان ظيان النجيب يقول : لم أزل في معمر المختار
أقلّب آمناً .

• • •

ويروى : أن المختار بن أبي عبيدٍ حيث كان والياً لابن الزبير على الكوفة
اتهمه ابن الزبير ، فولى رجلاً من قريش الكوفة ، فلما أطلّ قال لجماعة من
أهلها : اخرجوا إلى هذا المغرور فردّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : أين تريد ؟
واحد لئن دخلت الكوفة ليقلنك المختار ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير : إن صاحبك
جامنا فلما قاربنا رجع ، فما أدري ما الذي ردّه ! فغضب ابن الزبير على القرشي
وعجزه وردّه إلى الكوفة ، فلما شاربها قال المختار : اخرجوا إلى هذا المغرور
فردّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : إنه والله قاتلك ، فرجع ، وكتب المختار
إلى ابن الزبير بمثل كتابه الأول ، فلام القرشي ، فلما كان في الثالثة فطن ابن
الزبير ، وعلم بذلك المختار ، وكان ابن الزبير قد حبس محمد بن الحنفية مع خمسة
عشر رجلاً من بني هاشم ، فقال : لتبايعنّ أو لأحرقنكم ، فأبوا بيعته وكان
السجن الذي حبسهم فيه يدعى سجن عارم ، ففي ذلك يقول كثير :

تخيّر من لاقيت أنك عائدٌ بل العائد المظلوم في سجن عارم
ومن يلتق هذا الشيخ بالحيف من منى من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمي النبي المصطفى وابن عمه وفكاك أغلال وقاضي مغارم
وكان عبد الله بن الزبير يدعى العائد ، لأنه عاذ باليت ، ففي ذلك يقول
ابن الرقيات يذكر مصعباً :

بلدٌ تأمن الحماة فيه حيث عاذ الخليفة المظلوم
وكان عبد الله يدعى المُحِلّ ، لإحلاله القتال في الحرم ، وفي ذلك يقول
رجل في رمة بنت الزبير :

ألا من لقلبٍ مُعنى غزلٍ بذكر المحبة أخت المحل

وكان عبد الله بن الزبير يظهر البغض لابن الحنفية إلى بغض أهله ، وكان يحسده على أبيه ، ويقال : أن علياً استطال دعواً فقال : لينقص منها كذا وكذا حلقة ، فقبض محمد بن الحنفية بإحدى يديه على ذيلها ، وبالأخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حده بوه فكان ابن الزبير إذا حدث بهذا الحديث غضب واعتراه له أفكل ، فلما رأى المختار أن ابن الزبير قد فطن لما أراد كتب إليه : من المختار بن أبي عبيد الثقفي خليفة الوصي محمد بن علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن أسماء ، ثم ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه ، وكان قبل ذلك في وقت إظهاره طاعة ابن الزبير يدس إلى الشيعة ، ويعلمهم موالاته إياهم ، ويخبرهم أنه على رأيهم وحمد مذاهبهم ، وأنه سيظهر ذلك عما قليل ، ثم وجه جماعة تسير الليل وتكمن النهار ، حتى كسروا سجن عارم واستخرجوا منه بني هاشم ، ثم ساروا بهم إلى مأمهم .

وكان من عجائب المختار أنه كتب إلى إبراهيم بن مالك الأستر يسأله الخروج إلى الطلب بدم الحسين بن علي رضي الله عنها ، فأبى عليه إبراهيم إلا أن يستأذن محمد بن علي بن أبي طالب ، فكتب إليه يستأذنه في ذلك ، فعلم محمد أن المختار لا عقد له ، فكتب محمد إلى إبراهيم بن الأستر : إنه ما يسوءني أن يأخذ الله بمقمتنا على يدي من يشاء من خلقه ، فخرج معه إبراهيم بن الأستر . فتوجه نحو عبيد الله بن زياد ، وخرج بشيعة ماشياً ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحق ! : إني أحب أن تغبر قدماي في نصره آل محمد عليهم السلام ، فشيعة فرسخين ، ودفع إلى قوم من خاصته حملاً أيضاً ضخماً ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها ، وقال للناس : إن استقمتم فبصر الله ، وإن حصم حصه فإني أجد في محكم الكتاب ، وفي اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بلاتكة غضاب ، تأتي في صور الحمام دوين السحاب ! فلما صار ابن الأستر بخازر وبها عبيد الله بن زياد قال : من صاحب الجيش ؟ قيل له :

ابن الأستر ، قال أليس الغلام الذي كان يُطير الحمام بالكوفة ؟ قالوا : بلى ، قال : ليس بشيء ، وعلى مينة ابن زيادٍ حُصينٌ بن عُمير السُكونيُّ من كندة ، ويقال السُكوني والسُكوني ، والسُدُوميُّ والسُدُوميُّ ، كذا كان أبو عبيدة يقول ، (قال أبو الحسن : السُكونيُّ أكثر) وعلى ميسرة عمير بن الحباب فارسُ الاسلام ، فقال حُصينٌ بن عُمير لابن زيادٍ : ان عمير بن الحباب غير ناسٍ قتلى المرج ، وإني لا أتق لك به ، فقال ابن زيادٍ : أنت لي عدوٌّ ، قال حُصينٌ : متعلمٌ ، قال ابن الحباب : فلما كان في الليلة التي نريد أن نواقع ابن الأستر في صيحتها خرجت إليه ، وكان لي صديقاً ، ومعني رجلٌ من قومي ، فصرْتُ إلى عسكره ، فرأيتَه وعليه قميص هرويٍّ وملاءةٌ ، وهو متشحُّ السيف يحوسُّ عسكره فيأمر فيه وينهى ، فالتزمت من ورائه ، فوالله ما التفت إلي ، ولكن قال : من هذا ؟ فقلت : عمير بن الحباب ، فقال : مرحباً بأبي المغلّس ، كن بهذا الموضع حتى أعود إليك ، فقلت لصاحبي : رأيت أشجع من هذا قط ؟ ! يحتضنه رجلٌ من عسكر عدوّه ، ولا يدري من هو ؟ فلا يلتفتُ إليه !! ثم عاد إلي وهو في أربعة آلاف ، فقال : ما الخبر ؟ فقلت : القوم كثيرٌ ، والرأي أن تتأجزم ، فانه لا صبر بهذه العصابة القليلة على مطاولة هذا الجمع الكثير ، فقال : نصبح إن شاء الله ثم نحاكمهم إلى طبّات السيوف وأطراف القنا ، فقلت : أنا منخزلٌ عنك بثلاث الناس غداً ، فلما التقوا كانت على أصحاب ابراهيم في أول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فتصايح الناس : الملائكة !! فتراجعوا ، ونكّس عمير بن الحباب رايته ، وفادى يالتأرات المرج ! وانخزل بالميسرة كلها ، وفيها قيسٌ فلم يعصوه ، واقتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأمرع القتل في أصحاب عبيد الله بن زيادٍ ، ثم انكشفوا ، ووضع السيفُ فيهم حتى أفتوا ، فقال ابن الأستر : لقد ضربتُ رجلاً على شاطئ هذا النهر فرجع إليّ سيفي ومنه رائحة المسك ! ورأيت إقداماً وجرأةً ، فصرعته فذهبت يدها قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب ، فانظروه ، فأتوه بالنيران ، فاذا هو عبيد الله بن زيادٍ .

وقد كان عند المختار كرمي قديم العهد ، فغشاء بالدياج ، وقال : هذا
الكرمي من ذخائر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فضعوه في
براكاه الحرب ، وقاتلوا عليه ، فان محله فيكم محل السكينة في بني إسرائيل !!
ويقال أنه اشترى ذلك الكرمي بدرهمين من نخباء .

وقوله « في براكاه القتال » يقال براكاه وبروكاه ، وهو موضع اصطدام
القوم ، قال الشاعر :

وليس بمنقذ لك منه إلا براكاه القتال أو الفرار

x x x

هذا باب اللام

التي للاستغانة والتي للاضافة

إذا استغثت بواحدٍ أو بجماعةٍ فاللام مفتوحةٌ ، تقول : يا للرجالِ ، وبالقومِ ،
وبالزيدِ ، إذا كنتَ تدعوم .

وإنما فتحها لتفصيل بين المدعوِّ والمدعوِّ له ، ووجب أن تفتحها لأن أصلَ
اللام الحافضةِ إنما كان الفتح ، فكسرتْ مع المظهرِ ليفصلَ بينها وبين لامِ
التوكيدِ ، تقول : إنَّ هذا لزيدٌ ، إذا أردتَ إنَّ هذا زيدٌ ، وتقول :
إنَّ هذا لزيدٌ ، إذا أردتَ أنه في ملكه ، ولو فتحتْ لالتبسَتْ .

فإن وقعتِ اللامُ على مضمَرٍ فتحنها على أصلها ، فقلتَ : إنَّ هذا لكَ ،
وإن هذا لأنَّ ، إذا أردتَ لامِ التوكيدِ ، لأنه ليس هنا لبسٌ ، وذاك
أنَّ الأسماءَ المضمرةَ على غيرِ لفظِ المظهرِ ، فهذا أجرئتها على الأصلِ ،
والاستغانةُ ترُدُّها إلى أصلها من أجلِ اللبسِ .

والمدعوُّ له في بابهِ ، فاللامُ معه مكسورةٌ ، تقولُ : يا للرجالِ للماوِ ،
والرجالِ للعجبِ ، وبالزيدِ للخطبِ الجليلِ ، قال الشاعرُ :

بالرجالِ ليومِ الأربعاءِ أما ينفكُّ يعثُّ لي بعد النسي طرباً
وقال آخرُ :

تكنفني الوُشاةُ فازعجوني فيا للناسِ اللواشي المطاعِ

وفي الحديث لما طعنَ العليُّ أو العبدُ عمرَ بن الخطابِ رضوان الله عليه
صاح : يا لله يا مسلمين .

وتقول : يا لعجب ، إذا كنت تدعو إليه ، و « يا » لغير العجب ،
كأنك قلت : بالناس للعجب ، ويُشيد هذا البيت :

بالعنة الله والأقوام كلهم والصالحين على سمعان من جار
فـ « يا » لغير اللعنة ، كأنه قال : يا قوم لعنة الله والأقوام كلهم .
وزعم سيويه أن هذه اللام التي للاستغانة دليل ، بمنزلة الألف التي تُبين
بالهاء في الوقف إذا أردت أن تسمع بعيداً ، فإنما هي للاستغانة بمنزلة هذه
اللام ، وذلك قولك : يا قوماء ، على غير الندبة ، ولكن للاستغانة
ومد الصوت .

والقول كما قال ، محلها عند العرب محل واحد ، فإن وصلت حذفت
الهاء ، لأنها زيدت في الوقف لحقاق الألف ، كما مرّاد لبيان الحركة ، فإذا
وصلت أغنى ما بعدها عنها ، تقول : يا قومًا تعالوا ، ويا زيدًا لا تفعل .
ولا يجوز أن تقول يا زيدا وهو مُقبل عليك ، وكذلك لا يجوز أن تقول :
يا زيدا وهو معك ، إنما يقال ذلك للبعيد ، أو يُنبّه به النائم .

فإن قلت : يا زيدا ولعمري ، كسرت اللام في « عمرو » وهو مدعو ،
لأنك إنما فتحت اللام في « زيد » لتفصل بين المدعو والمدعو إليه ، فلما عطفت
على « زيد » استغنت عن الفصل ، لأنك إذا عطفت عليه شيئاً صار في
مثل حاله .

ونظير ذلك الحكاية ، يقول الرجل : رأيت زيدا ، فتقول ، من زيدا ؟
ويقول : مررت بزيد ، فتقول : من زيد ؟ وإنما حكيت قوله ليعلم أنك
إنما تستفهمه الذي ذكر بعينه ، ولا تسأله عن زيد غيره ، والموضع موضع
رفع ، لأنه ابتداء وخبر ، فإن قلت : ومن زيد ؟ أو فمن زيد ؟ لم يكن
إلا رفعا ، لأنك عطفت على كلامه ، فاستغنت عن الحكاية ، لأن العطف
لا يكون مستأنفا .

ونظيرُ هذا الذي ذكرتُ لك في اللام قول الشاعر :
 ينكيك ناءٍ بعيدُ الدَّارِ مُغْتَرِبٌ ياللكُھولِ ولِلشُّبَّانِ للعجبِ
 فقد أحكمتُ لك كلَّ ما في هذا الباب .

ثم نعودُ إلى ذكرِ الخوارجِ

قال أبو العباس : وذُكرَ لعبيدِ الله بن زيادٍ رجلٌ من بني سدُوس ،
 يقال له خالد بن عبادٍ ، أو ابنُ عبادة ، وكان من مُنْساكهم ، فوجهَ إليه
 فأخذه ، فأتاه رجلٌ من آل ثورٍ ، فكذبَ عنه ، وقال : هو صهرِي وهو في
 ضِمْنِي ، فظلي عنه ، فلم يزل الرجلُ يتفقدهُ حتى تغيبَ ، فأتى ابنُ زيادٍ
 فأخبره ، فبعثَ إلى خالد بن عبادٍ فأخذه ، فقال لعبيدِ الله بن زيادٍ : ابنُ كنتَ
 في غيبَتِكَ هذه ؟ قال : كنتُ عند قومٍ يذكرونَ اللهَ ويذكرونَ أئمةَ الجورِ
 فيتبرؤنَ منهم ! قال : ذلني عليهم ، قال : إذنْ يسعدوا وتشقى ، ولم
 أكنْ لأُروهم ! قال : فما تقولُ في أبي بكرٍ وعمرَ ؟ قال : خيراً ، قال : فما
 تقولُ في أمير المؤمنين عثمانَ ، أتولاه وأمير المؤمنين معاويةَ ؟ قال : إن كانا
 وليَّينِ لله فليستُ أعاديهما ، فأراغهُ مراتٍ فلم يرجع ، فعزَمَ على قتله ، فأمر
 بإخراجه إلى رجةٍ تُعرفُ برجةِ الزينبي ، فجعل الشرطُ يتفادونَ من قتله ،
 ويؤوِّغونَ عنه توقياً ، لأنه كان شاسفاً عليه أثرُ العبادةِ ، حتى أتى المثلُمُ بنُ
 مسرُوحٍ الباهليُّ ، وكان من الشرطِ ، فتقدمَ فقتله ، فائتمرَ به الخوارجُ
 ليقْتلوه ، وكان رجلاً مُغرماً باللقاحِ ، يتبعُها فيشتريها من مظانِّها ، وهم
 في تقفدهِ ، فدسُّوا إليه رجلاً في هيئةِ القتيانِ ، عليه ردعُ زعفرانٍ ، فلقبه
 بالربدِ وهو يسأل عن لقعةٍ صغيٍ ، فقال له الفتى : إن كنتَ تبلغُ فعندي
 ما يغنيك عن غيره ، فامضِ معي ، فضى المثلُمُ على فرسه والفتى أمامه ، حتى
 أتى به بني سعدٍ ، فدخل داراً ، وقال له : ادخل على فرسك ، فلما دخل
 وتوغل في الدار أغلق البابَ ، وثارت به الخوارجُ فاعتوره حُرَيْثُ بن جحلٍ ،

وكهس بن طلق الصريمي فقتلاه ، وجعلا دراهم كانت معه في بطنه ، ودفناه في ناحية الدار ، وحكنا آثار الدّم ، وخلقيا فرسه في الليل ، فأصيب من الغد في الميربد ، وتحسّ عنه الباهليّون فلم يروا له أثرا ، فاتهموا به بني سدوس ، فاستعدّوا عليهم السلطان ، وجعل السدوسيون يحلفون ، فتحمّل ابن زياد مع الباهليين ، فأخذ من السدوسيين أربع ديات ، وقال : ما أدري ما أصنع بهؤلاء الخوارج ؟ كلا أمرت بقتل رجلٍ منهم اغتالوا قاتله فلم يُعلم بمكانه ، حتى خرج مرداس . فلما واقفهم ابن زرعة الكلابيّ صاح بهم حريث ابن جمل : أهنا من باهلة أحد ؟ قالوا نعم ، قال : يا أعداء الله ! اخذتم بالمثل أربع ديات وأنا قاتله وجعلت دراهم كانت معه في بطنه ، وهو في موضع كذا مدفون ، فلما انهزموا صاروا إلى الدار ، فأصابوا أسلامه والدراهم ، ففي ذلك يقول أبو الأسود الدؤليّ :

آليت لا أغدو إلى ربّ لقعة أساومه حتى يعود المثل
ثم خرجت خوارج لا ذكر لهم ، كلهم قتل ، حتى انتهى الأمر إلى الأزارقة .

* * *

ومن هاهنا افتقرت الخوارج فصارت على أربعة أضرب :
الإباضية ، وهم أصحاب عبد الله بن إباح .
والصفرية ، واختلفوا في تسميتهم ، فقال قوم : سمّوا بابن صفار ، وقال آخرون ، واكثر المتكلمين عليه : هم قوم نهكهم العبادة فاصفرت وجوههم .
ومنهم البيهية ، وهم أصحاب أبي بيّس .
ومنهم الأزارقة ، وهم أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي ، وكانوا قبل على رأي

واحد ، لا يختلفون إلا في الشيء الشاذ من الفروع ، كما قال صخر بن عروة :
إني كرهت قتال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لسابقته وقربته ، فأما الآن
فلا يسعني إلا الخروج . وكان اعتزل عبد الله بن وهب يوم النهر ، فضلت
الخوارج بامتناعه من قتال علي .

* * *

فكان أول أمرهم الذي نستأقنه : أن جماعة من الخوارج ، منهم نجدة
ابن عامر الحنفي ، عزموا على أن يقصدوا مكة ، لما توجه مسلم بن عقبة
يريد المدينة لوقعة الحرّة ، فقالوا : هذا ينصرف عن المدينة إلى مكة ، ويجب
علينا أن نمنع حرم الله منه ، ونمتحن ابن الزبير ، فإن كان على رأينا بايعناه ،
فمضوا لذلك .

فكان أول أمرهم : أن أبا الوازع الراسي ، وكان من مجتهد الخوارج
كان يذمر نفسه ويلومها على القعود ، وكان شاعراً ، وكان يفعل ذلك بأصحابه ،
فأتى نافع بن الأزرق وهو في جماعة من أصحابه ، يصف لهم جور السلطان ،
وكان ذا لسان غضبي ، واحتجاج وصبر على المنازعة ، فأنابه أبو الوازع ، فقال :
يا نافع ! لقد أعطيت لساناً صارماً ، وقلباً كليلاً ، فتوددت أن صرامة
لسانك كانت لقلبك ، وكلال قلبك كان للسانك ، ألمحض على الحق وتقعد
عنه ، وتقبح الباطل وتقيم عليه ؟ فقال : إلى أن تجمع من أصحابك من
تكفي به عدوك ، فقال أبو الوازع :

لأنك لا تكفي به القوم إنما تنال بكفك النجاة من الكرب
فجاهد أناساً حاربوا الله واصطبر عسى الله أن يخزي غوي بني حرب

ثم قال : والله لا ألومك وتقصي ألوم ، ولأغدؤن غدوة لا أنثني بعدها أبداً ،
ثم مضى فاسترى سيفاً ، وأتى صيقلًا كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم ،
فشاوره في السيف فحمدّه ، فقال : اشحذه ، فشحذه ، حتى إذا رضى حكمه
وتخبط به الصيقل ، وحمل على الناس فتهاربوا منه ، حتى أتى مقبرة بني

بشكره ، قدفع عليه رجل حائط السُّورَة فكرهت ذلك بنو يشكره ، خوفاً أن
تجعل الحوارج قبره مهاجراً ، فلما رأى ذلك نافع بن الأزرق وأصحابه جدوا ،
وخرج في ذلك جماعة ، فكان ممن خرج عيسى بن قاتك الشاعر الخطيب ، من
تيم اللات بن ثعلبة ، ومقتله بعد خروج الأزارقة .

فرض نافع وأصحابه من الحرورية قبل الاختلاف إلى مكة ، ليمنعوا
الحرم من جيش مسلم بن عقبة ، فلما صاروا إلى ابن الزبير عرفوه فتنفهم ،
فاظهر لهم أنه على رأيهم ، حتى أتاها مسلم بن عقبة وأهل الشام ، فدافعهم إلى
أن ياتي رأي يزيد بن معاوية ، ولم يبايعوا ابن الزبير ، ثم تناظروا فيما بينهم ،
فقالوا : ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر وعمر ،
وبريء من عثمان وعلي ، وكفر أباه وطلحة ، وبايعناه ، وإنا تكن
الأخرى ظهر لنا ما عنده ، فتشاغلنا بما يجدي علينا ، فدخلوا على ابن الزبير ،
وهو متبذل ، وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن
كنت على الصواب بايعناك ، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق ، ما نقول
في الشيخين ؟ قال : خيراً ، قالوا : فما تقول في عثمان ، الذي أحى الحمى ،
وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، واطأ آل ابي
معيط رقاب الناس وآثرهم بغير المسلمين ؟ وفي الذي بعده الذي حكم في
دين الله الرجال ، واقام على ذلك غير قائب ولا نادم ؟ وفي ابيك وصاحبه ،
وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضي ، لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا ، بعرض
من اعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل ، وقد امرها الله وصاحبها ان يقرن
في بيوتهم ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة ، فإن انت قلت كما نقول
فلك الزلفة عند الله والنصر على ايدينا ، ونسأل الله لك التوفيق ، وإنا
ايث إلا نصر رأيك الأول ، وتصويب ابيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان ،
والتولي في السنين الست التي احللت دمه ، ونقضت عهده ، وأفسدت إمامته ،
خذلك الله وانتصر منك بأيدينا !! فقال ابن الزبير : إن الله أمر — وله العزة

والقدرة - في مخاطبة أكفر الكافرين واعتى العتاة بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى ولأخيه - صلى الله عليهما - في فرعون (فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر او يخشى) وقال رسول الله ﷺ : « لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الموتى » ، فهي عن سبِّ أبي جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدوُّ الله وعدوُّ الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاذب في المحاربة ، والمتبغض إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة وأبي أن تقولوا : اتبرأ من الظالمين ؟ فإن كنا منهم دخلاً في غمار الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسبِّ أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جلّ وعزّ قال للمؤمن في أبيه : (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعها ، وصاحبها في الدنيا معرُوفاً) وقال جل ثناؤه : (وقلوا للناس حسناً) وهذا الذي دعوتهم إليه أمرٌ له ما بعده ، وليس يقنعكم إلا التوقيفُ والتصریحُ ، ولعمري إن ذلك لأحريّ بقطع الحجج ، وأوضع لمنهج الحقّ ، وأولى بأن يعرف كلُّ صاحبه من عدوّه ، فرؤسوا إليّ من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله . فلما كانت العشيّ راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة قال : هذا خروجٌ منابذٍ لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه محمد ﷺ ، ثم ذكر أبا بكرٍ وعمر احسن ذكرٍ ، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافة ، ثم وصلين بالسنين التي أنكروا سيرته فيها ، فجعلها كالمأضية ، وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله ﷺ ، وذكر الحمي وما كان فيه من الصلاح وأن القوم استعبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أولاً مصيياً ، ثم أعطيهم بعدُ محسناً ، وأن أهل مصر لما اتوه بكتابٍ ذكروا أنه منه بعد أن ضمن لهم العتبي ، ثم كتب لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفعوا الكتاب إليه ، فحلف أنه لم يكتبه ولم يأمر به ، وقد أمر بقبول اليمين ممن ليس له مثلُ سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ﷺ ومكانه

من الإمامة ، وأن يعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه ، وعثمانُ الرجل الذي لزمته عينٌ لو حلف عليها لحلف على حقٍ فاقتداها بمائة ألفٍ ولم يحلف ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض » ، فعثمانُ أميرُ المؤمنين كصاحبه ، وأنا وليُّ وليته ، وعدوُّ عدوه ، وابي وصاحبه صاحباً رسول الله ﷺ ، ورسولُ الله يقول عن الله تعالى يوم أُحدٍ لما قُطعتْ إصبعُ طلحة : « سبقته إلى الجنة » ، وقال : « أوجبَ طلحةُ » ، وكان الصديقُ إذا ذكرَ يوم أُحدٍ قال : ذاك يومٌ كلُّهُ أو جُلُّهُ لطلحة ، والزييرُ حوارِي رسول الله وصفوته ، وقد ذكرَ أنها في الجنة ، وقال جل وعز : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يُبايعونك تحت الشجرة) وما أخبرنا بعدُ انه سخط عليهم ، فإن يكن ما سَعوا فيه حقاً فأهلُ ذلك هم ، وإن يكن زلةٌ ففي عفو الله تمحيصها ، وفيما وقفهم له من السابقة مع نبيهم ﷺ ، ومهما ذكرتموها به فقد بدأتمُ بأمركم عائشة رضي الله عنها ، فإن ابي آبي ان تكون له أمّاً نبذ اسم الإيمان عنه ، قال الله جل ذكره وقوله الحق : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) فنظر بعضهم إلى بعضٍ ثم انصرفوا عنه .

* * *

وكان سببُ وضعِ الحربِ اوزارها بين ابن الزبير وبين اهل الشام — بعد ان كان حُضينُ بن مُيمِرٍ قد حصر ابن الزبير — انه اتاهم موتُ يزيد بن معاوية فتوادع الناسُ ، وقد كان اهلُ الشام ضجروا من المقام على ابن الزبير ، وحنقت الحوارج في قتالهم ، ففي ذلك يقول رجلٌ من قضاة :

يا صاحبي ارتحلا ثم امسا لا تحبسا لدى الحزينِ محبسا

إن لدى الأركانِ بُوساً

(قال الأخفش : حظي « بآأ أبوساً » .)

وبارقاتٍ يجتلسن الأتسا إذا الفتى حكّم يوماً كلاً

قوله : « ثم امسا » يريد : تخلصاً تخلصاً سهلاً . « وكلس » اي

حملٌ وجدّ .

ولما سمع ابنُ الزبير للخوارج في القولِ واطهر انه منهم قال له رجل
يقال له قيسُ بن همامٍ من وهط الفرزدقِ :

يا بن الزبير اتهمي عصبةً قتلوا ظلماً اباك ولماً تنزع الشككُ
ضحوا بعثمان يوم النحر ضاحيةً ما اعظم الحرمة العظمى التي انتهكوا
فقال ابنُ الزبير : لو شايعتني التركُ والدليمُ على قتال اهل الشام لشايعتها
« الشكك » جمع « شكّة » وهي السلاح ، قال الشاعرُ :
وَمُدَجَّجاً يَسْعَى بِشَكَّتِهِ مُحَمَّرَةً عَيْنَاهُ كَالْكَلْبِ

★ ★ ★

فتفرقت الخوارجُ عن ابن الزبير لما تولى عثمان ، فصارت طائفةٌ إلى البصرة ،
وطائفةٌ إلى اليمامة ، وكان رجاءُ النُميريُّ هو الذي كانت جمعهم للدفاع عن
الحرم ، فكان فيمن صار إلى البصرة نافعُ بن الأزرق الحنفيُّ ؛ وبنو الماحوز
السلطيُّون ، ورئيسهم حسانُ بن مجزج ، فلما صاروا إلى البصرة نظروا في
أمرهم فأثروا عليهم نافعاً .

ويروى : ان ابا الجلدِ الشكريّ قال لنافع يوماً : يا نافعُ ! إن لجهم
سبعة ابوابٍ ، وإن اشدها حرّاً للبابُ انذي أعدت للخوارج ، فإن قدرت
ان لا تكون منهم فافعل ، فأجمع القوم على الخروج ، فضى بهم نافعٌ إلى
الأهواز في سنة اربع وستين ، فأقاموا بها ، لا يخرجون احداً ، ويناضروا الناسُ .

★ ★ ★

وكان سبب خروجهم إلى الأهواز انه لما مات يزيدُ بايع اهلُ البصرة عبيد
الله بن زيادٍ ، وكان في السجن يومئذٍ اربعُ مائة رجلٍ من الخوارج ، وضعف
امرُ ابن زيادٍ ، فكلمَ فيهم ، فأطلقهم ، فأفسدوا البيعة عليه ، وفشوا في الناس ،
يدعون إلى محاربة السلطانِ ، ويظهرون مام عليه ، حتى اضطرب على عبيد الله
أمره ، فتحوّل عن دار الإمارة إلى الأزد ، ونشأت الحربُ بسببه بين الأزد

وربيعة وبين بني تميم ، فاعتزلهم الحوارج إلا نقرأ منهم من بني تميم ، معهم عيسى
ابن طلق الصريمي أخو كهس ، فانهم اعانوا قومهم ، فكان عيسى الطعان في
سعد ، والرباب في القلب بجذاء الأزدي ، وكلت حارثة بن بدر اليربوعي في
حنظلة بجذاء بكر بن وائل ، وفي ذلك يقول حارثة بن بدر للأخنف ، وهو
صخر بن قيس :

سيكفك عيسى أخو كهس مؤاقفة الأزدي بالمربد
وتكفك عمرو على رسلها لكيز بن أفضى وما عدوا
« لكيز » هو عبد القيس .

وتكفك بكرأ إذا أقلت بضرب يشيب له الأمر
فلما قتل مسعود بن عمرو المعني ، وتكاف الناس أقام نافع بن الأزرق
بموضع بالأهواز ، ولم يعد إلى البصرة ، وطردها عمال السلطان عنها ،
وتجبا الفياء .

ولم يزالوا على رأي واحد ، يتولون أهل النهر ويرداساً ومن خرج معه ،
حتى جاء موثى لبني هاشم إلى نافع ، فقال له : إن أطفال المشركين في النار ،
وإن من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال ، قال له نافع :
كفرت وأدلت بنفسك ، قال له : إن لم آتتك بهذا من كتاب الله فاقتلني :
(قال نوح رب لا تذرنى على الأرض من الكافرين ديناراً . إنك إن تذرنهم
يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم ،
فشهد نافع أنهم جميعاً في النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدار دار كفر إلا
من أظهر إيمانه ، ولا يحل أكل ذبائحهم ، ولا تناكحهم ، ولا توارثهم ، ومتى
جاء منهم جاء فعلياً أن تمتحنه ، وهم ككفار العرب ، لا تقبل منهم إلا الإسلام
أو السيف ، والقعد بمنزلتهم ، والتقية لا تحل ، فان الله تعالى يقول : (إذا
فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) وقال عز وجل فيمن

كان على خلافتهم : (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) . فنفر جماعة من الحوارج عنه ، منهم نجدة بن عامر ، واحتج عليه بقول الله عز وجل : (إلا أن تستقروا منهم تقاة) . وبقوله عز وجل : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتمُ إيمانه) فالتقعد منا ؛ والجهد إذا أمكن أفضل ، لقوله جل وعز : (فضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) . ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة وتفرقوا في البلدان .

فلما تتابع نافع في رأيه وخالف أصحابه ، وكان أبو طالوت سالم بن مطر بالخضارم في جماعة قد بايعوه ، فلما انحزل نجدة خلعوا أبا طالوت ، وصاروا إلى نجدة فبايعوه ، ولقي نجدة وأصحابه قوماً من الحوارج بالعرمة ، « والعرمة » كالسكر ، وجمعها « عرم » ، وفي القرآن المجيد : (فأرسلنا عليهم سيل العرم) وقال الثابت الجعدي :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ بينون من دون سبيل العرما
فقال لهم أصحاب نجدة : إن نافعاً قد كفر القعد ورأى الاستعراض ، وقتل الأطفال ، فانصرفوا مع نجدة ، فلما صار باليمامة كتب إلى نافع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالإخ البر ، لاتأخذك في الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابك ، أما تذكر قولك : لولا أني أعلم أن الإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ؟ فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق فصة ، وركنت مره ، تجرد لك الشيطان ، ولم يكن أحد ثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك فاستأثرت واستهواك واستغواك وأغواك ، فغويت ، فأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعد المسلمين وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه ، وقوله الحق ووعده الصادق : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوهم الله ورسوله) ثم سماهم أحسن الاسماء فقال : (ما على الحسين

من سبيل) ثم استعلت قتل الاطفال ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم ، وقال الله عز ذكره : (ولا توردوا وزراً وأخرى) وقال في القعد خيراً ، وفضل الله من جاهد عليهم ، ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملاً منزلة من هو دونه ، أوما سمعت قوله عز وجل : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر) فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيت ألا تؤدي الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تؤدى الامانات إلى أهلها ، فاتق الله وانظر نفسك ، واتق يوماً (لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازر عن والده شيئاً) فإن الله عز ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل ، وقوله الفصل والسلام .

فكتب إليه نافع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد اتاني كتابك تعظني فيه وتذكرني وتصح لي وتزجرني ؛ وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أؤثره من الصواب ، وأنا أسأل الله جل وعز أن يجعلني من الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، وعبت علي ما دنت به من إكفار القعد وقتل الاطفال واستحلال الامانة ؛ فأفسر لك لم ذلك إن شاء الله : اما هؤلاء القعد فليسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله ﷺ ، لانهم كانوا بمكة مقهورين محصورين ، لا يجدون إلى الحرب سبيلاً ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد فقهوا في الدين ، وقرؤا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا : (كنا مُستضعفين في الارض) فقبل لهم : (ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها) وقال : (فرح الخلفون بغيرهم خلاف رسول الله) وقال : (وجاء المعذرون من الاغراب ليؤذن لهم) فخبّر بتعذيرهم ، وانهم كذبوا الله ورسوله ، وقال : (سيصيب

الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ) فانظر إلى اسمائهم وصفاتهم . واما امر الاطفال فان نبي الله نوحاً عليه السلام كان اعلم بالله - يأنجده - مني ومنك ، فقال : (رب لا تنذرني على الارض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، فساهم بالكفر وهم اطفال ، وقبل ان يولدوا ، فكيف كان ذلك في قوم نوح ولا نكون نقوله في قومنا ؟! والله يقول : (اكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براعة في الزُّبر) وهؤلاء كمشركي العرب ، لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الاسلام . واما استحلال امانات من خالفنا فان الله عز وجل احل لنا اموالهم ، كما احل لنا دماءهم ، فدمائهم حلالٌ طلق ، واموالهم فيءٌ للمسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عندر لك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاننا ، والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقنا ومقاتلتنا ، والسلام على من اقر بالحق وعمل به .



وكتب نافع إلى عبد الله بن الزُّبير يدعوه إلى امره :

أما بعد ، فإني أحتذرك من الله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه) فاتق الله ربك ، ولا تتول الظالمين ، فإن الله يقول : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) وقد حضرت عثمان يوم قتل ، فلعمرى لئن كان قتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه ، ولئن كان قاتلوه مهتدين - وإنهم لمهتدون - لقد كفر من يتولاه وينصره ويعضده ، ولقد علمت ان اباك وطلحة وعلياً كانوا أشد الناس عليه ، وكانوا في امره من بين قاتلي وخاذلي ، وانت تتولى اباك وطلحة وعثمان ، وكيف ولاية قاتلي متعمدين ومقتولين في دين واحد ؟! ولقد ملك عليٌ بعده فنفى الشبهات ، واقام الحدود ، واجرى الاحكام بحارها ، واعطى الأمور

حقائبها ، فيما عليه وله ، فبايعه ابوك وطلحة ، ثم خلعه ظالمين له ، وإن
القول فيك وفيها لكما قال ابن عباس : **إِنْ يَكُنْ عَلِيٌّ فِي وَقْتِ مَعْصِيَتِكُمْ**
وَحَارِبَتِكُمْ لَهُ كَانَ مُؤْمِنًا أَمَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ بِقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَائْتِ الْعَدْلَ ، وَإِنَّ كَانَ
كَافِرًا كَمَا زَعَمْتُمْ وَفِي الْحُكْمِ جَائِزًا لَقَدْ بَوَّيْتُمْ بِغَضَبِ اللَّهِ لِفِرَارِكُمْ مِنَ الرَّحْفِ ،
وَلَقَدْ كُنْتُمْ لَهُ عَدُوًّا ، وَلِسِيرَتِهِ عَائِبًا ، فَكَيْفَ تَوَلَّيْتُمْ بَعْدَ مَوْتِهِ ؟! فَاتَّقُوا اللَّهَ
فَإِنَّهُ يَقُولُ : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) .

. . .

وكتب نافعٌ إلى من بالبصرة من الحكممة :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن
إلا وأنتم مسلمون ، والله إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدةٌ ، والدين واحدٌ ،
فقيم المقام بين أظهر الكفار ، ترون الظلم ليلاً ونهاراً ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد فقال :
(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) ولم يجعل لكم في التخلُّف عذراً في حالٍ من
الحال ، فقال : (انفروا خفافاً وثقالاً) . وإنما عذر الضعفاء والمرضى والذين
لا يجدون ما ينفقون ومن كانت إقامته لعلٍ ، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدن
فقال : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل
الله) . فلا تغترُّوا ولا تطمئنُّوا إلى الدنيا ، فإنها غرارةٌ مكارهٌ ، لذتها نافذةٌ ،
ونعمتها بائدةٌ ، حَفَّتْ بالشهوات اغتراراً ، وأظهرت حَبْرَةً ، واضمرت عبْرَةً ،
فليس آكلٌ منها أكلةٌ تسره ، ولا شاربٌ شرربةٌ تُوثِّقُهُ ؛ إلا دفا بها
درجةً إلى أجله ، وتباعد بها مسافةً من أمه ، وإنما جعلها الله داراً لمن تزود
منها إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، فلن يرضى بها حازمٌ داراً ، ولا حلِيمٌ
بها قراراً ، فاتقوا الله (وتزودوا فإن خير الزادِ التقوى) والسلام على من
اتَّبَعَ الهدى .

فورد كتابه عليهم ، وفي القوم يومئذ ابو بهس هيصم بن جابر الضبي ،
وعبد الله بن إباح المري ، من بني مرة بن عبيد ، فأقبل ابو بهس على ابن
إباح فقال : إن نافعاً غلاً فكفر ، وإنك قصرت فكفرت ! ترعم ان من
خالفنا ليس بشرك ، وإنما هم كفار النعم ؛ لتمسكهم بالكتاب ، واقرارهم
بالرسول ، وترعم أن مناكهم ومواريتهم والإقامة فيهم حلٌ طلقٌ ؟ وأنا أقول :
إن أعداءنا كاعداء رسول الله ﷺ ، تحمل لنا الإقامة فيهم ، كما فعل المسلمون
في إقامتهم بمكة ، وأحكام المشركين تجري فيها ، وأزعم أن مناكهم ومواريتهم
تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام ، وأن حكمهم عند الله حكم المشركين !!

* * *

فصاروا في هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع في البراءة والاستعراض
واستحلال الأمانة وقتل الأبطال . وقول أبي بهس الذي ذكرناه . وقول عبد
الله بن إباح . وهو أقرب الاقاويل إلى السنة من أقاويل الضلال . والصفرية
والنجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن إباح . وقد قال ابن إباح ما ذكرنا
من مقاله .

وأنا أقول : ان عدونا كعدو رسول الله ﷺ ، ولكني لا أحرّم مناكهم
ومواريتهم ، لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول عليه السلام ، فأرى
معهم دعوة المسلمين تجمعهم ، وأراهم كفاراً للنعم . وقالت الصفرية ألين من هذا
القول في أمر القعد ، حتى صار عامتهم قعداً . واختلفوا فيهم ، وقد ذكرنا
ذلك . فقال قوم : سموا صفرية ، لأنهم أصحاب ابن صفار ، وقال قوم :
إنما سموا بصفرة علتهم ، وتصديق ذلك قول ابن عاصم الليثي ، وكان يرى رأي
الخوارج ، فتركه وصار مرجئاً :

فأرقت نجدة والذين تَزَرَّقوا وابن الزبير وشيعة الكذاب

والصَفْرَ الآذَانِ الَّذِينَ تَخَيَّرُوا دِينًا بِلَا ثِقَةٍ وَلَا بَكْتَابٍ

خَفَّفَ الْمِمْزَةَ مِنْ «الْآذَانِ» ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَانْكَسَرَ الشَّعْرُ .

وقال أبو بَيَّهَسٍ : الدَّارُ دَارُ كُفْرٍ ، وَالْإِسْتِعْرَاضُ فِيهَا جَائِزٌ ، وَإِنْ أُصِيبَ مِنَ الْأَطْفَالِ فَلَا حَرَجَ . إِلَى هُنَا انْتَهَتْ الْمَقَالَةُ .

* * *

وتفرقت الحوارجُ على الأضربِ الأربعة التي ذكرنا ، وأقام نافعٌ بالأهوازِ يعترضُ الناسَ ويقتلُ الأطفالَ ، فإذا أُجِيبَ إلى المقالةِ جَبَا الحِراجَ ، وقَسَا مِمْمَالَهُ في السَّوَادِ ، فارتاعَ لذلك أهلُ البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنفِ ابنِ قَيْسٍ ، فشكَّوْا ذلكَ إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدوِّ إلا ليلتانِ ، وسيرتُهم ما ترى ، فقال الأحنفُ : إِنَّ فعلهم في مصركم - إن ظفروا به - كقطعِهم في سَوَادِكُمْ ، فيحدثوا في جهادِ عدوِّكم ، فاجتمع إليه عشرةُ آلافٍ رجلٍ ، فأتى عبدَ الله بنَ الحارثِ بنَ نوفلٍ بنَ الحارثِ بنَ عبدِ المطلبِ ، وهو بَبَّةٌ ، فسأله أن يؤمِّرَ عليهم ؛ فاختار لهم ابنَ عُبَيْسٍ بنَ كُرَيْزٍ ، وكان ديناً شجاعاً ، فأمره عليهم وشيَّعه ، فلما نفذ من جسرِ البصرة أقبل على الناسِ فقال : إني ما خرجتُ لامتيارِ ذهبٍ ولا فضةٍ ، وإني لأحاربُ قوماً إن ظفرتُ بهم فما وراهم إلا سيوفُهم ورماحُهم ، فمن كان شأنه الجهادُ فلينهضْ ، ومن أحبَّ الحياةَ فليرجعْ ، فرجع نفرٌ يسيرٌ ، ومضى الباقيون معه . فلما صاروا بدؤوا بخرابِهم نافعٌ ، فاقتلوا قتالاً شديداً ، حتى تكسرت الرماحُ ، وعُقِرَتِ الحيلُ ؛ وكثرت الجراحُ والقتلُ ، وتضاربوا باليُوفِ والعَمَدِ ، فقتل في المعركة ابنُ عُبَيْسٍ ونافعٌ بنُ الأزرقِ ، وكان ابنُ عُبَيْسٍ قد تقدَّم إلى أصحابه فقال : إِنَّ أُصْبِتُ فَأَمِيرُكُمْ الرَّبِيعُ بنُ عمرو الأجدَمِ الغُدَّانيُّ ، فلما أُصِيبَ ابنُ عُبَيْسٍ أخذَ الربيعُ الرايةَ ، وكان نافعٌ قد استخلفَ عبيدَ الله بنَ بشرٍ بنَ الماحِزِ السُّلَيْطِيَّ ، فكان الرئيسانِ من بني يربوع :

رئيس المسلمين من بني غداة بن يربوع ، ورئيس الحوارج من بني سبط بن يربوع
فاقتلوا قتالا شديداً ، وادّعى قتل نافع سلامة الباهلي ، وقال : لما قتله وكنت
على برذونٍ وردٍ إذا برجل على فرسٍ وأنا واقفٌ في خمسٍ قيسٍ يُنادي :
يا صاحب الوردِ ! هلم إلى المبارزة ، فوقفْتُ في خمسٍ بني تميمٍ فإذا به يعرضها
عليّ ، وجعلتُ أتقلُّ من خمسٍ إلى خمسٍ ، وليس يزايلي ، فصرتُ إلى رحلي ، ثمَّ
رجعتُ فرأني فدعاني إلى المبارزة ، فلما أكثر خرجت إليه فاختلفنا ضربتين ،
فصربه فضرعتهُ ، فنزلتُ لسلبه وأخذ رأسه ، فإذا امرأةٌ قد رأني حين قتلت
نافعاً ، فخرجتُ لتثار به ، فلم يزل الربيع الأجدم يقاتلهم نيتاً وعشرين يوماً ،
حتى قال يوماً : أنا مقتولٌ لامحالة ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأنني رأيت البارحة
كان يدي التي أصيبت بكابلٍ انحطت من السماء فاستشلتني ، فلما كان الغد قاتل
إلى الليل ، ثم غاداهم فقتل ، فتدافع أهل البصرة الراية حتى خافوا العطب ،
إذ لم يكن لهم رئيسٌ ، ثم أجمعوا على الجعاج بن بابٍ الحيري ، فأباهوا ، فقيل
له : ألا ترى أن رؤساء العرب بالحضرة ، وقد اختاروك من بينهم ؟! فقال :
مشؤومةٌ ، ما يأخذها أحدٌ إلا قتل ، ثم أخذها ، فلم يزل يقاتل الحوارج
بدؤلاب ، والحوارج أعدُّ بالآلات والدروع والجواشن ، فالتقى الجعاج بن
بابٍ وعمران بن الحُرث الراسبي ، وذلك بعد أن اقتتلوا زهاء شهرٍ ، فاختلفا
ضربتين ، فسقطا ميتين ، فقالت أمُّ عمران تربيته :

اللهُ أبَدَ عمراناً وطهره وكان عمرانٌ يدعو الله في السَّحر
يدعوه مرّاً وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيديّ ملحadeٍ غُدَرِ
وليّ صحابته عن حرٍّ ملحمةٍ وشدَّ عمران كالضَّرغامة المَصْرِ

قول الربيع « استشلتني » أي : أخذتني إليها واستغذتني . يقال « استشلاه
واشلاه » وفي الحديث « أن السارق إذا قطع سبقة يده إلى النار ، فإن تاب
استشلاه » . وقال رؤبة :

إنَّ سليمان اشتلتا ابن علي . وقول الناس « أَشْلَيْتُ كَلْبِي » أي أغريته بالصيد ، خطأ ، إنما يقال « آسَدْتُهُ » . و « أَشْلَيْتُهُ » ، دعوته .

وقولها « يدي ملحاة » ، « مفعال » من الإلحاد ، كما يقول : رجل معطاء يافتي ، ومحسان ، ومكرام ، وأدخلت الماء للبالغة ، وكما تدخل في رواية وعلامة ونسابة .

« وغدر » ، « فَعَلَ » من الغدر ، وفعل باب تذكيره في عقب هذه القصة ، إذا فرغنا من خبر هذه الواقعة .

و « الضَّرْغامة » من أسماء الأسد .

و « المَصْرُ » الذي يصر كل شيء ، أي يثنيه ، قال امرؤ القيس :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

ولذكرنا الصَّفْرية والأزارقة والبيهية والإباضية تفسير ، لم نسب إلى ابن الأزرق بالأزارقة ، وإلى أبي ييسر بالكنية المضاف إليها ، ونسب إلى صفر . ولم ينسب إلى واحد ، ونسب إلى ابن إباض فجعل النسب إلى أبيه ؟ وهذا تذكره بعد باب « فعل » ، إن شاء الله .

قال أبو العباس : ومما قيل من الشعر في يوم دولاب قول قطري :

لعمرك إني في الحياة لزامد	وفي العيش نالم ألق أم حكيم
من الحفريات البيض لم ير مثلها	شفاء لذي بث ولا لسقيم
لعمرك إني يوم أطم وجهها	على نائبات الدهر جد لثيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الحيل نحو نعيم
وكان لعبد القيس أول جدّها	وأحلافها من محصب وسليم

وظلت شيوخُ الأزدي حومة الوغى تعوم وظلنا في الجلالِ نعوم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً يمجُّ دماً من فاضلٍ وكليم
وزاربه خدّاً كريماً على فتى أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولابٍ ولم تكُ موطناً له أرض دولابٍ ودير حمير
فلو شهدتا يوم ذاك وخيلنا تيسح من الكفار كل حريم
رأت قيةً باعوا الإله نفوسهم بجناتٍ عدنٍ عنده ونعيم

قوله « ولو شهدتا يوم دولاب » فلم ينصرف « دولاب » ، وإنما ذاك لأنه أراد البلدة ، و « دولاب » أعجميٌّ معربٌ . وكلُّ ما كان من الأسماء الأعجمية نكرة بغير الألف واللام فإذا دخلته الألف واللام فقد صار معرباً ، وصار على قياس الأسماء العربية ، لا يمنع من الصرف إلا ما يمنع العربيّ ، فدولاب « فوعال » مثل طومارٍ وسولافٍ . وكلُّ شيءٍ لا يخصُّ واحداً من الجنس من غيره فهو نكرة نحو رجلٍ ، لأن هذا الاسم يلحق كلَّ ما كان على بنيته ، وكذلك حملٌ وجبلٌ وما أشبه ذلك . فإن وقع الاسم في كلام العجم معرفةً فلا سبيل إلى إدخال الألف واللام عليه ، لأنه معرفةٌ ، فلا معنى لتعريف آخر فيه ، فذلك غير منصرفٍ ، نحو « فرعون » و « هامان » و « قارون » وكذلك « إسحق » و « إبراهيم » و « يعقوب » .

وقوله « غداة طفت علماء بكر بن وائل » وهو يريد : على الماء ، فإن العرب إذا التقت في مثل هذا الموضع لآمان استجازوا حذف أحدهما استقلالاً للتضعيف ، لأن ما بقي دليلٌ على ما حذف ، يقولون « علماء بنو فلان » كما قال الفرزدق :

وما سبق القيسي من ضعف حيلةٍ ولكن طفت علماء قلقة خالد
وكذلك كلُّ اسمٍ من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة فإنهم يجيزون معه حذف النون التي في قولك « بنو » لقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلانٌ من « بلحرت » و « بلعنبر » و « بلهجير » .

وقال آخر من الحوارج :

يرى من جاء ينظر من دجيل
وقال رجل منهم :

سُميت ابن بدرٍ والحوادث جمةٌ
والموت حتمٌ لاحالة واقعٌ
فلئن أميرَ المؤمنين أصابه
نصب بعد « إن » ، لان حرف الجزاء للفعل ، فإنما أراد : فلئن أصاب أمير المؤمنين ، فلما حذف هذا الفعل وأضمر ، ذكر « أصابه » ليدل عليه ، ومثله قول النمر بن تولب :

لا تجزعي أنْ متفساً أهلكته
وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغتْهُ
فقامَ بفأسٍ بينَ وصليكَ جازوُ
لان « إذا » لا يليها الا الفعل ، وهي به أولى .
هذا باب « فَعَلَ »

اعلم أن كل اسم على مثال « فعل » فهو مصروف في المعرفة والتكرة ، إذا كان اسماً أصلياً أو نعتاً ، فالأسماء نحو : صردٍ ونغريٍّ وجعلٍ ، وكذلك إن كان جمعاً ، نحو : ظلمٍ وغرفٍ . وإن سُميت بشيءٍ من هذا رجلاً انصرف في المعرفة والتكرة ، وأما النعت فنحو رجلٍ حطمٍ ، كما قال :
قد لقيها الليلُ بسواقٍ حطمٍ .

وكذلك مالٌ لبدٌ ، وهو الكثير ، من قوله جلّ جلاله : (أهلكته مالاً لبداً) .

فإن كان الاسم على « فَعَلَ » معدولاً عن « فاعِلٍ » لم ينصرف إذا كان اسمَ رجلٍ في المعرفة ، وينصرف في التكرة ، وذلك نحو : صرّ وقمّ ، لأنه معدول عن عامرٍ ، وهو الاسم الجاري على الفعل ، فهذا ما معرفته قبل تكرره ،

فإذا أُريد به منعب المعرفة جاز أن تبنيه في النداء من كل فعلٍ (فَعَلَ) ،
لأن المتأدى مشار إليه ، وذلك قولك : يافسق ، وياخبت ، تريدُ : يافاسقُ
وياخيتُ .

وإنما قالت « بيدي ملحادة غدر » في غير النداء للضرورة ، فنقلته معرفة من
النداء ، ثم جعلته نكرةً لخروجه عن الإشارة ، فنعتت به « ملحادة » كما
قال الخطيئة :

أجول ما أجول ثم آوي إلى بيتٍ قعيدته لكاع

وهذا لا يقع إلا في النداء ، ولكن للشاعر نقله نكرةً ونقله معرفةً ، على
حد ما كان له في النداء . فيلحق قولها « غدر » بقوله رجلٌ حطمٌ ، ومالٌ لبدٌ ،
وما أشبه . و « فعال » في المؤنث بمنزلة « فَعَلَ » في المذكر ، ولو سميت
رجلاً « حطماً » لصرفته ، من قولك : هذا سائقٌ حطمٌ ، لأنه قد وقع نكرةً
غير معدولٍ ، فهو في النعوت بمنزلة « صردٍ » في الأسماء .

هذا باب النسب إلى المضاف

اعلم أنك إذا نسبت إلى علمٍ مضافٍ فالوجه أن تنسب إلى الاسم الأول ،
وذلك قولك في عبد القيس « عدي » وكذلك في عبد الله بن ذارم . فإن
كان الاسم الثاني أشهر من الأول جاز النسب إليه ، لتلايقع في النسب التباس
من اسم باسمٍ ، وذلك قولك في النسب إلى عبد مناف « منافي » وإلى أبي
بكر بن كلاب « بكري » . وقد يجوز ، وهو قليل ، أن تبني له من الاسمين
اسماً على مثال الأربعة لينتظم النسب ، وذلك قولك في النسب إلى عبد الدار بن
قصي « عبدري » وفي النسب إلى عبد القيس « عقي » .

فإن كان المضاف غير علمٍ فالنسب إلى الثاني على كل حال ، وذلك قولك
في النسب إلى ابن الزبير « زييري » لأن ابن الزبير إنما صار معرفةً بالزبير ،

وكذلك النسب إلى ابن رالان « رالاني » . فذلك قالوا في النسب إلى ابن الأزرق « أزرق » ، وإلى أبي بهس « بهسي » .

فأما قولهم « صفري » ، فلما أرادوا الصفر الألوان ، فنسبوا إلى الجماعة ، وحق الجماعة إذا نسب إليها أن يقع النسب إلى واحد ، كقولك « مهلي » ، و « مسمعي » ، ولكن جعلوا « صفراً » اسماً للجماعة ، ثم نسبوا إليه ، ولم يقولوا « أصفري » ، فينسب إلى واحد ، وإنما كان ذلك لأنهم جعلوا الصفر اسماً للجماعة ، كما تسمى القبيلة بالاسم الواحد ، ألا ترى أن النسب إلى الأنصار « أنصاري » ، لأنه كان علماً للقبيلة ، وكذلك « مدائني » . وتقول في النسب إلى الأبناء من بني سعد « أبناوي » ، لأنه اسم للجماعة .

فأما قولهم « الأزارقة » ، فهذا باب من النسب آخر ، وهو أن يسمى كل واحد منهم باسم الأب ، إذا كانوا إليه ينسبون ، ونظيره « المهالبة » ، و « المساعة » ، و « المناذرة » . ويقولون : جاءني النميرون والاشعرون ، جعل كل واحد منهم ميماً وأشعر ، فهذا يتصل في القبائل على ما ذكرت لك .

وقد تنسب الجماعة إلى الواحد على رأي أو دين ، فيكون له مثل نسب الولادة ، كما قالوا « أزرق » ، لمن كان على رأي ابن الأزرق . كما تقول تميمي وقبيلي لمن ولده تميم وقيس ، ومن قرأ (سلام على إلياسين) فلما يريد إلياس عليه السلام ومن كان على دينه ، كما قال :

قدني من نصر الحيين قد

يريد أبا خبيب ومن معه .

وقد يجتمع الرجل مع الرجل في التثنية إذا كان مجازهما واحداً في أكثر الأمر على لفظ أحدهما ، فمن ذلك قولهم « العمران » ، لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ومن ذلك قولهم « الحيين » ، لعبد الله ومعصب ، وقد مضى تفسيره .

عاد اتقول في الخوارج

قال : والازارقة لا تكفر أحدًا من أهل مقاتلها في دار الهجرة إلا القاتل رجلاً مسلماً ، فإنهم يقولون : المسلم حبة الله ، والقاتل قصد لقطع الحبة .

ويروى أن نافعاً مرّ بمالك بن مسمع في الحرب التي كانت بين الأزد وربيعة وبني تميم ، ونافع متقلد سيفاً ، فقام إليه مالك فضرب يده إلى حمالة سيفه . وقال : ألا تتصرنا في حربنا هذه ؟ ! فقال : لا يحل لي ، قال : فما بال مؤمني بني تميم ينصرون كفارهم في هذه الحرب ؟ ! فأمسك عنه ، وخرج بعد ذلك بأيام إلى الأهواز ، فلما قتل من قتل من بخازر من الخوارج في أيام ابن الماحوز كرهه بيّة القتال ، وأقام حارثه بن بدر الغداني يازاء الخوارج ، يناوشهم على غير ولاية ، وكان يقول : ماعدننا عند إخواننا من أهل البصرة إن وصل إليهم الخوارج ونحن دونهم ؟ فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير يخبرونه بقعود بيّة ، ويسألونه أن يولي والياً ، فكتب إلى أنس بن مالك أن يصلي بالناس ، فصلى بهم أربعين يوماً ، وكتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر فولاه البصرة ، فلقبه الكتاب وهو يريد الحج ، وهو في بعض الطريق ، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، ولقيه حارثة فيمن كان معه ، وعبيد الله الماحوز في الخوارج بسوق الأهواز ، فلما عبروا إليهم دُجّيلاً نهض إليهم الخوارج ، وذلك قيل الظُّهر ، فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أمّا الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة (بن بدر) : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم والله لا أتعدى حتى أناجزهم ! فقال له حارثة بن بدر : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف ، فأبقى على نفسك وجندك ، فقال : أيتهم يا أهل العراق إلا جبناً ! وأنت يا حارثة ! ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم ! يعرض له بالشراب ! فغضب حارثة فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس فأجلت الحرب عنه قليلاً ، وانهمز الناس ، وأخذ حارثة

الراية ، وصاح بالناس : أنا حارثة بن بدر ، فتاب إليه قومه ، فعبو بهم
 دجيلاً ، وبلغ فلُ عثمان البصرة ، وخاف الناسُ الحوارج خوفاً شديداً ، وعزل
 ابن الزبير عمر بن عبيد الله ، وولى الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، المعروف
 بالقباع ، أحد بني مخزوم ، وهو أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي
 الشاعر ، فقدم البصرة ، فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد ، فأراد
 أن يوليه ، فقال له رجلٌ من بكر بن وائل : إن حارثة ليس بذلك ، إنما
 هو صاحبُ شراب ، وفيه يقولُ رجلٌ من قومه :

ألم تر أنَّ حارثة بن بدرٍ يُبصلي وهو أكفرُ من حمارِ
 ألم تر أنَّ للفتيان حظاً وحظُّك في البغايا والقمارِ

فكتب إليه القباع : تكفى حريم إن شاء الله . فأقام حارثة يدافعهم ، فقال
 شاعرٌ من بني تميم يذكر عثمان بن عبيد الله بن معمر ومسلم بن عيسى وحارثة
 بن بدر :

مضى ابنُ عيسى صلياً غير عاجزٍ وأعقبنا هذا الجعازيُّ عثمانُ
 فأرعد من قبل اللقاء ابن معمرٍ وأبرق وأبرقُ اليائيُّ خوانُ
 فضحت قريشاً عنها وسمينها وقيل بنو تميم بن مرة عُزلانُ
 فلولا ابن بدرٍ للعراقيين لم يقم بما قام فيه للعراقيين إنسانُ
 إذا قيل من حامي الحقيقة أومات إليه معدٌ بالأنوفِ وقطانُ

* * *

قوله « فأرعد » زعم الأصمعي أنه مخطأ ، وأن الكمية أخطأ في قوله :

أرعد وأبرق يَزيدُ فما وعيدُك لي بضائر

وزعم أن هذا البيت الذي يروي للمهمل مضموعٌ محدثٌ ، وهو قوله :

أنبضوا معبوس نفسي وأيرة نسا كما ترعد الفحول للفحولا

وأنه لا يقال إلا « رعد وبرق » إذا أوعد وتهدد ! وهو « يردد ويبرق » وكذا يقال « رعدت السماء وبرقت » و « أرعدنا نحن وأبرقنا » إذا دخلنا في الرعد والبرق ، قال الشاعر :

• فقل لأبي قابوس ما شئت فارعد •

وروى غير الأصمعي « أرعد وأبرق » على ضعف •

وقوله « والبرق الباني خوان » يريد : والبرق الباني يخون • وأجود النسب إلى اليمن « بني » ويجوز « يان » بتخفيف الياء ، وهو حسن ، وهو في أكثر الكلام ، تكون الألف عوضاً من إحدى الياءين ، ويجوز « ياني » فاعلم ، تكون الألف زائدة وتشدد الياء ، قال العباس بن عبد المطلب :

ضربناهم ضرب الاحامس غدوة بكل ياني إذا هز صمًا

ثم إن حارثة لما تفرق الناس عنه أقام بنهر تيرى ، فعبرت إليه الخوارج ، فهرب وأصحابه يرتكضون ، حتى أتى دُجَيْلاً ، فجلس في سفينة ، واتبعه جماعة من أصحابه ، فكانوا معه ، وأتاه رجل من بني تميم وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه وقد توسط حارثة ، فصاح به : يا حارث ! ليس مثلي ضييع ، فقال للملاح : قرب : ف قرب إلى جرف ، ولا فرصة هناك ، فظفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعاً . وأقام ابن الماحوز يجي كور الأهواز ثلاثة أشهر ، ثم وجه الزبير بن علي نحو البصرة فصج الناس إلى الأحنف ، فأتى القُباع فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيتنا ، فلم يبق إلا أن يحصرنا في بلدنا حتى نغوت هزلاً ، قال : فسموا رجلاً ، فقال الأحنف : الرأي لا يخيل ، ما أرى لما إلا المهلب بن أبي صفرة ، فقال : أو هذا رأي جميع أهل البصرة ؟ اجتمعوا إلي في غدي ، وجاء الزبير حتى نزل الفرات ، وعقد الجسر لعبور إلى ناحية البصرة ، فخرج أكثر أهل

البصرة إليه ، وقد اجتمع للخوارج أهل الأهواز وكورها ، رغبة ورهبة ، فأتاه البصريون في السفن وعلى الدواب ورجالة ، فاسودت بهم الأرض ، فقال الزبير لما رآهم : أبي قومنا إلا كفراً ، فقطعوا الجسر وأقام الخوارج بالفرات يباينهم ، واجتمع الناس عند القباع ، وخافوا الخوارج خوفاً شديداً ، وكانوا ثلاث فرق ، فسمى قوم المهلب ، وسمى قوم مالك بن مسمع ، وسمى قوم زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي ، فصرههم ، ثم اختبر ما عند مالك بن مسمع وزاد ، فوجدهما متناقلين عن ذلك ، وعاد إليه من أشار بها وقالوا : قد رجعنا عن رأينا ، مانوى لها إلا المهلب ، فوجه الحُرثُ إليه فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيد ! قد ترى ما رهقنا من هذا العدو ، وقد اجتمع أهل مصرك عليك ، وقال الأحنف : يا أبا سعيد ! إننا والله ما آثرناك بها ولكننا لم نرَ من يقوم لها مقامك ، فقال له الحُرثُ - وأوماً إلى الأحنف - : إن هذا الشيخ لم يسمك إلا إثارةً للدين ، وكلُّ من في مصرك ماذٍ عنه إليك ، راجع أنت يكشف الله عز وجل هذه الغمة بك ، فقال المهلب : لاحول ولا قوة إلا بالله ، إني عند نفسي لدون ما وصفتم ، ولستُ آيياً مادعوتم إليه على شروطٍ أشرطها ، قال الأحنف : قل ، قال : على أن أنتخب من أحببتُ ، قال : ذاك لك ، قال : ولي إمرة كل بلد أغلبُ عليه ، قال : وذاك لك ، قال : ولي في كل بلد أظفرُ به ، قال الأحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ، إنما هو فيء المسلمين ، فإن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوهم ، ولكن لك أن تُعطي أصحابك من فيء كل بلد تغلبُ عليه ما شئت ، وتتفق منه ما شئت على محاربة عدوك ، فما فضل عنكم كان للمسلمين ، فقال المهلب : فمن لي بذلك ؟ قال الأحنف : نحن وأميرك وجماعة أهل مصرك ، قال : قد قبِلْتُ ، فكتبوا بذلك كتاباً ووضع على يدي الصلّة بن حريث بن جابر الحنفي ، وانتخب المهلبُ من جميع الأخماس ، فبلغت نخبته اثني عشر ألفاً ، ونظروا ما في بيت المال ، فلم يكن إلا مائتي ألف درهم ، فعجزت ، فبعث المهلب إلى التجار فقال : إن تجارتكم منذ حولٍ قد كسدت عليكم بانقطاع مواد الأهواز وفارس

عنكم ، فلم فبايعوني واخرجوا معي أوفكم إن شاء الله حقوقكم ، فتأجروه ،
 فأخذ من المال ما يصلح به عسكره ، واتخذ لأصحابه الخفاتين والرائات المحشوة
 بالصوف ، ثم نهض وأكثر أصحابه رجالة ، حتى إذا صار بجذاء القوم أمر
 بسفن فأحضرت وأصلحت ، فما ارتفع النهار حتى فرغ منها ، ثم أمر الناس
 بالعبور إلى الفرات ، وأمر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قاربوا
 الشاطئ خاضت إليهم الخوارج ، فحاربهم المغيرة ، ونضحهم بالسهم حتى تنحوا ،
 فصار هو وأصحابه على الشاطئ ، فحاربوهم فكشفوهم وشغلوهم ، حتى عقد المهلب
 الجسر ، وعبر الخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم . ففي ذلك يقول
 شاعر من الأزد :

إنَّ العِراقَ وأهلَهُ لمَ يَخبِروا مثلَ المهلبِ في الحروبِ فسَلِّموا
 أمضى وأمينَ في اللقاءِ نقيَّةً وأقلَّ تهليلاً إذا ما أحجموا
 « التهليل » ، التكذيبُ والانزِهامُ .

وأبلى مع المغيرة يومئذٍ عطيةُ بن عمرو العبديُّ ، وكان من فرسان بني
 تميم وشجعانهم ، فقال عطيةُ :

يُدعى رجالٌ للعطاءِ وإنما يُدعى عطيةُ للطعانِ الأجرد
 وقال الشاعرُ :

وما فارسٌ إلا عطيةُ فوقه إذا الحربُ أبدت عن نواجذها الفها
 به هزَمَ اللهُ الازارقَ بعدما أباحوا من المصرين حِللاً ومحرماً

* * *

فأقام المهلبُ أربعين يوماً يجبي الخراجَ بكور دجلة ، والخوارجُ بنهر تيرى ،
 والزييرُ بن عليٍّ منفردٌ بعسكره عن عسكر ابن الماحوز ، ففضى المهلبُ التجار
 وأعطى أصحابه ، فأسرع إليه الناسُ رغبةً في مجاهدة الخوارج ، ولما في الغنائم
 وللتجارات ، فكان فيمن أنه محمد بن واسع الأزدي وعبدُ الله بن رباح ومعاوية
 ابن قرة المزني ، وكان يقول - يعني معاوية - : لو جاء الدَّيْلَم من ههنا والحروية

من ههنا ، لحاربت الحورية ، وأبو عمران الجوني ، وكان يقول : كان كعب يقول :
قتل الحورية بفضل قتل غيرم بعشرة أنوار ، ثم نهض الملب إليهم إلى نهر تيرى ،
فتنحوا عنه إلى الأهواز ، وأقام الملب يحيى ما حوالبه من الكور ، وقد دس الجواسيس
إلى عسكر الخوارج ، فأتوه بأخبارهم ومن في عسكرهم ، فإذا حشوة ما بين
قصارٍ وصباغٍ وداعرٍ وحدادٍ ، فخطب الملب الناس ، فذكر من هناك ،
وقال للناس : أئمل هؤلاء يغلبونكم على فيثكم ؟! فلم يزل مقيماً حتى فهمهم
وأحكم أمره وقوى أصحابه ، وكثرت الفرسان في عسكره ، وتنام إليه
زهاء عشرين ألفاً ، ثم مضى يؤم سوق الأهواز ، فاستخلف أخاه الممارك بن
أبي صفرة على نهر تيرى ، وفي مقدمته المغيرة بن الملب ، حتى قاربهم المغيرة
فتناوشوه ، فأنكشف عنه بعض أصحابه ، وثبت المغيرة بقية يومه وليته ، برقد
النيران ، ثم غاداهم القتال ، فإذا القوم قد أوقدوا النيران في ثقلة متاعهم ،
وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل الخيل خيل
الملب ، فأقام يسوق الأهواز ، وكب بذلك إلى الحارث بن عبد الله بن أبي
ربيعة كتاباً يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإننا منذ خرجنا تؤم هذا العدو في
نعم من الله متصلة علينا ، وتقمة من الله متابعة عليهم ، نقدم ويجمعون ،
ونخل ويوتحلون ، إلى أن حللنا سوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين ، الذي
من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم .

فكتب إليه الحارث : هنيئاً لك أخا الأزد الشرف في الدنيا ، والذخر في
الآخرة ، إن شاء الله .

فقال الملب لأصحابه : ما أجفى أهل الحجاز ! أما ترونه يعرف اسمي
واسم أبي وكنيتي ؟!

وكان الملب : بيت الأحراس في الأمن ، كما يبتهم في الخوف ، ويذكي
العيون في الأمصار ، كما يذكها في الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحريز ، ويخوفهم

اليات ، وإن بعد منهم العدو ، ويقول : احذروا أن تُكادوا كما تُكيدون ، ولا تقولوا هُزِمنا وغلبنا ، فإن القوم خائفون وجلون ، والضرورة تُفتحُ بابَ الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً فقال :

يا أيها الناس ! إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قدروا عليكم فتوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلوهم على ما قاتلَ عليه أولهم عليُّ ابن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد لقيهم قبلكم الصابرُ المحتسبُ مسلمُ بن عيسى ، والعجلُ المفرطُ عثمانُ بن عبيد الله ، والمعصيُ الخالفُ حارثةُ بن بدر ، فقتلوا جميعاً وقتلوا ، فالقومُ مجديّ وحدثي ، فلما هم مهتكم وعبيدكم ، وعارٌ عليكم ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيسكم ، ويطؤوا حريمكم .

ثم سار يريدُهم ، وهم بمنافر الصُغرى ، فوجه عبيد الله بن بشر بن الماحوز رئيس الخوارج رجلاً يقال له واقدٌ ، مولى لآل أبي صفرة من سبي الجاهلية ، في خمسين رجلاً ، قيهم صالح بن خرقاء ، إلى نهر تيرى ، وبها المعاركُ بن أبي صفرة ، فقتلوه وصلبوه ، فتمى الخبرُ إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تيرى وقد خرج واقدٌ منها ، فاستنزه ودفعه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ، ورجع إلى أبيه وقد حل بسولاف ، والخوارجُ بها ، فواقعهم ، وجعل على بني تميم الحريش بن هلال ، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلب ، يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحضُّ الناس وهو على فرسٍ له صفراء ، فجعل يأتي الميمنة والميسرة والقلب ، فيحضُّ الناس ويهونُ أمر الخوارج ، ويختال بين الصفين ، فقال رجلٌ من الخوارج لأصحابه : يامعشر المهاجرين ! هل لكم في فتكةٍ فيها أرمحيةٌ ؟ فجعل جماعةٌ منهم على الإسكاف ، فقاتلهم وحده فارساً ، ثم كبا به فرسه ، فقاتلهم راجلاً ، قائماً وباركاً ، ثم كثرت به الجراحات ، فذبَّ بسيفه ، وجعل يحثر التراب في وجوههم ، والمهلب غيرُ حاضرٍ ، ثم قتل رحمه الله ، وحضر المهلب فأخبر ، فقال للحريش وعطية العنبري : آأسلتما سيد أهل العسكر ، لم تُعيناه ولم تستنقذاه ، حسداً له ، لأنه رجل من الموالي ؟ ! ووبخها ، وحمل

رجلٌ من الحوارج على رجل من أصحابه فقتله ، فحمل عليه المهلب فطعنه وقتله ،
ومال الحوارج بأجمعهم على العسكر ، فانهزم الناس ، وقتلوا سبعين رجلاً ، وثبت
المهلبُ ، وأبلى المغيرةُ يومئذ وعُرف مكانه . ويقال : حاص المهلبُ يومئذٍ
حصةً . وتقول الأزدُ : بل كان يرد المنزومة ويحمي أديارهم ، فقال رجلٌ من
بني منقر بن عبيد بن الحرث بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم :

بسولافٍ أضعتَ دماءَ قومي وطرتَ على مُواشكةٍ درور

قوله «مواشكة» يريد سريعة . ويقال : نحنُ على وشك رحيلٍ . ويقال :
ذميلٌ مواشكٌ ، إذا كان سريعاً . قال ذو الرُّمة :

إذا ما رمينا رميةً في مفازةٍ عراقيةا بالشيظميّ المواشك

و «درور» فَعولٌ من درَّ الشيءُ : إذا تتابع .

وقال رجلٌ من بني تميم آخرُ :

تبعا الأعور الكذاب طوعاً يُزجّي كلُّ أربعة حماراً
فياندي على تركي عطائي مُعابنةً وأطلبُهُ ضماراً
إذا الرَّحْمَنُ يَسُرُّ لي قفولاً فحرّق في قُرى سولاف ناراً

قوله : «الأعور الكذاب» يعني المهلب ، ويقال عارت عينه بسهمٍ كان
أصابها . وقال «الكذاب» لأن المهلب كان فقيهاً ، وكان يعلم ما جاء عن رسول
الله ﷺ من قوله : « كل كذبٍ يكتبُ كذباً الا ثلاثة : الكذب في الصلح
بين الرجلين ، وكذب الرجل لامرأته بعدها ، وكذب الرجل في الحرب يتوعدُ
ويتهددُ » ، وجاء عنه ﷺ : « إنما أنت رجلٌ » ، فخذل عنا ، فأثما الحربُ
خدعةً . وقال عليه السلام في حرب الخندق لسعد بن عباد وسعد بن معاذ ،
وهما سيّدا الحين الخرج والأوس : « ايّنا بني قريظة » ، فان كانوا على العهد
فأعلنّا بذلك ، وان كانوا قد نقضوا ما بيننا فالحنائي لحاً أعرفه ، ولا تقتنا في
أعضاء المسلمين ، فرجعا بغدر القوم فقالا : يا رسول الله عضّل والقارة ، قال :

فقال رسول الله ﷺ للمسلمين : « ابشروا فإن الأمر ما تحبّون » . قال الأخفش : سألت المبرد عن قولهما « عضلٌ والقارة » فقال : هذان حيّانٌ كانا في نهاية العداوة لرسول الله ﷺ ، فأرادا أنهم في الانحراف عنه والغدر به ككاهنتين القيلتين .

قال أبو العباس : فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين ويضعف من أمر الخوارج ، فكان حيّاً من الأزدي يقال لهم التّدبُّ إذا رأوا المهلب رائحاً اليهم قالوا : قد راح المهلب ليكذب : وفيه يقول رجلٌ منهم :
أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقول

★ ★ ★

فبات المهلب في ألفين ، فلما أصبح رجع بعض المنهزمة فصار في أربعة آلاف ، فخطب أصحابه فقال : والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع والطبع ، فإن يسكن قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله فسيروا إلى عدوكم على بركة الله . فقام إليه الحريش بن هلال فقال : أنشدك الله - أيها الأمير - أن تقاتلهم إلا أن يقاتلوك ، فإن بالقوم جراحاً وقد أثختهم هذه الجولة ، فقبل منه ، ومضى المهلب في عشرةٍ فأشرف على عسكر الخوارج ، فلم ير منهم أحداً يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا الموضع ، فارتحل ، فعبر دجيلةً ، وصار إلى عاقولٍ لا يؤتى إلا من وجهٍ واحد ، فأقام به ، واستراح الناس ثلاثاً ، وقال ابن قيس الرقيات :

ألا طرقت من آل بية طارقة	على أنها معشوقة الدّل عاشقه
تبيت وأرض السّوس بيني وبينها	وسولاف رستاق حمته الأزارقة
إذا نحن شئنا صادقتنا عصابة	حرووية أضعت من الدّين مارقه
أجازت إلينا العسكرين كليهما	فباتت لنا دون اللحاف معانقه

وقد ذكرنا « الضَّمار » ومعناه الغائب ، وأصله من قولك « أضمرت الشيء »
أي أخفيت عنه ، ويقال : مالٌ عَيْنٌ ، للحاضر ، ومالٌ ضَمَارٌ ، للغائب ،
قال الأعشى :

ومن لا تَضِعْ له ذِمَّةً فيجعلها بعد عَيْنِ ضَمَاراً
وقال أيضاً :

تَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتَكَ الْبَلَا دُنْجَفَى وَتَقَطَعَ مِنَّا الرَّحِمُ

والفعل من هذا « أَضْمَرَ يُضْمِرُ » والمفعول به « مَضْمَرٌ » ، والفاعل « مَضْمِرٌ »
و « الضَّمار » اسمٌ للفعل في معنى الإضمار . وأسماء الأفعالِ تشركُ المصادر في
معانيها ، تقول : أعطيتُه عطاءً ، فيشرك العطاء الإعطاء في معناه ، ويسمى به
المفعول . وتقول : كلمته تكليماً وكلاماً ، في معناه ، والمصدر يُنعت به الفاعل
في قولك : رجلٌ عدلٌ ، ورجلٌ كرمٌ ، ورجلٌ نوَمٌ ، ويومٌ غمٌ وغيمٌ ،
وينعت به المفعول في قولك : رجلٌ رضى ، وهذا درهمٌ ضرب الأمير ، وجاءني
الخلق ، تعني المخلوقين .

وقال رجلٌ من الحوارج في ذلك اليوم :

وكأئنُ تركنا يوم سولافَ منهم أسارى وقتلى في الجحيم مَصِيرها

قوله « وكأئنُ » معناه : كم ، وأصله كاف التشبيه دخلت على « أيّ » ،
فصارنا بمنزلة كم ، ونظير ذلك : له كذا وكذا درهماً ، إنما هي « ذا » دخلت
عليها الكاف ، والمعنى : له كهذا العدد من الدراهم . فإذا قال : له كذا كذا
درهماً ، فهو كناية عن أحد عشر درهماً إلى تسعة عشر ، لأنه ضمّ العدين ،
فإذا قال : كذا وكذا ، فهو كناية عن أحدٍ وعشرين درهماً إلى ما جاز فيه
العطف بعده . ولكن كثرت « كأيّ » ، فخففت ، والتثقيل الأصل ، قال الله
تعالى : (وكأيّ من قريةٍ أملت لها وهي ظالمةٌ) ، (وكأيّ من نبيٍّ قاتل
معه ربّيون كثيرٌ) وقد قرئ بالتخفيف ، كما قال الشاعر :

وكأى رددنا عنكم من مدجج
يحيى أمام الألف يردي مقتعاً
وقال آخر :

وكأى ترى يوم الغميصاء من فتى
أصيب ولم يجرح وقد كان جارحاً
قال أبو العباس : وهذا أكثر على ألسنتهم ، لطلب التخفيف ، وذلك الأصل ،
وبعض العرب يقلب فيقول « كىء يافتى » فيؤخر الهزمة لكثرة الاستعمال ،
قال الشاعر :

وكىء في بني دودان منهم
غداة الرّوع معروفاً كميّ

* * *

قال أبو العباس : فأقام الملب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ، ثم ارتحل
والخوارج بلسى وسليرى. قال الاخفش « سلى » و« سليرى » بفتح السين فيها ،
موضعان بالاهواز ، « وسلى » بكسر السين موضعٌ بالبادية ، وهكذا ينشد
هذا البيت :

كان غديرهم يجنوب سلى
نعام قاق في بلد قفار

فزل قريباً منهم ، فقال ابن الماحوز لأصحابه : ما تنتظرون بعدوكم وقد
هزمتهم بالأمس وكسرتهم حدّهم ؟ فقال له وأفدّ مولى أبي صفرة : يا أمير
المؤمنين ! إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجبين ، وبقي أهل النجدة والقوة ، فإن
أصبتهم لم يكن ظفراً هنيئاً ، لاني أراهم لا يصابون حتى يصبوا ، فإن غلبوا
ذهب الدين ، فقال أصحابه : نافتق وافدّ ! فقال ابن الماحوز : لاتعجلوا على
أخيك ، فإنه إنما قال هذا نظراً لكم . ثم توجه الزبير بن عليّ إلى عسكر الملب
لينظر ما حالهم ، فأتاهم في مائتين ، فحزروهم ورجع ، وأمر الملب أصحابه بالتحارس ،
حتى إذا أصبح ركب إليهم على تعبئة صحيحة ، فالتقوا بلسى وسليرى فتصافوا ،
فخرج من الخوارج مائة فارس ، فركزوا رماحهم بين الصفيين وانكثوا
عليها ، وأخرج إليهم الملب عدادهم ، ففعلوا مثل ما فعلوا ، لا يرمون إلا لصلاة
حتى أمسوا ، فرجع كل قوم إلى معسكرهم ، ففعلوا هذا ثلاثة أيام .

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث ، فحمل عليهم هؤلاء الفرسان

يجولون ساعة ، ثم إن رجلاً من الحوارج حمل على رجل فـطـعنه ، فحمل عليه المهلب فـطـعنه ، فحمل الحوارج بأجمعهم ، كما صنعوا يوم سولاف ، فضعضوا الناس ، وفقد المهلب ، وثبت المغيرة في جميع أكثرهم أهل عمان ، ثم نجم المهلب في مائة فارس ، وقد انغمست كفتاه في الدم ، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المخفر محشوة قرآ ، وقد تمزقت ، وإن حشوها ليطاير ، وهو يلهث ، وذلك في وقت الظَّهر ، فلم يزل يحاربهم الى الليل ، حتى كثر القتل في الفريقين . فلما كان الغد غاداهم ، وقد كان وجهه بالامس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن فهم بن الازد ، يردُّ المنهزمين ، فمر به عامر بن مسمع فردّه ، فقال : إن الأمير أذن لي ، فبعث إلى المهلب فأعلمه ، فقال : دعه ، فلا حاجة لي في مثله من أهل الجبن والضعف . وقد تفرق أكثر الناس ، فغاداهم المهلب في ثلاثة آلاف ، وقال لأصحابه : ما بكم من قلة ، أيعجز أحدكم أن يرمي برمح ثم يتقدم فيأخذه ؟ ففعل ذلك رجل من كندة يقال له عياش وقال المهلب لأصحابه : أعدوا محالي فيها حجارة وارموا بها في وقت الغفلة ، فإنها تصدُّ الفارس وتصرع الراجل ، ففعلوا ، ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه ، يأمرهم بالجد والصبر ، ويطمعهم في العدو ، ففعل ، حتى مر بيني العدو ، من بني مالك بن حنظلة ، فضربوه ، فدعا المهلب بسيدهم ، وهو معاوية بن عمرو ، فجعل يركله برجله ، وهذا معروف في الازد ، فقال له أصلح الله الأمير ، أعفني من أم كيسان ، والرؤبة تسميها الازد أم كيسان . ثم حمل المهلب وحملوا ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فجهد الحوارج ، فنادى مناديهم : ألا إن المهلب قد قتل ، فركب المهلب برذوناً قصيراً أشهب ، وأقبل يركض بين الصفين ، وإن إحدى يديه لفي القباء وما يشعر بها ، وهو يصيح : أنا المهلب ، فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قتل ، وكل الناس مع العصر ، فصاح المهلب بابنه المغيرة : تقدم ، ففعل ، وصاح بذكوان مولاه : قدّم رايتك ، ففعل ، فقال له رجل من ولده : إنك تغرر بنفسك ، فذمره ، ثم صاح : يا بني تميم !

أَأْمُرُكُمْ فَتَعَصُونَنِي ؟! فتقدم وتقدم الناس ، واجتلدوا أشد جلاذ ، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحوز ، وانصرف الحوارج ، ولم يشعر المهلبُ بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوني رجلاً جلدًا يطوفُ في القتلِ ، فأشاروا عليه برجلٍ من جرمٍ ، وقالوا : إننا لم نَرِ رجلاً قطُّ أشد منه ، فطوّفَ ومعه النيران ، فجعل إذا مر بجريحٍ من الحوارج قال : كافرٌ وربُّ الكعبة ، فأجهز عليه ، وإذا مر بجريحٍ من المسلمين أمر بسقيه وحمله .

وأقام المهلب في عسكره يأمرهم بالاحتباس ، حتى إذا كان نصف الليل وجه رجلاً من اليمحمد - قال الأخفش : اليمحمد من الأزدي ، والحليلُ من بطن منهم يقال لهم الفراهيد ، والفرهودُ في الأصل الحملُ ، فإن نسبت إلى الحي قلت « فراهيدي » وإن نسبت إلى الحُمَْلان قلت « فرهودي » لاغيرُ - في عشرةٍ فصاروا إلى عسكر الحوارج ، فإذا القومُ قد تحملوا إلى أربّجان ، فرجع إلى المهلب فأعلمه ، فقال : أنا لهم الساعة أشدُّ خوفاً ، فاحذروا البيات .

• • •

قال أبو العباس : ويروى عن شعبة بن الحجاج أن المهلب قال لأصحابه يوماً : إن هؤلاء الحوارج قد ينسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات ، فإن كان ذلك فاجعلوا شعاركم حَمَ لا ينصرون ، فإن رسولَ الله ﷺ كان يأمرُ بها . ويروى : أنه كان شعار أصحابِ علي بن أبي طالب صلواتُ الله عليه .

فلما أصبح المهلب غدا على القتلى ، فأصاب ابن الماحوز فيهم ، ففي ذلك يقول رجلٌ من الحوارج :

بِـسْـلَى وسَلِيـرَى مِـصـارِعُ قَتِيـةٍ كِـرَامٍ وَجِـرْحَى لَمْ تَوْسِدْ خَدُودَهَا
وَقَالَ آخِرُ :

بِـسْـلَى وسَلِيـرَى مِـصـارِعُ قَتِيـةٍ كِـرَامٍ وَعِـقْرَى مِنْ كَيْتٍ وَمِنْ وَرْدٍ
وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ مَوَالِي الْمُهَلَّبِ : لَقَدْ صَرَعْتُ يَوْمَئِذٍ بِجَعْرِ وَاحِدٍ ثَلَاثَةً ، رَمَيْتُ بِهِ رَجُلًا فَأَصَبْتُ أَمْلَ أُذُنِهِ فَصَرَعْتُهُ ، ثُمَّ أَخَذْتُ الْحَبَرَ فَضَرَبْتُ بِهِ آخَرَ عَلَى هَامَتِهِ فَصَرَعْتُهُ ، ثُمَّ صَرَعْتُ بِهِ ثَلَاثًا .

وقال رجلٌ من الخوارج :

أنا بأحجارٍ ليقْتلنا بها وهل تقتل الأبطال ويحك بالحجر

وقال رجلٌ من أصحاب المهلب في يومِ سِليّ وسليرى وقتل ابن المالحوز :

ويومَ سِليّ وسليرى أحاط بهم منا صواعق ما تبقي ولا تنذر

حتى تركنا عُيْدَ الله مُتَجِدِّلاً كما تجددل جُدْعُ مالٍ منقعرٌ

قال أبو العباس : تقولُ العربُ « صاعقةٌ وصواعقٌ » وهو مذهبُ أهل

الحجازِ ، وبه نزل القرآنُ ، وبنو تميمٍ يقولون « صاقعةٌ وصواقِعُ » .

و « المنقعرُ » المنقلعُ من أصله . قال الله أصدقُ القائلين : (كأنهم

أعجازٌ نخلٍ منقერი) .

ويروى : أن رجلاً من الخوارج يوم سِليّ حمل على رجلٍ من أصحاب المهلب فقطعه ،

فلما خالطه الرمحُ صاح : يا أمّاه ! فصاح به المهلب : لا كثرَ اللهُ بِمثلِكَ المسلمين ،

فضحك الخارجيُّ وقال :

أمك خيرٌ لك مني صاحباً تسقيك محضاً وتعل رائباً

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه نكسَ

على قربوس مرجه وحمل من تحتها فبرأها بسيفه وأثر في أصحابها ، حتى تخرمت

الميمنة من أجله . وكان أشدَّ ما تكون الحربُ أشدَّ ما يكون تبساً ، فكان

المهلبُ يقولُ : ما شهد معي حرباً قط إلا رأيت البشري في وجهه .

وقال رجلٌ من الخوارج في هذا اليوم :

فإن تك قتلِي يوم سِليّ تابعت فكم غادرت أسيافنا من قُفار

غداة نكر المشرقة فيهم بولاف يوم المأزق المتلاحم

« المأزقُ » هو يوم تضايق الحرب . و « المتلاحمُ » نعت له . و « المشرقة »

السيف ، نسبت إلى المشارف من أرض الشام . وهو الموضع الملقب بموتة الذي

قتل به جعفر بن أبي طالب وأصحابه .

قال الأخفش : كانت المبرود لا يهزم « مودة » . ولم أسمعها من علمائنا إلا بالهمز () .

* * *

قال أبو العباس : فكتب المهلب إلى الحوث بن عبد الله بن أبي ربيعة القباع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإننا لقينا الأزارقة المارقة ، بجدي وجدي ، فكانت في الناس جولة ، ثم تاب أهل الحفاظ والصبر ، بنيات صادقة ، وأبدان شداد ، وسيوف حداد ، فأعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصلوا درة رماحنا ، وضرائب سيوفنا ، وقتل الله لميرم ابن الماحوز ، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها ، والسلام .

فكتب إليه القباع :

قد قرأت كتابك يا أخا الأزد ، فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها ، وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأجرها ، ورأيتك أوثق حصون المسلمين ، وهادئ أركان المشركين ، وأخا السياسة وذا الرياسة ، فاستدم الله بشكره ، يتم عليك نعمه ، والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يهتونه ، ولم يكتب إليه الأخنف ، ولكن قال : اقرؤا عليه السلام ، وقولوا له : أنا لك على ما فارقتك عليه . فلم يزل يقرأ الكتب ويلتمس في أضعافها كتاب الأخنف ، فلما لم يره قال لأصحابه : أما كتب إلينا ؟ فقال له الرسول : حملني إليك رسالة ، وأبلغه ، فقال : هذه أحب إلي من هذه الكتب .

* * *

واجتمعت الحوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير بن علي ، وهو من بني سليط ابن يربوع ، من رهب ابن الماحوز ، فرأى فيهم انكساراً شديداً وضعفاً بيناً ،

فقال لهم : اجتمعوا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال : إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبةٌ وخزيٌ ، وإن يصب منكم أمير المؤمنين فما صار إليه خيرٌ مما خَلَفَ ، وقد أصبتم منهم مُسلمَ بن عيسى ، وربيعاً الأجدم ، والحجاج بن بابٍ ، وحارثة بن بدرٍ ، وأشجيمُ المهلب ، وقتلتم أخاه المَعارك ، والله يقولُ لإخوانكم من المؤمنين : (إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله ، وتلك الأيامُ نداؤها بين الناس) فيوم سلى كان لكم بلاءٌ وتمحيصاً ، ويوم سولاف كان لهم عقوبةٌ ونكالاً ، فلا تغلبن على الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحملَ لمحاربة المهلبِ ، فنفتحهم للمهلب نفحةً ، فرجعوا ، فأكنَ للمهلب في غمضٍ من غموض الأرض ، يقرب من عسكره ، مائة فارس ليقتالوه ، فسار المهلب يوماً يطوف بعسكره ويتفقد سواده ، فوقف على جبلٍ فقال : إن من التدبير لهذه المارقة أن تكون قد أكنمت في سفحِ هذا الجبلِ كميناً ، فبعث عشرة فوارس ، فاطلعوا على المنة ، فلما علموا أنهم قد علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا ، وكسفت الشمس ، فصاحوا بهم : يا أعداء الله ! لو قامت القيامة لجددنا في جهادكم . ثم ينس الزبير من ناحية المهلب ، فضرب إلى ناحية أصبهان ، ثم كر راجعاً إلى أرتجان . وقد جمع جموعاً ، وكان المهلب يقولُ : كأني بالزبير وقد جمع جموعاً ، فلا يرهوهم فتخشبُ قلوبكم ، ولا تغفلوا الاحتراس فيطمعوا فيكم . فجاؤوه من أرتجان فالفؤوه مستعداً آخذاً بأفواه الطُّرُق ، فحاربوه ، فظهر عليهم ظهوراً يئساً . ففي ذلك يقول رجلٌ من بني تميم ، أحسبه من بني رياح ابن يربوع :

سقى الله المهلبَ كلَّ غيثٍ من الوسميِّ يتحرُّ انتحاراً
فما وَّهن المهلبُ يوم جاءت عوايسُ خيلهم تبغي الغوارا

وقال المهلبُ يومئذٍ : ما وقعتُ في أمر ضيقٍ من الحرب إلا رأيتُ أمامي رجالاً من بني المهْجيم بن عمرو بن تميم يجالدون ، وكانَ لحام أذئابُ العقاقق . وكانوا صبروا معه في غير موطنٍ .

وقال رجل من بني تميم ، من بني عبشمس بن سعدٍ :
ألا يا مَنْ لَصِبٍ مستحسنٍ قريح القلب قد صَحِبَ المَزُونَا
لهنَّ على المهلب ما لقينا إذا ماراح مسروراً بَطِينَا
يجرُّ السَّابريَّ ونحن شُعْثٌ كأنَّ جلودنا كُتِيت طحينَا
« المَزُونُ » ، معنات ، وهو اسم من أسماءها . قال الكميّ :
فأما الأزدُ أزدُ أبي سعيدٍ فأكرهُ أن أسميها المَزونا

وقال جريرٌ :

وأطفأت نيران المزون وأهلها وقد حاولوها فتنةً أن تسعرا
وحمل يومئذٍ الحريش بن هلال على قيس الإكاف ، وكان قيسٌ من أنجدة
فرسان الحوارج ، فطعنه فدقَّ صلبه ، وقال :
قيسُ الإكاف غداة الرّوع يعلّني تَبَّتَ المقام إذا لاقيتُ أقراني

• • •

وقد كان قلُّ المهلب يوم سَلَّى وسلَّى صاروا إلى البصرة ، فذكروا
أن المهلب أصيب ، فهمَّ أهل البصرة بالنقْلة إلى البادية ، حتى ورد كتابه
بظفره ، فأقام الناس ، وتراجع من كان ذهب منهم ، فعند ذلك يقول الأحنفُ
ابن قيسٍ : البصرة بصرة المهلب . وقدم رجلٌ من كِنْدَةَ يقال له فلان بن
أرقم ، فتعَى ابن عم له ، وقال : رأيتُ رجلاً من الحوارج وقد مكَّن رِحمه
من صُلبه ، فقدم المنعِي ، فقليل له ذلك ، فقال : صدق ابن أرقم لما أحستُ
برحمه بين كفتي صحتُ به البقية ! فرفعه عني ، وتلا : بقيةُ الله خيرٌ لكم
إن كنتم مُؤمنين .

ووجه الملب يعقب هذه الوقعة رجلاً من الأزد برأس عبيد الله بن بشر بن الماحوز إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُبَاع ، فلما صار بكرْبُج دينارٍ لقيه حبيبٌ وعبد الملك وعليُّ بنو بشر بن الماحوز ، فقالوا له : ما الخبر ؟ ولا يعرفهم ، فقال : قتل الله المارق ابن الماحوز ، وهذا رأسه معي ! فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ودفنوا الرأس ، فلما وليَ الحجاج دخل عليه عليُّ بن بشر ، وكان وسيماً جسيماً ، فقال : من هذا ؟ فخبَّرَ فقتله ، ووهب ابنه الأزهر وابنته لأهل الأزدِيّ المقتول ، وكانت زينب بنتُ بشر لهم مُواصلةً ، فوهبهما لها .

فلم يزل الملب يقاتلُ الحوارج في ولاية الحارث القُبَاع ، حتى عُزل الحارثُ ووُلِّي مصعب بن الزبير ، فكتب إليه أن اقدمَ عليَّ واستخلف ابنك المغيرة ، ففعل ، فجمع الناس فقال لهم : إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم رقةٌ ورحمةٌ ، وابنُ كبيركم طاعةٌ وبراءٌ وتبجيلاً ، وأخو مثله مواسةٌ ومناصحةٌ ، فلتَحْسُنْ له طاعتكم ، وليلن له جانبكم ، فوالله ما أردتُ صواباً قطُّ إلا سبقتني إليه . ثم مضى إلى مصعب ، وكتب مصعبٌ إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك لم تكن كأيك ، فإنك كافٍ لما وليتك ، فشمر واتَّزَرَ وجدَّ واجتهد .

ثم شَخَّصَ المصعب إلى المذار ، فقتلَ أحمَر بن شُبطِ ، ثم أتى الكوفة فقتل المختار بن أبي عبيدٍ . وقال للملب : أشرْ عليَّ برزجلٍ أجعله بيني وبين عبد الملك . فقال له : أذكركُ لك واحداً من ثلاثةٍ : محمد بن عُمير بن عطارِدِ الدارِمِيّ ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العَتَكِيّ ، أو داؤود بن قَحْدَم ، فقال : أو تكفيني ؟ قال : أكتيك إن شاء الله ، فولاة الموصل ، فشخص الملب إليها .

وصار مصعبٌ إلى البصرة ، فآل : مَنْ يَشْكُفِي أُمَ الحوارج ويفد

إلى أخيه ، فشاور الناس ، فقال قومٌ : ولّ عبيد الله بن أبي بكره ، وقال قومٌ : ولّ عمر بن عبيد الله بن معمر ، وقال قومٌ : ليس لهم إلا المهلب فلردّده إليهم .

وبلغت المشورة الحوارج ، فأداروا الأمر بينهم ، فقال قطريّ بن الفجاءة المازنيّ : إنّ جاءكم عبيد الله بن أبي بكره أتاكم سيّدٌ سمحٌ جوادٌ كريمٌ مصيغٌ لعسكره ، وإنّ جاءكم عمر بن عبيد الله بن معمر أتاكم شجاعٌ بطلٌ فارس جادٌ ، يقاتل لدينه ومملكه ، وبطيعةٍ لم أر مثلاً لأحدٍ ، فقد شهدته في وقائع فما نودي في القوم لحربٍ إلا كان أول فارسٍ يطلع حتى يشد على قرنه فيضربه ، وإنّ ردّ المهلب فهو من قد عرقموه : إنّ أخذتم بطرف ثوبٍ أخذ بطرفه الآخر ؛ يدّه إذا أرسلتموه ، ويرسله إذا مددتموه ، لا يبدؤكم إلا أن تبدؤوه ، إلا أن يرى فرصة فيتنهزها ، فهو الليث المبير ، والشعب الرواغ ، والبلاء المقيم

فولى عليهم عمر بن عبيد الله ، وولاه فارس ، والحوارج بأرجان ، وعليهم الزبير بن علي السليطي ، فشخص إليهم فقاتلهم ، وألح عليهم حتى أخرجهم عنها ، فألحقهم بأصبهان ، فلما بلغ المهلب أن مصعباً ولي عمر بن عبيد الله قال : رمام بفارس العرب وقتاها .

فجمعوا له وأعدّوا واستعدوا ، ثم أتوا سابور ، فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن حسان الأزدي : ان المهلب كان يُذَكِّي العيون ، ويخاف الليات ، ويرتقب الغفلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم ، فقال له عمر : اسكتْ خلع الله قلبك ! أتراك تموت قبل أجلك ؟! فأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيته الحوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح فلم يظفروا منه بشيء ، فأقبل على مالك بن حسان فقال : كيف رأيت ؟ قال : قد سلم الله عز وجل ، ولم يكونوا يطمعون من المهلب بثلبها ، فقال : أما إنكم لو

فاصحتوني مناصحتكم الملب لرجوت أن أنقي هذا العدو ، ولكنكم تقولون :
قرشي حجازي بعيد الدار ، خيره لغيرنا ، فقاتلون معي تعذيراً .

• • •

ثم زحف إلى الحوارج من غد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى
أجأهم إلى قطرة ، فكاثف الناس عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها ، ثم
عبروا ، وتقدم ابنه عبيد الله بن عمر ، وأمه من بني سهم بن عمرو بن
هصيص بن كعب ، فقاتلهم حتى قتل . فقال قطري : لا تقاتلوا عمر
اليوم فإنه موتور . ولم يعلم عمر بقتل ابنه ، حتى أفضى إلى القوم ، وكان مع
ابنه النعمان بن عباد ، فصاح به : يا نعمان ! أين ابني ؟ فقال : احتسبه أيها
الأمير ، فقد استشهد رحمه الله صابراً مقبلاً غير مدبر . فقال : إنا لله
وإنا إليه راجعون . ثم حمل على الناس حملة لم يُرَ مثلاً . وحمل أصحابه محملته
فقتلوا في وجهم ذلك تسعين رجلاً من الحوارج ، وحمل على قطري فضربه
على جبينه ففلقه . وانهمزت الحوارج ، وانتهبها . فلما استقرؤا ، قال لهم
قطري : أما أشرتُ عليكم بالانصراف ؟ فجعلوه وجوههم حتى خرجوا
من فارس .

وتلقاهم في ذلك الوقت الفيزر بن مهزم العبدي . فسأله عن خبره ؟
وأرادوا قتله ! فأقبل على قطري فقال : إني مؤمنٌ مهاجرٌ ، فسأله عن أقاويلهم ؟
فأجابها ، فخلّوا عنه ، ففي ذلك يقول في كلمة له :

وشدّوا وثاقني ثم ألجوا خصومي إلى قطري ذي الجين المفلتي

وحاجبهم في دينهم وحجبتهم وما دينهم غير الهوى والتخلق

ثم إنهم تراجعوا وتكانفوا . (قال الأخفش : « تكانفوا » أعان بعضهم
بعضاً واجتمعوا وصار بعضهم في كنف بعض) وعادوا إلى ناحية أرباجان ،
فسار إليهم عمر ، وكتب إلى مصعب : أما بعد . فإني قد لقيت الأزارقة ،

فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ، ووهب له السعادة ، ورزقنا عليهم الظفر ، ففرقوا شذر مذر ، وبلغتني عنهم عودة ، فيممتهم ، وبالله أستعين وعليه أتوكل .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو ومجاعة بن سعيد ، فالتقوا ، فالح عليهم حتى أخرجهم ، وانفرد عمر من أصحابه ، فعمد له أربعة عشر رجلاً منهم ، من مذكورهم وشجعانهم ، وفي يده عمود ، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صرعه . فركض إليه قطري على فرس طيمري ، وعمر على مهر ، فاستعلاه قطري بقوة فرسه حتى كاد يصرعه ، فبصر به مجاعة فأسرع إليه ، فصاحت الحوارج بقطري : يا أبا نعام ! إن عدو الله قد رهقك ، فانمط قطري عن قربوسه ، فطعنه مجاعة ، وعلى قطري درعان فهتكها وأمرع السنان في رأس قطري ، فكشط عنه جلدة ونجا .

وارتحل القوم إلى أصفهان فأقاموا بها برهة ، ثم رجعوا إلى الأهواز ، وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى أصطخر ، فأمر مجاعة فجبى الحراج أسبوعاً ، فقال له : كم جيت ؟ قال : تسعائة ألف ، فقال : هي لك ، فقال يزيد بن الحكم التقي لمجاعة :

ودعاك دعوة مرقى فأجبتني عمر وقد نسي الحياة وضاعا
فرددت عادة الكتبية عن قتي قد كاد يترك لحمه أوزاعا

وعزل مصعب بن الزبير وولي حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فوجه المهلب إليهم ، فحاربهم فأخرجهم عن الأهواز ، ثم رُد مصعب والمهلب بالبصرة ، والحوارج بأطراف أصبهان ، والوالي عليها عتاب بن ورقاء الرياحي ، فأقام الحوارج هناك شيئاً يجنبون القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس ، فكتب مصعب إلى عمر بن عبيد الله : ما أنصقتنا ، أمت بفارس فجي الحراج ومثل هذا العدو بجاربك ، والله لو قاتلت ثم هربت لكان أعذر لك . وخرج مصعب من البصرة يريدكم ، وأقبل عمر بن عبيد الله يريدكم ، فتسعى الحوارج إلى السوس ،

ثم أتوا المدائن ، فقتلوا أحر طيء ، وكان شجاعاً ، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر ، ففي ذلك يقول الشاعر :

تركتم قتي القتيان أحر طيء بساباط لم يعطف عليه خليل

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادها ، ووالها الحارث بن عبد الله القباع ، فتناقل عن الخروج ، وكان جباناً ، فذممه إبراهيم بن الأستر ، ولامه الناس فخرج متحاملًا حتى أتى النخيلة ، ففي ذلك يقول الشاعر :

إن القباع سار سيواً نكروا يسير يوماً ويقم شهراً

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج ، والحوارج يعيشون ، حتى أخذوا امرأة فقتلوا أباهما بين يديها ، وكانت جميلة ، ثم أرادوا قتلها ، فقالت : أقتلون من ينشأ في الحلية وهو في الحصام غير ممين ؟! فقال قائل منهم : دعوها ، فقالوا : قد قتلناك ، ثم قدّموها فقتلوا ، ثم قرّبوا أخرى ، وهم بجذاء القباع ، والجسر معقود بينها ، فقطعه القباع ، وهو في ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به وهي تقول : علام تقتلونني ؟ فوالله ما فسقت ولا كفرت ولا ارتددت ! والناس يتفلتون إلى الحوارج ، والقباع يمنعهم ، فلما خاف أن يعصوه أمر عند ذلك بقطع الجسر ، فأقام بين دبابها وديري خمسة أيام ، والحوارج بقربه ، وهو يقول للناس في كل يوم : إذا لقيتم العدو غداً فأثبثوا أقدامكم واصبروا ، فإن أول الحرب الترامي ، ثم إشراع الرماح ، ثم السلة ، فشكك رجلًا أمه فرًا من الزحف . فقال بعضهم لما أكثر عليهم : أما الصفة فقد سمعناها ، فتي يقع الفعل ؟! وقال الراجز :

إن القباع سار سيواً ملأ بين دبابها وديري خمساً

فأخذ الحوارج حاجتهم ، وكان شأن القباع التحصن منهم ، ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ، وصاروا من فورهم إلى أصبهان ، فبعث عتاب بن ورقاء إلى الزبير بن عتيق : أنا ابن عمك ، ولست أراك تقصّد في انصرافك من كل حرب غيري . فبعث إليه الزبير : إن أدنى الفاسقين وأبعدهم من الحق سواء .

ولما سمي الحُرثُ بن عبد الله بن أبي ربيعة القباع لأنه ولي البصرة فعيرَ
على الناس مكاييلهم ، فنظر إلى مكيالٍ صغيرٍ في مرآة العين وقد أحاط بدقيق
استكثره ، فقال : إن مكيالكم هذا لقباعٌ . و « القباعُ » الذي يخفي أو
يخفى ما فيه ، يقال : اتبع الرجلُ : إذا استتر ، ويقال للقفد القبعُ وذلك
أنه يخنِسُ رأسه .

قال أبو العباس : وأقام الخوارجُ يغادون عتاب بن ورقاء القتال ويراوحونه ،
حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا منه بكبير ، فلما كثر ذلك عليهم انصرفوا ،
لا يمرُّون بقريةٍ بين أصفهان والأهواز إلا استباحوها وقتلوا من فيها .

* * *

وشاور المصعبُ الناسَ فيهم ، فأجمع رأيهم على الملب ، فبلغ الخوارجُ
مشورتهُ ، فقال لهم قطريُّ : إن جاءكم عتابُ بن ورقاء فهو فأنكُ يطلع في
أول المقنب ولا يظفرُ بكبير ، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله ففارسٌ يقدمُ ،
فإمّا له وإمّا عليه ، وإن جاءكم الملب فرجلٌ لا يناجزكم حتى تتأجيزوه ، ويأخذ
منكم ولا يعطيكم ، فهو البلاءُ اللّومُ ؛ والمكروه الدائم .

وعزَمَ المصعبُ على توجيه الملب ، وأن يشخص هو لحرب عبد الملك فلما
أحسنَ به الزبير بن عليٍّ خرج إلى الري ، وبها يزيدُ بن الحُرث بن رُويم ،
فعاربه ثم حصره ، فلما طال عليه الحصارُ خرج إليه ، فكان الظفرُ للخوارج ،
فقتل يزيدُ بن رُويم ، وفادى يومئذٍ ابنه حوشباً ففر عنه وعن أمّه لطيفة ،
وكان عليُّ بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحُرث بن رُويم يعود ابنه يزيد ،
فقال له : عندي جاريةٌ لطيفةٌ الخدمةُ أبعثُ بها إليك . فسماها يزيدُ لطيفة ،
فقيلتُ معه يومئذٍ ، ففي ذلك يقول الشاعرُ :

أمرٌ وأسفى من مواقف حوشبٍ	مواقفنا في كلِّ يومٍ كريمةٍ
فلم يستجب بل راغ ترواع تعلب	دعاه يزيدُ والرماحُ شوارعُ

ولو كان شهم النفس أو ذا حفيظة رأى ما رأى في الموت عيسى بن مصعب

وقد مر خبر عيسى بن مصعب مستقصى وقال آخر :

نجى حليته وأسلم شيخه نصب الأسنة حوشب بن يزيد

وقال ابن حوشب لبلال بن أبي ثوردة يعيرُهُ بأمه ، وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يا ابن حوراء ! فقال بلال : وكان جلدأ : إن الأمة تسمى حوراء وجيداء ولطيفة !! وزعم الكلبي أن بلالاً كانت جلدأ حيث ابتلي . قال الكلبي : ويعجبني أن أرى الأسير جلدأ . قال : وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف بن عمر : الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدهد وكنك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخيفاً بالشريف ، مظهراً للعصية ! فقال له بلال : إنما طال لسائلك ياخالد ثلاث معك ممن علي : الأمر عليك مُقبِلٌ وهو عني مدبرٌ ، وأنت مطلقٌ وأنا مأسورٌ ، وأنت في طينتك وأنا في هذا البلد غريبٌ . وإنما جرى الى هذا لأنه يُقال أن أصل آل الأهمم من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت في بني منقر من الروم .

* * *

ثم انخط الزبير بن علي على أصفهان فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتاب يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصارُ قال لأصحابه : ما تنتظرون؟ والله ما تؤتون من قلعة ، وإنكم لفرسانُ عشاركم ، ولقد حاربتهم مراراً فاتصفتهم منهم ، وما بقي منع هذا الحصار إلا أن تفتي ذخائرُكم ، فيموت أحدكم ، فيدفنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه ، فقاتلوا القوم وبكم قوة ، من قبل أن يضعف أحدكم عن أن يمشي إلى قرنته !! فلما أصبح الغد ، صلى بهم الصبح ، ثم خرج بهم إلى الحوارج وهم غارئون ، وقد نصب لواء جارية له يقال لها ياسمين ، فقال : من أراد البقاء فليلق بلواء ياسمين ، ومن أراد الجهاد فليخرج معي . فخرج في ألفين وسبعماية فارس ، فلم يشعر بهم الحوارج حتى غشواهم ، فقاتلوهم مجدي لم ير الحوارج منهم مثله ، ففقدوا منهم خلقاً

كثيراً وقتلوا الزبير بن علي ، وانهمزت الحوارج ، فلم يتبعهم عتاب ،
ففي ذلك يقول الشاعر :

ويوم مجي تلافيته ولولاك لاصطلم العسكر

قال أبو العباس : نفسير قوله « ولولاك » في آخر هذا الخبر إن شاء الله.
وقال رجل من بني ضبة في تلك الواقعة :

خرجت من المدينة مستميتاً ولم أك في كنية يميننا
أليس من الفضائل أن قومي غدوا مستلمين مجاهدينا

وترغم الرواة أنهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون ، ويحمل بعضهم
على بعض ، وربما كانت مواقفهم بغير حرب ، وربما اشتدت الحرب بينهم ،
وكان رجل من أصحاب عتاب يقال له مشريح ، ويكنى أبا هريرة ، إذا
تجاوز القوم مع النساء نادى بالحوارج وبالزبير بن علي :

يا ابن أبي الماحوز والأشرار كيف ترون يا كلاب النار
شد أبي هريرة الحرار يهرئكم بالليل والنهار
ألم تروا جيأ على المضار تمسي من الرحمن في جوار

فغاضبهم ذلك منه ، فكمن له عبيدة بن هلال فضربه ، واحتمله أصحابه ،
فظنت الحوارج أنه قد قتل ، فكانوا إذا تواقفوا نادوهم : ما فعل الحرار ؟
فيقولون : ما به من بأس ، حتى أبل من عله ، فخرج إليهم فصاح :
يا أعداء الله ! أترون بي بأساً ؟ فصاحوا به : قد كنا نرى أنك لحقت
بأمك الهاوية ، في النار الحامية .

قال أبو العباس : نفسير أشياء من العريضة تحتاج إلى الشرح . من ذلك
قوله « ولولاك » ، ومنه قوله « ألم تروا جيأ » ، ومنه قوله « يهرئكم بالليل والنهار » .
أما قوله « ولولاك » فإن سيويه يزعم أن « لولا » تخفض المضمر ويرتفع بعدها
الظاهر بالابتداء ، فيقال : إذا قلت « ولولاك » فما الدليل ، على أن الكاف
مخفوضة دون أن تكون منصوبة ، وضمير النصب كضمير الخفض ؟ فتقول :

إنك تقول لنفسك « لولاي » ولو كانت منصوبةً لكانت النون قبل الياء ،
كقولك « رماني واعطاني » قال يزيد بن الحكم التقي :
وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوي
« النيق » اعلى الجبل ، و « جرم » الإنسان : خلقه .

فيقال له : الضمير في موضع ظاهره ، فكيف يكون مختلفاً ؟ وإن كان
هذا جائزاً فلم لا يكون في الفعل وما اشبه نحو « إن » وما كان معها
في الباب ؟

وزعم الاخفش سعيداً ان الضمير مرفوعٌ ، ولكن وافق ضمير الحفص ،
كما يستوي الحفص والنصب . فيقال : فهل هذا في غير هذا الموضع ؟!

قال ابو العباس : والذي اقله ان هذا خطأ لا يصلح ، إلا ان تقول « لولا
انت » كما قال الله عز وجل : (لولا انتم لكانا مؤمنين) ومن خالفنا فهو
لا بد يزعم ان الذي قلناه اجود . ويدعي الوجه الآخر فيجيزه على بعده .
وأما « جي » فالاجود فيها ان تقول :

« الم تروا جي على المضار » .

فلا تتوّن ، لانها مدينةٌ ، والاسم اعجميٌ ، والمؤنث إذا سمى باسم اعجميٍ
على ثلاثة احرف لم ينصرف إذا كان مؤنثاً وان كان اوسطه ساكناً نحو جورٌ
وحص وماء وما كان مثل ذلك ، ولو كان اسماً لمذكرٍ لانصرف ، فإن صرفته
جعلته اسماً لبلدٍ ، وان لم تصرفه جعلته اسماً لبلدةٍ او لمدينةٍ ، الا ترى انك
تصرف نوحاً ولوطاً ، وهما اعجميان ؟ وكذلك لو كان على ثلاثة احرف كلها
متحركٌ ، لانك تصرف « قدماً » لو سميت به رجلاً ، فالاعجميُّ بمنزلة المؤنث ،
لان امتناعها واحداً .

وأما قوله « يهرُّم » فإن كل ما كان من المضاعف على ثلاثة احرف وكان
متعدياً فإن المضارع منه على « يفعل » نحو شدة يشدُّه ، وزرّة يزُرّه ، ورده
يرُدّه ، وحله يحلّه . وجاء منه حرفان على « يفعل » و « يفعلُ » فيها جيدٌ ،

هره يهره : إذا كرهه ، ويهره أجود ، وعلته بالحناء يعيله ، ويعله أجود .
ومن قال حيثه قال تحيته لا غير ، وقرأ أبو رجاء العطاردي
(فاتبعوني بحبكم الله) وذلك أن بني تميم قد غم في موضع الجزم وتحرك
أواخره لالتقاء الساكنين .

★ ★ ★

رجع الحديث

قال أبو العباس : ثم إن الحوارج أداروا أمرهم بينهم ، فأرادوا تولية عبيدة
ابن هلال ، فقال : أدلكم على من هو خير لكم مني ، من يطاعن في قبل ،
ويحمي في دبر ، عليكم قطري بن الفجاءة المازني . فبايعوه ، فوقف بهم ، فقالوا :
يا أمير المؤمنين ! امض بنا إلى فارس ، فقال : إن بفارس عمر بن عبيد الله بن
معمر ، ولكن نصير إلى الأهواز ، فإن خرج مصعب بن الزبير من البصرة دخلناها .
فأتوا الأهواز ، ثم ترفعوا عنها إلى ابنذج ، وكان مصعب قد عزم على الخروج
إلى باجميرا ، فقال لأصحابه : إن قطرياً قد أطل علينا ، وإن خرجنا عن البصرة
دخلها ، فبعث إلى المهلب فقال : اكفنا هذا العدو ، فخرج إليهم المهلب ، فلما
أحس به قطري تبسم نحو كرمان ، فأقام المهلب بالأهواز ، ثم كر قطري
عليه وقد استعد ، فكان الحوارج في جميع حالانهم أحسن عدة ممن يقاتلهم ،
بكثرة السلاح ، وكثرة الدواب ، وحصانة الجئن ، فعاربهم المهلب فتفاهم إلى
رام مرمز .

وكان الحرث بن عميرة الممداني قد صار إلى المهلب مراغماً لعتاب بن ورقاء
يقال أنه لم يرضه عن قتله الزبير بن علي ، وكان الحرث بن عميرة هو الذي تولى
قتله وحاص إليه أصحابه ، ففي ذلك يقول أعشى همدان :

إن المكارم أكملت أسبابها لابن اللبث الغر من قحطان
للفارس الحامي الحقيقة مُعلماً زاد الرقاق إلى قرى نجران
الحارث بن عميرة الليث الذي يحمي العراق إلى قرى كرمان
ودّ الأزرق لو يصاب بطعنة ويموت من فرسانهم مائتان

ويروى : زاد الرقاق وفارس الفرسان ، وتأويله : أن الرقعة إذا صحبها أغناها
عن التزوّد كما قال جرير ، وأراد ابن له سراً ، وفي ذلك السفر يحيى بن أبي
حفصة ، فقال لأبيه زوّديني ، فقال جرير :

أزاداً سوى يحيى تريدُ وصاحباً ألا إن يحيى نعم زادُ المسافر
فما تتكبرُ الكوماء ضربة سيفه إذا أرملوا أو خف ما في الغرائر
وقوله « ويموت من فرسانهم » يكون على وجهين : مرفوعاً ومنصوباً ، فالرفع
على العطف ، ويدخل في التمني ، والنصب على الشرط والخروج من العطف ،
وفي مصنف ابن مسعود (ودُّوا لو تُدهن فيُدعنوا) والقراءة (فيدهنوت)
على العطف ، وفي الكلام : ودّ لو تأتيه فتحدثه ، وإن شئت نصبت الثاني .

★ ★ ★

قال أبو العباس : وخرج مصعب بن الزبير إلى باجبراء ، ثم أتى الحوارج
خبراً مقتلته بمكين ، ولم يأت الملب وأصحابه ، فتواقفوا يوماً على الحدق ،
فناداهم الحوارج : ما تقولون في المصعب ؟ قالوا : إمام هديّ ، قالوا : فما
تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : ضالّ مضلّ . فلما كان بعد يومين أتى الملب
قتل مصعب ، وأن أهل الشام اجتمعوا على عبد الملك ، وورد عليه كتاب عبد
الملك بولايته ، فلما تواقفوا ناداهم الحوارج : ما تقولون في مصعب ؟ قالوا : لا نخبركم ! قالوا :
فما تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : إمام هديّ ! قالوا : يا أعداء الله ! بالأمس
ضالّ مضلّ واليوم إمام هديّ ؟ ! يا عبيد الدنيا ! عليكم لعنة الله !!

★ ★ ★

وولى خالد بن عبد الله بن أسيد ، فقدم فدخل البصرة ، فأراد عزل المهلب فأشير عليه بأن لا يفعل ، وقيل له : إنما آمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ، فقد تتحى عمر ، وإن نَحَيْتَ المهلب لم تأمن على البصرة الأزارقة ، فأبى إلا عزله ، فقدم المهلب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز ، فأشخصه ، فلما صار بكربيج دينار لقيه قطري فمنعه حط أثقاله ، وحاربه ثلاثين يوماً ، ثم أقام قطري بإزائه ، وخذق على نفسه ، فقال المهلب : إن قطرياً ليس بأحق بالخذق منك ، فعبر دجلاً إلى شق نهر تيرى ، واتبعه قطري ، فصار إلى مدينة نهر تيرى فبنى سورها وخذق عليها ، فقال المهلب لخالد : خندق على نفسك ، فإني لا آمن عليك الليات ، فقال : يا أبا سعيد ! الأمر أعجل من ذلك ، فقال المهلب لبعض ولده : إني أرى أمراً ضائعاً ، ثم قال لزياد بن عمرو : خندق علينا ، فخذق المهلب وأمر بسفنه ففرت ، وأبى خالد أن يفرغ سفنه ، فقال المهلب لفيروز حصين : صر معنا ، فقال : يا أبا سعيد ! الحزم ما تقول ، غير أني أكره أن أفارق أصحابي ، قال : فكن بقربنا ، قال : أما هذه فنعم .

وقد كان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان يأمره أن يد خالداً بجيش كثيف ، أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ففعل ، فقدم عليه عبد الرحمن فأقام قطري بغادهم القتال ويراوهم أربعين يوماً ، فقال المهلب لمولى لأبي عبيدة : انتبذ إلى ذلك الناورس فبت عليه في كل ليلة ، فمضى أحسن خبراً من الحوارج أو حركة أو صهيل خيل فاعجل إلينا ، فجاء ليلة فقال : قد تحرك القوم ، فجلس المهلب باب الخندق ، وأعد قطري سفناً فيها حطب فأشعلها ناراً وأرسلها على سفن خالد ، وخرج في أدبارها حتى خالطهم ، فجعل لا يمر برجل إلا قتله ، ولا بدابة إلا عقرها ، ولا بفسطاط إلا هتكه فأمر المهلب يزيد ابنه فخرج في مائة فارس فقاتل وأبلى يومئذ ، وخرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأبلى بلاء حسناً ، وخرج فيروز حصين في مواله ، فلم يزل يرميهم بالنشاب هو ومن معه ، فأثر أثرًا جليلاً ، فصرع

يزيد بن المهلب يومئذٍ ، وصرع عبد الرحمن ، فحاصى عنها أصحابها حتى وكبا ، وسقط فيروزُ حصين في الحندق ، فأخذ بيده رجلٌ من الازد فاستنقذه ، فوهب له فيروزُ حصين عشرة آلاف درهم ، وأصبح عسكرُ خالدٍ كأنه حرةٌ سوداءُ ، فجعل لا يرى إلا قتيلاً أو صريعاً ، فقال للمهلب : يا أبا سعيد ! كدنا نفتضح ، فقال خندقٌ على نفسك ، فإن لا تفعل عادوا إليك ، فقال : اكفني أمرَ الحندق ، فجمع له الأحماس ، فلم يبق شريفٌ إلا عميلٌ فيه ، فصاح بهم الخوارج : والله لولا هذا الساحرُ المزوني لكان الله قد دمرَ عليكم . وكانت الخوارجُ تسمي المهلبَ الساحرَ ، لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدونه قد سبقَ إلى نقض تديبرهم . فقال أعشى همدانَ لابن الأشعث في كلمةٍ طويلة :

ويوم أهوازك لا تئنسُ ليس الشنا والذكرُ بالدائرِ

وقد ذكرنا في قصر الممدود ، من أن مد المقصور لا يجوزُ ، ما يغني عن إعادته .

• • •

ونذكرُ فيروزَ حصين لما مر من ذكره :

وكان فيروزُ حصين رجلاً جيد البيت في العجم ، كريم الخيـد ، مشهور الآباء ، فلما أسلم والي حصيناً ، وهو حصين بن عبد الله العبدي ، من بني العبدي بن نعيم بن مرة ، ثم من ولد طريف بن نعيم ، وكان فيروزُ حصين شجاعاً جواداً ، نبيل الصورة ، جدير الصوت . وتروي الرواة أن رجلاً من العرب كانت أمه فتاة ، فقاول بني عمر له ، فسبوه بالعجمية ، ومر فيروزُ حصين ، فقال : هذا خالي ، فمن منكم له خالٌ مثله ؟ وظن الفتى أن فيروز لم يسمعها ، وسمعا فيروز ، فلما صار إلى منزله بعث إلى الفتى ، فاشتري له منزلاً وجارية ، ووهب له عشرة آلاف درهم .

ومن مآثره المعروفة أن الحجاج بن يوسف لما واقف ابن الأشعث برؤسقا باذ

نادى منادي الحجاج : من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ، ففصل فيروز من الصف ، فصاح بالناس : من عرفني فقد اكنى ومن لم يعرفني فأنا فيروز حصين ، وقد عرفتم مالي ووقائي ، من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف ، فقال الحجاج : والله لقد تركني أكثر التلفت وإني لبين خاصتي . فأتى به الحجاج فقال له : أنت الجاعل في رأس أميرك مائة ألف درهم ؟ قال : قد فعلت ، فقال : والله لأمهدنك ثم لأحملنك ، أين المال ؟ قال عندي ، فهل إلى الحياة من سبيل ؟ قال : لا ، قال : فأخرجني إلى الناس حتى أجمع لك المال فلعل قلبك يرق علي ! ففعل الحجاج ، فخرج فيروز فأحل الناس من ودائعهم ، وأعتق رقيقه ، وتصدق بماله ، ثم رُد إلى الحجاج فقال : شأنك الآن فاصنع ما شئت ، فشُد في القصب الفارسي ، ثم سل حتى شريح ، ثم نضح بالحل والملح ، فما تأوه حتى مات .

قال أبو العباس : ومضى قطري إلى كرمان ، فانصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطري بكرمان أشهراً ، ثم عمداً لفراس ، وخرج خالد إلى الأهواز ، وندب للناس رجلاً ، فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : ذهب المهلبُ بحظ هذا المصر ، إني قد وليتُ أخي قتال الأزارقة ، فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز في ثلثائة ، ومضى عبد العزيز في ثلاثين ألفاً ، والحوارج بدواب جرد ، فجعل عبد العزيز يقول في طريقه يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب ، فسيعلون .

قال صعب بن زيد : فلما خرج عبد العزيز عن الأهواز جاءني كردوس حاجب المهلب فقال : أجب الأمير ، فجئتُ إلى المهلب وهو في سطحٍ وعليه ثياب هروية ، فقال : يا صعب ! أنا ضائع ، كأنني أنظر إلى هزيمة عبد العزيز ، وأخشى أن توافيني الأزارقة ولا جند معي ، فابعت رجلاً من قبلك يأتيني بخبرهم سابقاً به إلي ، فوجّهت رجلاً يقال له عمران بن فلان ، فقلت : اصحب عسكر عبد العزيز واكتب الي بخبر يوم يوم ، فجعلتُ أورده على المهلب .

فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفةً ، فقال له الناس : هذا يومٌ صالحٌ ،
 فينبغي أن تترك - أيها الأمير - حتى نطمئن ثم نأخذ أهبتنا ، فقال : كلا ،
 إلا الأمر قريبٌ ، فنزل الناس على غير أمره ، فلم يستم النزول حتى ورد
 عليهم سعدٌ الطلائع في خمسمائة فارس ، كأنهم خيطٌ ممدودٌ ، فناهضهم عبد
 العزيز ، فواقفوه ساعةً ، ثم انهزموا عنه مكيدةً ، فاتبعهم ، فقال له الناس :
 لا تتبعهم فإننا على غير تعبٍ ، فأبى ، فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقبةً ، فاقترعها
 وراءهم ، والناس ينهونه ويأبى ، وكان قد جعل على بني تميم عيس بن طلق الصريمي
 الملقب بعيس الطعان ، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مسمع القيسي ، وعلى شرطته رجلاً
 من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار ، فتزلوا عن العقبة ونزل خلفهم ، وكان لهم في بطن العقبة
 كمينٌ ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين . وعطف عليهم سعدٌ الطلائع ؛ فترجل
 عيس بن طلق فقتل ، وقتل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضبيعي صاحب الشرطة ،
 وانحاز عبد العزيز ، واتبعهم الحوارج على فرسخين يقتلونهم كيف شاؤا ، وكان عبد
 العزيز قد خرج معه بأم حفص ابنت المنذر بن الجارود امرأته ، فسبوا النساء
 يومئذٍ ، وأخذوا أسرى لا تحصى ، فغذفوهم في غارٍ بعد أن شدوهم وثاقاً ، ثم سدوا
 عليهم بابه حتى ماتوا فيه .

وقال رجلٌ حضر ذلك اليوم : رأيت عبد العزيز وإن ثلاثين رجلاً ليضربونه
 بأسيا فهم وما تحيك في جسده .

يقال ما أحاك فيه السيف ، وما يحيك فيه ، وما حاك ذا الأمر في صدري ،
 وما حكى في صدري ، وما احتكى في صدري ، ويقال حاك الرجل في مشيته
 يحيك : إذا تبختر .

ونودي على السبي يومئذٍ ، فتولي بأم حفص ، فبلغ بها رجلٌ سبعين ألفاً ،
 وذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا ولحقوا بالحوارج ، ففرض لكل واحد منهم
 خمسمائة ، فكاد يأخذها ، فشق ذلك على قطري وقال : ما ينبغي لرجل مسلم
 أن يكون عنده سبعون ألفاً ، إن هذه فتنةٌ ، فوثب إليها أبو الحديد العبدی

فقتلها ، فأُتي به قطريُّ فقال له : يا أبا الحديد ! مهيم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين !
رأيت المؤمنين قد تزايدوا في هذه الشركة ، فغشيت عليهم الفتنة !! فقال
قطريُّ : قد أصبت وأحسن ! فقال رجلٌ من الخوارج :

كفانا فتنة عظمت وجلت بحمد الله سيف أبي الحديد
أهاب المسلمون بها وقالوا على فرط الهوى : هل من مزيد
فزاد أبو الحديد بنصل سيفٍ رقيق الحدّ فعل فتى رشيد

قوله « أهاب » يريدُ : أعلن ، يقال أهبْتُ به : إذا دعوته ، مثل صوت ،
قال الشاعر :

أهاب بأحزان الفؤاد مُهيبٌ ومات نفوسٌ للهوى وقلوبٌ

وقوله « مهيم » حرفٌ استفهام ، معناه : ما الخبرُ وما الأمرُ ، فهو دالٌّ
على ذلك مخوفٌ الخبر ، وفي الحديث « أن رسول الله ﷺ رأى بعبد الرحمن
ابن عوفٍ ردع خلقٍ فقال : مهيم ؟ فقال : تزوجتُ يا رسول الله ، فقال :
أو لم ولر بشاةٍ ، وكان تزوج على نواةٍ ، وأصحابُ الحديث يروونه « على نواةٍ
من ذهبٍ قيمتها خمسة دراهم » . وهذا خطأ وغلطٌ ، العرب تقول « نواة »
فتعني بها خمسة دراهم ، كما تقول « النش » لعشرين درهماً ، و « الأوقية »
لأربعين درهماً ، فإنما هو اسمٌ لهذا المعنى .

وكان العلاء بن مطرفٍ السعديُّ ابن عمِّ عمرو القنا ، وكان يحبُّ أن
يلقاه في تلك الحروب مبارزةً ، فلحقه عمرو القنا وهو منزهٌ ، فضحك عمروٌ
وقال متمثلاً :

تتاني ليقاني لقيطٌ أعام لك ابن صعصعة بن سعدٍ

ثم صاح به : انج أبا المصدى ! وكان عمرو القنا يُكنى أيضاً أبا المصدى :
وهذا البيتُ الذي يمثل به عمروٌ ليزيد بن عمرو بن الصعق الكلابيُّ بقوله ،
يعني لقيط بن زرارة ، وكان يطلبه .

وقوله « أعام لك » يريد : يا عامر ، فرخم ، وإنما يريد الحي تعجباً ،
 أي لكم أعجب من تمنيه للقائي ، فدعا بني عامر بن صعصعة ، وهم بنو صعصعة
 ابن معاوية بن بكر بن هوازن ، ويقال أن عامر بن صعصعة هو ابن سعد بن
 زيد مناة بن تميم ، لا ابن معاوية ، وأنهم نافلة في قيس ، ولذلك تمنعت
 بنو سعد من محاربتهم مع بني تميم يوم جبة ، ولذلك أنذرهم كرب
 بن صفوان .

وهذا البيت وضعه سيويه في باب النداء الذي معناه معنى التعجب وشبهه
 به قول الصلتان العبدى :

فيا شاعراً لا شاعر اليوم مثله جريراً ولكن في كليب تواضع
 على معنى قوله : فقه درء شاعراً .

وكان العلاء بن مطرف قد حمل معه امرأتين له ، إحداهما من بني ضبة
 يقال لها أم جميل ، والأخرى بنت عمه ، وهي فلاتة بنت عقيل ، فطلق
 الضبة وتخلص بها جميعاً بومئذ وحمل الضبة أولاً ، ففي ذلك يقول :

ألت كريباً إذ أقول ليفيتني قفوا فاحملوها قبل بنت عقيل
 ولولم يكن عثودي نضاراً لأصبت تحرّ على المتنين أم جميل

★ ★ ★

قال الصعب بن يزيد : بعثني المهلب لآتيه بالخبر ، فصرّت إلى قنطرة
 أربك على فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ، فلم أحسن خبراً ، فصرّت مهجراً
 إلى أن أمست ، فلما أظلمنا سمعت كلام رجل عرقته من الجهاضم ، فقلت :
 ما وراءك ؟ فقال : الشر ، قلت : فأين عبد العزيز ؟ قال : أمامك ، فلما
 كان من آخر الليل إذا أنا بزهاء خسين فارساً معهم لواء : فقلت ، لواء من
 هذا ؟ فقالوا : هذا لواء عبد العزيز ، فتقدمت إليه ، فسلمت وقلت : أصلح

الله الأمير ، لا يكبرن عليك ما كان ، فإنك كنت في شرّ جندي وأخيه ، قال لي : أو كنت معنا ؟ قلت : لا ، ولكن كافي شاهد أمرك ، قال : كأنك كنت معنا ، قلت : أرسلني المهلب لآتيه بخبرك ، ثم تركه وأقبلت إلى المهلب ، فقال لي : يا ورائك ؟ قلت : ما يسرّك ، قد هزم عبد العزيز وقلّ جيشه ! فقال : ويحك ! وما يسرّني من هزيمة رجل من قريش وقلّ جيش من المسلمين ؟ ! قلت : قد كان ذاك ، ساءك أو سرّك ، فوجه رجلاً إلى خالدٍ يخبره ، قال الرجل : فلما أخبرتُ خالداً قال : كذبت ولوئمت ، ودخل رجلٌ من قريش فكذبني ، وقال لي خالدٌ : والله لهمتُ أن أضرب عنقك ، قلت : أصلح الله الأمير ، إن كنتُ كاذباً فاقتلني ، وإن كنت صادقاً فاعطني مطرفَ هذا المتكلم ! فقال خالدٌ : لبئس ما أخطرت به دمك !! فما برحتُ حتى دخل بعض الفلّ .

وقدِمَ عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه المهلب وكامه ، وقدِمَ معه على خالدٍ ، واستخلف ابنه حبيباً ، وقال له تحسّس عن الأخبار ، فإن أحسست بخبر الأزارقة قريباً منك فانصرف إلى البصرة ، فلم يزل حبيبٌ مقيماً والأزارقة تدنو منه ، حتى بلغوا قنطرة أربك ، فانصرف إلى البصرة على نهر نوى ، فلما دخلها أعلم خالدٌ ، فغضب عليه ، واستتر حبيبٌ في بني هلال بن عامر بن صعصعة ، فتروّج هناك في استتاره الملائية أمّ عبّاد بن حبيب .

وقال الشاعر خالد بن فيثّل رابه ، أي يخطئه :

بعثت غلاماً من قريش قرؤةً وتترك ذا الرأي الأصيل المهلبا

أبى النعم واختار الوفاء وأحكمت قراء وقد ساس الأمور وجربا

وقال الحرث بن خالد الخزومي :

فر عبد العزيز لما رأى الأب طال بالسفع نازلوا قطرياً

ويروى :

فر عبد العزيز إذ راء عيسى وابن داهود نازلا قطرياً

عاهد الله إن نجا ملتأيا ليعودن بعدها حرمياً
يسكن الحل والصفاح فرأى ن وسلماً وثورة نجدياً
حيث لا يشهد القتال ولا يش مع يوماً لكر خيل دويماً
قوله « إذ راء عيسى ، الأصل « رأى » ، ولكنه قلب فقدم الألف وأخر الهمزة
كما قال كثير :

وكل خليل راءني فهو قائل من أجلك هذا هامة اليوم أو غد
والقلب كثير في كلام العرب ، وسنذكر منه شيئاً في موضعه إن
شاء الله .

وقوله « ملتأيا » يريد من المنايا ، ولكنه حذف النون لقرب مخرجها من اللام ،
فكانتا كالحرفين يلتقيان على لفظ فيحذف أحدهما ، ومن كلام العرب أن يحذفوا
النون إذا لقيت لام المعرفة ظاهرة ، فيقولون في بني الحارث وبني العنبر وما
أشبه ذلك « بلحارث » و « بلعنبر » و « بلهجير » كما يقولون « علماء بنو
فلان » فيحذفون إحدى اللامين .

وقوله « ليعودن بعدها حرمياً » العرب تنسب إلى الحرم فيقولون « حرمي »
و « حرمي » على قولهم حرمة البيت وحرمة البيت ، وقال النابغة الذبياني :
من قول حرمية قالت وقد رحلوا هل في غفيم من يشتري أداما
و « الحل » هنا موضع ، وأصله الطريق في الرمل .

وكتب خالد إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز ، وقال للهلب : ماترى عبد الملك
صانعاً بي ، قال : بعزلك ، قال : أتراه قاطعاً رحمي ؟ قال نعم ، أته
هزيمة أمية أخيك من البحرين . وتأتي هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس .
قال أبو العباس : فكتب عبد الملك إلى خالد :

أما بعد ، فإني كنت حدثت لك عدداً في أمر المهلب ، فلما ملكت

أمرك نبذت طاعتي ، واستبددت برأيك ، فوليت المهلب الجباية ، ووليت أخاك حرب الأزارقة ، فقبح الله هذا رأياً ، أتبعثُ غلاماً غراً لم يحروب الحروب للحرب ، وتركُ سيداً شجاعاً مدبئراً حازماً قد مارس الحروب تشغله بالجباية ؟! أما والله لو كافأتك على قدر ذنبك لأناك من نكيري ما لا بقية لك معه ، ولكن تذكرتُ رَحِمَكَ فَلَمَفَسْتَنِي عَنْكَ ؛ وقد جعلتُ عقوبتك عزك .

وولي بشر بن مروان وهو بالكوفة وكتب إليه :

أما بعد ، فإنك أخو أمير المؤمنين ، يجمعك وإياه مروان بن الحكم ، وإن خالداً لا يجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية ، فانظر المهلب بن أبي صفرة ، فولته حرب الأزارقة ، فإنه سيدٌ بطلٌ مجربٌ ، فأمده من أهل الكوفة بشانية آلاف رجل .

فشقَّ عليه ما أمره به في المهلب . وقال : والله لأقتلته ، فقال له موسى ابن نصير : أيها الأمير ! إن للمهلب حفاظاً وبلاءً ووفاءً .

وخرج بشر بن مروان يريد البصرة ، فكتب موسى وعكرمة إلى المهلب أن يتلقاه لقاءً لا يعرفه به ، فتلقاه المهلب على بغلٍ ، فلم عليه في مخار الناس ، فلما جلس بشرٌ مجلسه قال : ما فعل أميركم المهلب ؟ قالوا : قد تلقاك أيها الأمير وهو شاكٍ .

فهمُ بشرٌ أن يولي حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله ، فقال له أسماء بن خارجة : إنما ولائك أمير المؤمنين لتري رأيك ، فقال له عكرمة بن ربيعي : اكتبْ إلى أمير المؤمنين وأعلمه علة المهلب ، فكتب إليه يعلمه علة المهلب وأن بالبصرة من يُغني غناه ، ووجه بالكتاب مع وفدٍ أوفدم إليه رئيسهم عبد الله ابن حكيم الجاشعي ، فلما قرأ الكتاب خلا بعبد الله بن حكيم فقال : إن لك ديناً ورأياً وحزماً ، فمن لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلب ، قال : إنه

عليّ ، قال : ليست علته بمانعته ، قال عبد الملك : اراد بشره أن يفعل ما فعل خالد .

فكتب إليه يعزم عليه ان يولي المهلب ، فوجه إليه ، قال المهلب : أنا عليّ ولا يمكنني الاختلاف ؛ فأمر بشره بحمل النواوين إليه فجعل ينتخب ، فاعترض بشره عليه ، فاقطع أكثر نخبته ، ثم عزم عليه ان لا يقيم بعد ثالثة ، وقد أخذت الحوارج الأهواز وخلّفوها وراء ظهورهم وصاروا بالفرات ، فخرج إليهم المهلب حتى صار إلى شهارطاق ، فأتاه شيخ من بني تميم فقال : أصلح الله الأمير ، إن سني ما ترى فهني لعيالي ، قال : علي ان تقول للأمير إذا خطب فمخّكم على الجهاد : كيف تحمّنا على الجهاد وأنت تحبس أشرافنا واهل النجدة منا ؟ ففعل الشيخ ذلك ، فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ قال : لا شيء ، وأعطى المهلب رجلاً ألف درهم على أن يأتي بشراً فيقول له : ايها الأمير أعين المهلب بالشرطة والمقاتلة ، ففعل الرجل ذلك ، فقال له بشر : ما أنت وذاك ؟ قال : نصيحة حضرتي للأمير والمسلمين ولا اعود إلى مثلها ، فأمدّه بالشرطة والمقاتلة .

وكتب بشره إلى خليفته بالكوفة ان يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على مائة آلاف ، من كل رُبْع ألفين ، ويوجه به مدداً إلى المهلب ، فلما أتاه الكتاب بعث إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزديّ فعقد له ، واختار له من كل رُبْع ألفين ، فكان على رُبْع اهل المدينة بشر بن جرير البجليّ ، وعلى رُبْع تميم وممدان عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الممدانيّ ، وعلى رُبْع كندة وربيعة محمد بن إسحق بن الأشعث الكندي ، وعلى مَذْحِجٍ وأسدٍ زَحْر بن قيس المَذْحِجِيّ ، فقدموا على بشر ، فخلا بعبد الرحمن بن مخنف ، فقال له : قد عرفت رأيي فيك وثقتي بك ، فكن عند ظني ، انظر هذا المزونيّ فخالفه في أمره ، وأفسد عليه رأيه ، فخرج عبد الرحمن بن مخنف وهو يقول : ما اعجب

ماطمع مني فيه هذا الغلام ! يأمرني ان أصغر شيخاً من مشايخ أهلي وسيداً من ساداتهم ؟! فلحق بالمهلب .

• • •

فلما أحسّ الأزارقة بدنوءه منهم انكشفوا عن الفرات ، فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز ، فتفام عنها ، ثم تبعهم إلى رام هرمز فهزمهم منها ، فدخلوا فارس ، وأبلى يزيد ابنه في وقائع هذه بلاءً حسناً ، تقدم فيه وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، فلما صار القوم بفارس وجه إليهم ابنه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صبيح : أيها الأمير ! إنه ليس برأي لك قتل هذه الأكلب ، ولئن - والله - قتلهم لتقعدن في بيتك ، ولكن طاولهم وكنل بهم ، فقال : ليس هذا من الوفاء .

فلم يلبث برام هرمز إلا شهراً حتى أتاه موت بشر ، فاضطرب الجند على ابن مخنف ، فوجه إلى محمد بن إسحق بن الأشعث وابن زحر واستحلفها أن لا يبرحا ، فحلفا له ، ولم يبقا ، فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز ، وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب ، فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم ، فأقام منهم قوم وتسل منهم ناس كثير .

وكان خالد بن عبد الله خليفة بشر بن مروان ، فوجه مولى له بكتاب منه إلى من بالأهواز ، يحلف فيه بالله مجتهداً ، لئن لم يرجعوا إلى مراكزم وانصرفوا عصاة لا يظفر بأحد منهم إلا قتله ، فجاء مولا فجعل يقرأ الكتاب عليهم ولا يرى في وجوههم قبوله ، فقال : إني لأرى وجوهاً ما القبول من شأنها ! فقال له ابن زحر : أيها العبد ! اقرأ ما في الكتاب وانصرف إلى صاحبك ، فإنك لا تدري ما في أنفسنا ، وجعلوا يستعجلونه في قراءته ، ثم قصدوا قصداً الكوفة ، فزولوا النخيلة ، وكتبوا إلى خليفة بشر يستلونه أن يأذن لهم في الدخول ، فأبى ، فدخلوها بغير إذن .

فلم يزل المهلبُ ومن معه من قوادهِ وابنُ محنفٍ في عددٍ قليلٍ ، فلم ينشؤا أن وليَ الحجاجُ العراقَ ، فدخل الكوفةَ قبلَ البصرةِ ، وذلك في سنة خمسٍ وسبعينَ ، فخطبهم ونهدهم ، وقد ذكرنا الخطبةَ مقدّماً ، ثم نزل فقال لوجوه أهلها : ما كانت الولاةُ تفعل بالعصاة ؟ فقالوا : كانت تضربُ وتحبسُ ، فقال الحجاجُ : ولكن ليس لهم عندي إلا السيفُ ، إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو سأغتِ العصية لأهلها ما قُتِلَ عدوٌّ ولا جُيِّ فيهِ ولا عزٌّ دينٌ .

ثم جلسَ لتوجيه الناسَ ، فقال : قد أجلتكم ثلاثاً ، وأقسم بالله لا يتخلف أحدٌ من اصحاب ابن محنفٍ بعدها ولا من أهل الثُغور إلا قتلتهُ ، ثم قال لصاحب حرسه وصاحب شرطه : إذا مضت ثلاثة أيامٍ فاتخذنا سيوفكما عصياً ، فجاءهُ عمير بن ضابئٍ البرجميُّ بابه . فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا أنفع لكم مني ، هو أشدُّ بني تميم أيداً ، وأجمعهم سلاحاً ، وأربطهم جاشاً ، وأنا شيخٌ كبيرٌ عليلٌ ، واستشهدَ جلساءه ، فقال له الحجاجُ : إن عنركَ لواضحٌ ، وإن ضعفك لينٌ ، ولكنني أكره أن يجترى بك الناس علي ، وبعد فانت ابن ضابئٍ صاحب عثمان ، ثم أمر به فقتل ، فاحتمل الناس ، وإن أحدهم ليتبع بزاده وسلاحه ، ففي ذلك يقول ابن الزبير الأسديُّ :

أقول لعبد الله يوم لقيته	أرى الأمر أمسي منصّباً متشبّهاً
تخيّرُ فيما أن ترورَ ابن ضابئٍ	عميراً وإمّا أن ترورَ المهلباً
هما خطّتا خسفَ نجاؤك منها	ركوبك حولياً من الثلج أشبهاً
فما إن أرى الحجاج يغمد سيفه	يدَ الدهر حتى يترك الطفلَ أشيا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه	رأها مكانَ السوق أو هي أقربا

وهرب سوار بن المضرب السعدي من الحجاج وقال :
أقاتلي الحجاج إن لم أزرُ له دراب وأترك عند هندی قواديا
وقد مرت هذه الأبيات .

* * *

وخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان عليهم أشدّ إلحاحاً ، وقد كان أتاهم خبره بالكوفة ، فتحمل الناس قبل قدومه ، فأتاه رجلٌ من بني يَشْكُرَ ، وكان شيخاً كبيراً أعورَ ، وكان يجعل على عينه العوراء صوفةً ، فكان يلقب ذا الكرسفة ، فقال : أصلح الله الأمير إن بي فتقاً ، وقد عنزني بشرٌ ، وقد رددت العطاء . فقال : إنك عندي لصادقٌ ، ثم أمر به فضربت عنقه ، ففي ذلك يقول كعبُ الأشكري أو الفرزدق :

لقد ضرب الحجاج بالمصر ضربةً تفرقَ منها بطن كلِّ عريف

ويروى عن أبي ميرة قال : إنا لتغدي معه يوماً إذ جاء رجلٌ من بني سليم برجلٍ يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا عاصٍ ، فقال : له الرجل : أنشدك الله أيُّها الأمير في دمي ، فوالله ما قبضت ديوناً قط ، ولا شهدت عسكرياً ، وإني لحائِكٌ أخذت من تحت الحفّ ، فقال : اضربوا عنقه ، فلما أحس بالسيف سجّده ، فلحقه السيف وهو ساجدٌ ، فأمسكنا عن الطعام ، فأقبل علينا الحجاج فقال : مالي أراكم صفرت أيديكم واصفرت وجوهكم وحد نظركم من قتل رجلٍ واحدٍ ؟! إن العاصي يجمع خلافاً : يحل بمركزه ، ويعصي أميره ، ويغترُّ المسلمين من نفسه وهو أجيرٌ لهم ، وإنما يأخذ الأجرة لما يعمل ، والوالي غير فيه إن شاء قتل وإن شاء عفا .

ثم كتب الحجاج إلى المهلب : أما بعد ، فإن بشراً رحمه الله استكره نفسه عليك ، وأراك غناءً عنك ، وأنا أريك حاجتي إليك . فأراني الجدل في قتال عدوك ، ومن خفته على المعصية بمن قبلك فاقتله ، فإنني قاتلٌ من قبلي ومن كان عندي من وليٍّ من هرب عنك فأعلمني مكانه ، فإنني أرى أن آخذ الوليَّ بالوليِّ ، والسميَّ بالسميِّ .

فكتب إليه المهلب : ليس قبلي الا مطيعٌ ، وإن الناس إذا خافوا العقوبة كبروا الذنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب ، وإذا يشوا من العفو

أكفرهم ذلك ، فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة ، فإنما هم فرسان أبطال ، أرجو أن يقتل الله بهم العدو وقادهم على ذنبه .

* * *

فلما رأى المهلب كثرة الناس عليه قال : اليوم قوتل هذا العدو . ولما رأى ذلك قطري قال : انهضوا بنا نريد السردان فتحصن فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أو نأتي سابور ، وخرج المهلب في آثارهم ، فأتى أرجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسردان ، وليست بمدينة ، ولكن جبالاً محدقة منيعة ، فلم يصب بها أحداً ، فخرج نحوهم فعسكر بكازرون ، واستعدوا لقتاله ، وخندق على نفسه ، ثم وجه إلى عبد الرحمن بن مخنف : خندق على نفسك ، فوجه إليه : خنادقنا سوفنا ، فوجه إليه المهلب : إني لا آمن عليك الليات ، فقال ابنه جعفر : ذاك أهون علينا من ضرورة جمل ! فاقبل المهلب على ابنه المغيرة فقال : لم يصيبوا الرأي ولم يأخذوا بالوثيقة ، فلما أصبح القوم غادوه الحرب ، فبعث إلى مخنف يستمده ، فأمدته بجياعة ، وجعل عليهم ابنه جعفر ، فجاءوا وعليهم أقيّة بيض جدّ ، فقاتلوا يومئذ حتى عرف مكانهم ، وحاربهم المهلب وأبلى بنوه يومئذ كبلاء الكوفيين أو أشد ، ثم نظر إلى رئيسهم يقال له صالح بن مخراق ، وهو ينتخب قوماً من جلّة العسكر ، حتى بلغوا أربعمائة ، فقال لابنه المغيرة : ما يعد هؤلاء إلا لليات ، وانكشف الحوارج والأمر للمهلب عليهم ، وقد كثّر فيهم القتل والجراح .

* * *

وقد كان الحجاج في كل يوم يتفقد العصاة ويوجه الرجال ، فكان يجبسهم نهراً ، ويفتح الحبس ليلاً ، فينسل الناس إلى ناحية المهلب ، وكان الحجاج لا يعلم ، فإذا رأى اصراعهم تمثل :

إن لها لساناً عشتزرا إذا وثن وثية تغشرا

العشّور « الصُّلب » ، و « التغشمر » ركوب الرأس ، و « المتغشمر »
الجاد على ما خيلت .

وكتب إلى المهلب من قبل الوقعة : أما بعد ، فإنه بلغني أنك أقبلت على
جباية الحراج ، وتركت قتال العدو ، وإني وليتك وأنا أرى مكان عبد الله بن
حكيم الجاشعي وعباد بن حصين الجبلي ، واخترتك وأنت من أهل عمان ، ثم
رجل من الأزدي ، فالتهمهم يوم كذا في مكان كذا ، والا أشرعت إليك
صدر الرمح !!

فشاور بنه فقالوا : انه أمير ، فلا تغلظ عليه في الجواب .

فكتب إليه المهلب : ورد علي كتابك تزعم أنني أقبلت على جباية الحراج
وتركت قتال العدو ، ومن عجز عن جباية الحراج فهو عن قتال العدو أعجز ،
وزعمت أنك وليتي وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم الجاشعي وعباد بن
حصين الجبلي ، ولو وليتها لكانا مستحقين لذلك في فضلها وغنائها وبطشها ،
واخترتني وأنا رجل من الأزدي ، ولعمري ان شراً من الأزدي لقيلة تنازعها
ثلاث قبائل ، لم تستقر في واحدة منهن ، وزعمت أنني ان لم ألقيهم في يوم كذا في مكان كذا
أشرعت إلى صدر الرمح ، فلو فعلت لقلت إليك ظهر المجن ، والسلام .

ثم كانت الوقعة . فلما انصرف الحوارج قال المهلب لابنه المغيرة : إني
أخاف اليات علي بن أبي حمزة ، فانهمض إليهم فكن فيهم ، فأقام المغيرة ، فقال له
الحريش بن هلال : يا أبا حاتم ! أخاف الأمير أن يؤتى من ناحية ؟ قل له
فليب آمنة فإننا كافوه ما قبلنا إن شاء الله . فلما انتصف الليل ، وقد رجع
المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن خرقاء في القوم الذين أعدّهم إلى ناحية بني تميم ،
ومعه عبيدة بن هلال وهو يقول :

إني لمذكٍ للشراة نارها ومانعٌ بمن أتاها دارها

وغاسلٌ بالطعن عنها عارها

فوجد بني تميم أيقاظاً متحارسين ، فخرج إليهم الحريش بن هلال ،
وهو يقول :

لقد وجدتم وُقراً أنجاداً لا كُشُفاً ميلاً ولا أوغاداً
هياتَ لا تلفوتنا رُقّاداً لا بل إذا صيح بنا آساداً

ثم حمل على القوم فرجعوا عنه ، فاتبعهم وصاح بهم : إلى أين يا كلاب
النار ؟ فقالوا : إنما أعدت النار لك ولأصحابك . فقال الحريش : كل
مملوك لي حرٌّ إن لم تدخلوا النار إن دخلها مجوسيّ فيما بين سفوان وخراسان .

قوله « وجدتم وُقراً » : جمع وُقور . و « النَجْد » ضد البليد ، وهو
المتيقظ الذي لا كسل عنده ولا فتور . و « الأمل » فيه قولان ؛ قالوا :
الذي لا يستقرُّ على الدابة ، وقالوا : هو الذي لا سيف معه . و « الأكشف »
الذي لا تُرْس معه . و « الأتجم » الذي لا رُمع معه . و « الحاسر » الذي لا درع
عليه . و « الأعزل » الذي لا يتقوم على ظهر الدابة . و « الوغد » الضعيف .

ثم قال بعضهم لبعض : نأني عكر ابن مخنف فإنه لا خندق عليهم ، وقد
تعب فرسانهم اليوم مع المهب ، وقد زعموا أننا أهون عليهم من ضربة جمل ،
فأنوم ، فلم يشعر ابن مخنف وأصحابه بهم إلا وقد خالطوهم في عسكرهم ،
وكان ابن مخنف شريفاً ، يقول رجلٌ من غامدٍ لرجلٍ يعاتبه ويضربُ بآبن
مخنف المثل :

تروح وتغدو كلَّ يومٍ معظماً كأنك فينا مخنفٌ وابن مخنف

فترجل عبد الرحمن بن مخنف فجالدهم فقتل ، وقتل معه سبعون من القراء ،
فيهم نفرٌ من أصحاب عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه ، ونفرٌ من أصحاب
ابن مسعود ، وبلغ الخبر المهب ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف عند المهب ،
فجاءهم مغيباً ، فقاتلهم حتى ارتث وصرع ، ووجه المهب إليهم ابنة حياً فكشفهم ،
ثم جاء المهب حتى صلى على ابن مخنف وأصحابه رحمهم الله ، وصار جنده

في جندِ المهلبِ ، فضمهم إلى ابنه حبيبٍ ، فعيروهم البصريون ، فقال رجلٌ لجعفر ابن عبد الرحمن :

تركت أصعابنا تدمى مخورم وجئتَ تسعى إلينا خضفة الجملِ
قوله « خضفة الجملِ » يريد ضربة الجملِ ، يقال خضفَ البعيرُ ، وأنشدني
الرياشيُّ لأعرابيٍّ يذمُّ رجلاً اتخذ وليمةً :

إنا وجدنا خلفاً بنس الخلفِ أغلقَ عنا بابهُ ثم حلف
لا يدخلُ البابُ إلا من عرفَ عبدٌ إذا ما ناء بالجملِ خَضَفُ
يقال « ناء بجمله » إذا حمله في ثقلٍ وتكلّفٍ ، وفي القرآن : (ما إن
مفاتيحهُ لتتوء بالعصبة أولي القوة) والمعنى أن العصبة تتوء بالمفاتيح ، وقد مضى
تفسير هذا ، وتقول العرب « حبج الرجل وحبق وخضف وردم » كل ذلك
إذا شرط .

فلامهم المهلب ، وقال : بنسما قتم ، واثم ما فروا ولا جبنوا ، ولكنهم
خالفوا أميهم ، أفلاتذكرون فراركم يوم دولا ب ، وفراركم بدارس عن عثمان ،
وفراركم عني ؟!

* * *

ووجه الحجاجُ البراء بن قبيصة إلى المهلبِ يستحثُّه في مناجزة القوم ،
وكتب إليه أنك لتحبُّ بقاءهم لتأكلَ بهم . فقال المهلبُ لأصحابه : حرُّوهم ،
فخرج فرسانٌ من أصحابه إليهم ، فخرج إليهم من الحوارج جمعٌ ، فاقتلوا إلى
الليل ، فقال لهم الحوارج : ويلكم أما تملثون ؟ فقالوا : لا ، حتى تملثوا ،
قالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : نعيمٌ ، قالت الحوارج : ونحن بنو نعيم ، فلما أمسوا
افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرةٌ من أصحاب المهلبِ وخرج إليهم عشرة
من الحوارج ، فاحفر كل واحدٍ منهم حفيرةً وأثبت قدمه فيها ، فكلما قُتلَ
رجلٌ جاء رجلٌ من أصحابه فاجتره ووقف مكانه ، حتى أعتما ، فقال لهم

الحوارجُ : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، فقالوا : ويلكم ! من أنتم ؟
فقالوا : تميم ، قالوا : ونحن تميم ، فرجع البراءُ بن قبيصة إلى الحجاج ، فقال
له : مه ؟ قال : رأيت قوماً لا يعينُ عليهم إلا الله .

وكتب إليه المهلب : إني منتظرٌ بهم إحدى ثلاثٍ : موتٌ ذريعٌ ، أو جوعٌ
مضرٌ ، أو اختلافٌ من أهوائهم .

وكان المهلب لا يتكل في الحراسة على أحدٍ ، كان يتولى ذلك بنفسه ،
ويستعين بولده وبين يحل محلهم في الثقة عنده .

وقال أبو حرمة العبدي يهجو المهلب :

عدمك يا مهلب من أميرٍ أما تندی يمينك للفقيرِ
بدولابٍ أضعت دماء قومٍ وطرت على مواشكةٍ درورِ

فقال المهلبُ ويحك ! والله اني لأفيكم بنفسي وولدي ، قال : جعلني الله
فداء الأمير ، فذاك الذي نكره منك ، ما كلُّنا يحبُّ الموت ، قال ويحك ! وهل
عنه محيصٌ ؟ قال : لا ، ولكننا نكره التعجيل ، وأنت تقدم عليه إقداماً ،
قال المهلب : أما سمعت قول هيرة الكلجة اليربوعي :

فقلت لكأسٍ أجميا فأنما نزلنا الكئيب من زرود لنفرعا ؟

قال : بلى والله قد سمعته ، ولكن قولي أحب إلي منه ، وهو :

فلما وقفتم غدوةً وعدوكم إلى مهبتي وليت أعداءكم ظهري
وطرت ولم أحفلُ مقالة عاجزٍ يسافي المنايا بالرؤدنية السمرِ

فقال له المهلبُ : بنس حشو الكنية والله أنت ! فإن شئت أذنت لك
فانصرفت إلى أهلِكَ ؟ فقال : بل أقيمُ معك أيُّها الأمير ، فوهب له المهلبُ
وأعطاه ، فقال بمدحه :

يرى حتماً عليه أبو سعيدٍ جلاد القوم في أولى النفيرِ
إذا نادى الشراةُ أبا سعيدٍ مشى في رقلٍ مُحكمة القيرِ

« الرقل » الذئيل .

وقال المهلبُ : ما يسرني أن في عسكري ألف شجاعٍ بدل بييس بن صهيب ،
فيقال له : أيها الأميرُ ! بييسٌ ليس بشجاعٍ ، فيقول : أجل ، ولكنه شديد
الرأي محكمُ العقل ، وذو الرأي حذوٌ سؤولٌ ، فأنا آمنٌ أن يغتفل ، فلو كان
مكانه ألف شجاعٍ قلت أنهم ينشامون حتى يحتاج إليهم .

ومطرت السماءُ ليلةً مطراً شديداً وهم يسابور ، وبين المهلب وبين الشراة
عقبةٌ ، فقال المهلبُ : من يكفيننا هذه العقبةَ الليلة ؟ فلم يقم أحدٌ ، فلبس
المهلبُ سلاحه وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرةُ . فقال رجلٌ من أصحابه
يقال له عبد الله : دعانا الأميرُ إلى ضبط العقبة ، والحظ في ذلك لنا ، فلم نطعه ،
فلبس سلاحه واتبعه جماعةٌ من أهل العسكر فصاروا إليه ، فاذا المهلب والمغيرةُ
لا تالك لهما ، فقالوا : انصرف أيها الأميرُ فنحن نكفيك إن شاء الله ، فلما
أصبحوا إذا بالشراة على العقبة ، فخرج إليهم غلامٌ من أهل عمان على فرس ، فجعل
يحمل وفرسه يزلق ، وتلقاه مدركٌ بن المهلب في جماعةٍ معه حتى ردهم .

فلما كان يومُ النحر والمهلب على المنبر يخاطب الناس إذا الشراة قد تألبوا ،
فقال المهلبُ : سبحان الله ! أي مثل هذا اليوم ؟ يا مغيرةُ اكفينهم ، فخرج
إليهم المغيرة بن المهلب وأمامه سعد بن نجدة القردوسيُّ ، وكانت سعد بشجاعاً
متقدماً في شجاعته ، وكان المهلب إذا ظنَّ برجلٍ أن نفسه قد أعجته قال
له : لو كنت سعد بن نجدة القردوسي ماعداً - وقردوسٌ من الأزد - فخرجَ
أمامَ المغيرة ، وتبع المغيرة جماعةٌ من فرسان المهلب ، فالتقوا ، وأمام الخوارج
غلامٌ جامع السلاح ، مديدُ القامة ، كربةُ الوجه ، شديدُ الحملة ، صبيحُ الفروسية ،
فأقبل يحمل على الناس وهو يقول :

نحن صبحناكم غداة النحر بالحلل أمثال الوشيح تجري

فخرج إليه سعد بن نجدة القردوسي من الأزد ، ثم تجاوزا ساعةً ، فطعنه سعدٌ
فقتله ، والتقى الناس ، فصرع يومئذ المغيرة ، فحامي عليه سعد بن نجدة وذيان
السختياني وجماعةٌ من القُرسان حتى ركب ، وانكشف الناس عند سقطةٍ

المغيرة ، حتى صاروا إلى أبيه الملب ، فقالوا : قتل المغيرة ، ثم أتاه ذبيان
السُّخَيَّانِي ، فأخبره بسلامته ، فأعفى كلَّ مملوكٍ كان بحضرته .

* * *

ووجه الحجاج الجراح بن عبد الله إلى الملب يستبطئه في مناجزة القوم ،
وكتب إليه : أما بعد ، فإنك جيتَ الجراح بالعليل ، وتحصنت بالحدائق ،
وطاولت القوم ، وأنت أعز ناصراً ، وأكثر عدداً ، وما أظن بك مع هذا
معصية ولا جبناً ، ولكنك اتخذت أكلًا ، وكان بقاؤهم أيسر عليك من قتالهم ،
فناجزهم وإلا أنكرتني ، والسلام .

فقال الملب للجراح : يا أبا عقبة ! والله ما تركت حيلة إلا احتلتها ، ولا
مكيدة إلا عملتها ، وما العجب من إبطاء النصر وتراخي الظفر ، ولكن
العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره !! ثم ناهضهم ثلاثة أيام ،
يغاديهم القتال ، ولا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قرح ،
وبالحوارج قرح وقتل ، فقال له الجراح : قد أعذرت .

فكتب الملب إلى الحجاج : أتاني كتابك تستبطني في لقاء القوم ، على
أنك لا تظن بي معصية ولا جبناً ، وقد عاتبني معاتبة الجبان ، وأوعدتني وعيد العاصي ،
فاستل الجراح ، والسلام .

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟ قال والله مارأيت أيها الأمير
مثله قط ولا ظننت أن أحداً يبقى على مثل ما هو عليه ، ولقد شهدت أصحابه
أياماً ثلاثة يغدون إلى الحرب ثم ينصرفون عنها وهم بها يتطاعنون بالرماح ويتجاللون
بالسيوف ويتخابطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً ، رواح قوم
تلك عاداتهم وتجارهم . فقال له الحجاج : لشد ما مدحت أبا عقبة ! قال :
الحق أولى .

وكانت ركب الناس قديماً من الحشَبِ ، فكان الرجل يضرب ركابه فينقطع ، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمدٌ ، فأمر المهلب فضربتِ الركب من الحديد ، وهو أول من أمر بطبعها ، ففي ذلك يقول عُمَران بن عَصام العنزي :

ضربوا الدوام في إمارتهم وتضربت للحدثان والحرب
حلقاً ترى منها مرافقهم كمنالك الجمالة الجرب

* * *

وركب الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء الرّياحي ، من بني رياح بن يربوع بن حنظلة ، وهو والي أصهان : يأمره بالمسير إلى المهلب وأن يضمّ إليه جندَ عبد الرحمن بن مخنف ، فكل بلد تدخلانه من فتوح أهل البصرة فالمهلب أمير الجماعة فيه ، وأنتَ على أهل الكوفة ، فإذا دخلتم بلداً فتحه لأهل الكوفة فأنتَ أمير الجماعة فيه ، والمهلب على أهل البصرة .

نقدم عتّاباً في إحدى جماديين من سنة ستٍ وسبعين على المهلب ، وهو بسابور ، وهي من فتوح أهل البصرة فكان المهلب أميرَ الناس ، وعتّابٌ على أصحاب ابن مخنف ، والخوارج في أيديهم كرمّان ، وهم يَزْأَوِ المهلب بفارسَ محاربونه من جميع النواحي .

فوجه الحجاج إلى المهلب رجلين يستحثّانه مناجزة القوم ، أحدهما يقال له زياد بن عبد الرحمن ، من بني عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبي ع قيل جدُّ الحجاج ، فضم زياداً إلى ابنه حبيب ، وضم الثقفي إلى يزيد ابنه ، وقال لهما : خذا يزيد وحبيباً بالمناجزة ، فغادوا الخوارج فاقتلوا أشد قتالٍ ، فقتل زياد بن عبد الرحمن ، وفقد الثقفي ، ثم باكروهم في اليوم الثاني وقد وجد الثقفي فدعا به المهلب ودعا بالغداء ، فجعل النبل يقع قريباً منهم ، والثقفي يعجب من أمر المهلب ، فقال الصلتان العبدى :

ألا يا أصحاني قبل عروق العواتق وقبل اختراطِ القوم مثل العقائق

غداة حبيبٌ في الحديد يقودنا نخوض المنايا في ظلال الحوافق
تُحرون إذا ما الحرب طار شرارها وهاج عجاج الحرب في البوارق
فمن مبلغ الحجاج أن أميته زياداً أطاحته رمانح الأزارق

قوله « وقبل اختراط القوم مثل العقائق » يعني السيوف و « العقائق » جمع عقيقة ، يقال سيف كأنه عقيقة يرق ، أي كأنه لمعة يرق ، ويقال انعق البرق إذا تبسم ، وللعقيقة مواضع ، يقال فلان بعقيقة الصبي ، أي بالشعر الذي ولد به لم يخلقه ، ويقال عقت الشيء أي قطعه ، ومن ذا فلان يعق أوبه ، وكذا عقت عن الصبي ، إذا ذبحت عنه ، وقال أعرابي :

ألم تعلمي يادارَ بلجاء أنني إذا أجديت أو كان خصاً جنابها
أحبُّ بلاد الله ما بين مشرفٍ إلي وسلمى أن تصوب سحابها
بلاد بها عَقَّ الشابُ نيمتي وأول أرض مسَّ جلدي ثرابها

فلم يزل عتابُ بن ورفاء مع المهلب ثمانية أشهر ، حتى ظهر شيب ، فكتب الحجاج إلى عتاب يأمره بالمسير إليه ليوجهه إلى شيب ، وكتب إلى المهلب يأمره بأن يرزق الجند ، فرزق المهلب أهل البصرة ، وأبى أن يرزق أهل الكوفة ، فقال له عتاب : ما أنا بيارح حتى ترزق أهل الكوفة ، فأبى ، فجرت بينها غليظة ، فقال عتاب : قد كان يلغني أنك شجاع فرأيتك جباناً ، وكان يلغني أنك جواد فرأيتك بخيلاً ، فقال له المهلب : يا ابن اللخناء ! فقال له عتاب : لكنك معمٌ مخول !! فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف ، ووثب ابن نعيم بن هيرة بن أبي مصقلة على عتاب فشتمه ، وقد كان المهلب كلهاً للحلف ، فلما رأى نصرة بكر بن وائل له سرَّه الحلف واعتبط به ، ولم يزل يؤكده ، فغضبت نعيم البصرة لعتاب ، وغضبت أزد الكوفة للمهلب . قال أبو العباس : تحالف الأزد وربيعة بعد الإسلام ، وادَّعوا أن ذلك كان قديماً في الجاهلية ، لقول النبي عليه السلام : « لا حلف في الإسلام ، وكل حلف في الجاهلية فلن يزيد الإسلام إلا شدة » . والحلف العهد والصحة ،

والخليفة صاحب . وإنما نهى رسول الله ﷺ عن الحلف في الإسلام لثلاثين مسلم على مسلم ، فأما ما مضى فقد ثبت به حرمة لا يزيدوها الإسلام إلا شدة . فلما رأى ذلك المغيرة بن المهلب مشى بين أبيه وبين عتاب ، فقال لعتاب : يا أبا ورقاء ! إن الأمير يصير لك إلى كل ما تحب ، وسأل أبا أن يرزق أهل الكوفة ، فأجابه ، فصلح الأمر ، فكانت تميم قاطبة وعتاب بن ورقاء يحمدون المغيرة بن المهلب ، وقال عتاب : إني لأعرف فضله على أبيه ، وقال رجل من الأزد من بني إيلاد بن سود :

ألا أبلغ بني ورقاء عنا قلولا أننا كنا غضا
على الشيخ المهلب إذ جفانا للاقته خيلكم منا ضرا

• • •

وكان المهلب يقول لبنيه : لا تبدؤهم بقتال حتى يدؤكم فيبغوا عليكم ، فإنهم إذا بغوا نصرتم عليهم .

فشخص عتاب بن ورقاء إلى الحجاج في سنة سبع وسبعين ، فوجهه إلى شيب ، فقتله شيب ، وأقام المهلب على حربهم ، فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا .

وكان سبب اختلافهم أن رجلا حدادا من الأزارقة كان يعمل نصالا مسمومة ، فيرمي بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عكر قطري فقال : ألقى هذا الكتاب في عسكر قطري واحذر على نفسك ، وكان الحداد يقال له أبزي ، فضى الرسول ، وكان في الكتاب : أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلي ، وقد وجهت إليك بألف درهم ، فاقبضها وزدنا من هذه النصال . فوقع الكتاب والدرام إلى قطري ، فدعا بأبزي ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدري ، قال : فهذه الدرهم ؟ قال : ما أعلم عليها ، فأمر به فقتل ، فجاءه عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له : أقلت

رجلاً على غير ثقةٍ ولا تبينٍ ؟ فقال له : ما حالُ هذه الدراهم ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذباً ويجوز أن يكون حقاً ، فقال له قطريُّ : قتلُ رجلٍ في صلاح الناس غيرُ منكرٍ ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتسكَّر له عبد ربه في جماعةٍ معه ، ولم يفارقوه .

فبلغ ذلك المهلب فدنَّسَ إليه رجلاً نصرانياً ، فقال له : إذا رأيت قطريّاً فاسجد له ، فإذا نهاك فقل : إنما سجدتُ لك ، ففعل النصرانيُّ ، فقال له قطريُّ : إنما السجودُ لله ، فقال : ما سجدت إلا لك ، فقال له رجلٌ من الحوارج : قد عبدك من دون الله ، وتلا : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم ، أنتم لها واردون) فقال قطريُّ : إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى ابن مريم فما ضر ذلك عيسى شيئاً ، فقام رجل من الحوارج إلى النصراني فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذمياً ؟! فاختلفت الكلمة فبلغ ذلك المهلب ، فوجَّه اليهم رجلاً يسألهم عن شيء تقدَّم به إليه ، فأتاهم الرجلُ فقال : رأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدهما في الطريق وبلغكم الآخرُ فامتحنتموه فلم يميز المحنة ، ماتقولون فيها ؟ فقال بعضهم : أما الميتُ فهو من أهل الجنة ، وأما الآخرُ الذي لم يميز المحنة فكافرٌ حتى يميزها ، وقال قومٌ آخرون : بل هما كافران حتى يميزا المحنة ، فكثر الاختلافُ .

• • •

فخرج قطري إلى حدود إصطخر ، فأقام شهراً والقومُ في اختلافهم ، ثم أقبل ، فقال لهم صالح بن خرقاء : يا قوم ! إنكم قد أقررتم أعين عدوكم وأطعتموهم فيكم ، لما ظهر من اختلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا فنادى : يا أيها المحلثون : هل لكم في الطراد فقد طال العهد به ؟ ثم قال :

ألم ترَ أنا منذ ثلاثون ليلةً قريبٌ وأعداءُ الكتاب على خفصٍ

فتهايج القومُ وأمرعَ بعضهم إلى بعضٍ ، فأبلى يومئذ المغيرةُ بن المهلبٍ ،
وصار في وسط الأزارقة ، فجعلت الرماحُ تحطُّهُ وترفعه ، واعتورت رأسه
السيوفُ ، وعليه ماعدٌ حديدٍ ، فوضع يده على رأسه ، فجعلت السيوف
لا تعملُ فيه شيئاً ، واستنقذه فرسانٌ من الأزد بعد أن صرع ، وكلف الذي
صرعه عبيدة بن هلالٍ ، وهو يقولُ :

أنا ابنُ خيرٍ قومه هلالٍ شيخٌ علي دين أبي بلالٍ
وذاك ديني آخر الليالي

فقال رجلٌ للمغيرة : كُنا نعجبُ كيف تُصرعُ ، والآن نعجبُ كيف
تُنجو !!

وقال المهلبُ لبنيه : إنَّ مَرَحَكُم لغارٌ ، ولستُ آمنهم عليه ، أفوكلتُم به
أحدًا ؟ قالوا : لا ، فلم يَستَمِ الكلامُ حتى أتاه آتٍ فقال : إنَّ صالح بن خرق
قد أغار على السرح ، فشق ذلك على المهلبِ ، وقال : كلُّ أسيرٍ لا إليه بنفسه
فهو ضائعٌ ، وقدسُر عليهم ، فقال له بشرٌ بن المغيرة : أرح نفسك ، فإن كنت
إنما تريدُ مثلك فوالله لا يعدلُ أحدنا شيع نعلك ، فقال : خذوا عليهم الطريق ، فثار
بشرٌ بن المغيرة ومدركٌ والمفضلُ ابنا المهلبِ ، فسبق بشرٌ إلى الطريق ، فإذا
رجلٌ أسودٌ من الأزارقة يشلُّ السرح ، أي يطرده ، وهو يقول :

نحن قمناكم بشلِّ السرح وقد نكأنا القرح بعدَ القرح

« الشلُّ » الطرد . ويقال « نكأت القرحة » مهموزٌ ، و « نكيت
العدو » غير مهموزٍ من النكابة ، و « نكأت القرحة نكاً » قال ابن
هرمة :

ولا أراها تزال ظالمةً مُحدثٌ لي قرحةً وتكؤها

ولحقه المفضل ومدركٌ ، فصاحا برجل من طيء : اكفنا الأسود ، فاعتوره
الطائيُّ وبشرٌ بن المغيرة فقتلاه ، وأمرأ رجلاً من الأزارقة ، فقال له المهلبُ :
بمن الرجل ؟ قال : رجلٌ من همدان ، قال : إنك لشين همدان ، وخلي سبيله .

قال : وكان عياش الكندي شجاعاً بئياً . فأبلى يومئذٍ ، ثم مات على فراشه بعد ذلك . فقال المهلب : لا وآلت نفس الجبان بعد عياش .
وقال المهلب : ما رأيت كهؤلاء كلما ينقص منهم يزيد فيهم .

• • •

ووجه الحجاج إلى المهلب رجلين ، أحدهما من كلب ، والآخر من سليم ، يستحثانه بالقتال ، فقال المهلب متملاً :
ومستعجباً مما يرى من أفتان
ولو زينت الحرب لم يترم .
الشعر لأوس بن حجر .

وقوله « زينت » يقول : دفعته . و « لم يترم » أي لم يتحرك ، يقال : قيل له كذا وكذا فما ترم .

وقال يزيد : حرّكهم ، فحرّكهم فتهايموا ، وذلك في قرية من قرى إصطخر ، فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب فطعنه ، فشك فخذيه بالشرج ، فقال المهلب للسلمي والكلبي : كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم ؟

وحمل يزيد عليهم وقد جاء الرقاد ، وهو من فرسان المهلب وهو أحد بني مالك بن ربيعة ، على فرس له أدم ، وبه سيف وعشرون جراحة ، وقد وضع عليها القطن ، فلما حمل يزيد ولى الجمع وحمام فارسان ، فقال يزيد لقيس الحثني موئى العتيك : من لهذين ؟ قال : أنا ، فحمل عليها ، فعطف عليه أحدهما ، فطعنه قيس الحثني فصرعه ، وحمل عليه الآخر فعانقه ، فسقطا جميعاً إلى الأرض ، فصاح قيس الحثني ، اقتلونا جميعاً ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزوا بينها ، فإذا معانقه امرأة ! فقام قيس مستحياً ، فقال له يزيد : أما أنت فبارزتها على أنها رجل ، فقال : رأيت لو قتلت أما كان يقال قتلت امرأة ؟ !

وأبلى يومئذٍ ابن النجب السدومي ، فقال له غلام له يقال له خلاج : والله لوددنا أنا فضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرهم فأستلب مما هناك جاريتين ،

فقال له مولاه : وكيف تمت اثنتان ؟ قال : لأعطيك إحداهما وآخذ الأخرى !
فقال ابن المنجب :

أخلاج إنك لن تعاتق طفلةً شرقاً بها الجادي كالشمال
حتى تلاقي في الكتبية معلماً عمرو القنا وعيدة بن هلال
وترى المقطر في الكتية مقدماً في عصة قسطوا مع الضلال
أو أن يُعلمك المهلب غزوةً وترى جبالا قد دنت لجمال

* * *

قوله « طفلة » يقول ناعمة ، وإذا كسرت الطاء فقلت « طفلة » فهي الصغيرة . و « الجادي » الزعفران . « الكتبية » الجيش ، وإنما سمي الجيش كتيبة لا تضام أهله بعضهم إلى بعض ، وبهذا سمي الكتاب ، ومنه قولهم كتبت البغلة والناقة إذا خرزت ذلك الموضع منها وكتبت القرية . و « المعلم » الذي قد شهر نفسه بعلامة ، إما بعمامة صبيغ ، وإما بمشيرة ، وإما بغير ذلك . وكان حمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه معلماً يوم بدر بربشة ناعمة في صدره ، وكان أبو دجانة ، وهو سماك بن خرشة الأنصاري ، يوم أحد لما قال رسول الله ﷺ « من يأخذ سيفي هذا بحقه ؟ » قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن يضرب به في العدو حتى ينحني ، فقال أبو دجانة : أنا ، فدفعه إليه ، فلبس مشيرة فأعلم بها ، وكان قومه يعلمون لما بلوا منه أنه إذا لبس تلك المشيرة لم يبق في نفسه غابة ، ففعل ، وخرج يمشي بين الصفيين ، فقال رسول الله ﷺ : إنها لمشيبة يغضها الله عز وجل إلا في مثل هذا الموضع ، ويروى « أن رسول الله ﷺ سمع علياً صلوات الله عليه يقول لفاطمة ورمى إليها سيفه فقال : هاك حميداً فاغسلي عنه الدم ، فقال رسول الله ﷺ : لأن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدقته معك سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة ، وفي بعض الحديث « وقيس بن الربيع ، وكل هؤلاء من الأنصار .

★ ★ ★

عاد الحديث إلى ذكر الخوارج

وعمره القنا من بني سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدة بن هلال من بني يشكر بن بكر بن وائل ، والذي طعن صاحب الملب في فخذة فشكها مع السرج من بني تميم ، قال : ولا أدري أعمره أم غيره ، والمقنطر من عبد القيس .

وقوله « قسطوا » أي جاروا ، يقال قسط يقسط فهو قاسط ، إذا جار ، قال الله جل ثناؤه : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطاً) . ويقال أقسط يقسط فهو مقسط ، إذا عدل ، قال الله تعالى : (إن الله يحب المقسطين) . وكان بدر بن الهذيل شجاعاً ، وكان لحانة ، فكان إذا أحس بالخوارج نادى : يا خيل الله اركبي ! وله يقول القائل :

وإذا طلبت إلى الملب حاجة عرضت توابع دونه وعيد
العبد كردوس وعبد مثله وعلاج باب الأحرار شديد

« كردوس » رجل من الأزد ، وكان حاجب الملب . وقوله « وعلاج باب الأحرار شديد » العرب تسمى العجم الحمراء ، وقد مرّ تفسير ذا . وقوله « توابع » أراد به الرجال ، فجاز في الشعر ، وإنما رده إلى أصله للضرورة ، وما كان من النعوت على « فاعل » فجمعه « فاعلون » ، لا يلتبس بجمع « فاعلة » التي هي نعت ، وقد قلنا في هذا ولم قالوا « فوارس » و « هالك » في المراك .

وكان بشر بن المغيرة أبلى يومئذ بلاة حسناً عرف مكانه فيه ، وكانت بينه وبين بني الملب جفوة ، فقال لهم : يا بني عم ! اني قد قصرت عن شكاة العاتب ، وجاوزت شكاة المستعب ، حتى كاني لا موصول ولا محروم ، فاجعلوا لي فرجة أعش بها ، وهبوني امرأة رجوتكم نصره أو خفتم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ، وكلموا فيه الملب فوصله .

وروى الحجاج كردماً فارس ، فوجهه الحجاج إليها والحرب قائمة ، فقال رجل
من أصحاب المهلب .

ولو رأها كردم لكردما كردمة العير أحسن الضيغ
« الضيغ ، الأسد . » والكردمة ، الثفور .

* * *

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن إصطخر وذرآب جرذ
لأرزاق الجند ، ففعل ، وقد كان قطري هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كانوا
يكاتبون المهلب بأخباره ، وأراد مثل ذلك بمدينة فسا ، فاشتراها منه آزاد
مرث بن الهريذ بمائة ألف درهم فلم يدمها ، فواقعه المهلب فهزمه ، ونفاه إلى
كرمان واتبعه ابنه المغيرة ، وقد كان دفع إليه سيفاً وجهه به الحجاج إلى
المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلد به ، فرجع
به المغيرة إليه وقد دمّاه ، فسرّ المهلب بذلك وقال : ما يسرني أن أكون
كنت قد دفعته إلى غيرك من ولدي ، اكفني جباية خراج هاتين الكورتين ،
وضمّ إليه الرقاد ، فجعلنا مجييان ولا يعطيان الجند شيئاً ، ففي ذلك يقول رجل
منهم ، وأحسبه من بني تميم ، في كلمة له :

ولو علم ابن يوسف ما نلاقي من الآفات والكرب الشداد
لغاضت عينه جزعاً علينا وأصلح ما استطاع من الفساد
ألا قلّ للأمير مجزيت خيراً أرخنا من مغيرة والرقاد
فما رزقا الجنود بها قفيزاً وقد ساست مطامير الحصاد

يقال « ساس الطعام وأساس » إذا وقع فيه السوس ، و « داد وأداد » من
الدود . وروى أبو زيد « ديد فهو مدود » في هذا المعنى .

فحاربهم المهلب بالسيرجان حتى تقام عنها إلى جيوفت ، واتبعهم فقل قريباً
منهم ، واختلفت كلمتهم .

وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اليشكريّ اتهم بامرأة رجلٍ حداديّ وأوه مراراً يدخل منزله بغير إذنٍ ، فأتوا قطرياً فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمت ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ، فقالوا : إنا لانقارُهُ على الفاحشة ، فقال : انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيده فأخبره وقال : إنا لانقلوهُ على الفاحشة ، فقال : بهتوني يا امير المؤمنين ! فما ترى ؟ قال : إني جامعٌ بينك وبينهم ، فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا تتطاول تطاول البريء ، فجمع بينهم فتكلموا ، فقام عبيدة فقال : بسم الله الرحمن الرحيم (إن الذين جاءوا بالإفكِ مُعَصِّبَةٌ منكم لا تحسيبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم) الآيات ، فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه ، وقالوا : استغفر لنا ، ففعل ، فقال لهم عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة : والله لقد خدعكم ! فبايع عبد ربه منهم ناسٌ كثيرٌ لم يُظهروا ولم يجدوا على عبيدة في إقامة الحدِ ثبّتاً .

• • •

وكان قطريّ قد استعمل رجلاً من الدهاقين فظهرت له أموالٌ كثيرةٌ ، فأتوا قطرياً فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقارُ عماله على مثل هذا ، فقال قطريّ : إني استعملته وله ضياعٌ وتجاراتٌ ، فأوعز ذلك صدورهم ، وبلغ ذلك المهلب فقال : إن اختلافهم أشد عليهم مني .

وقالوا لقطريّ : ألا نخرج بنا إلى عدونا ! فقال : لا ، ثم خرج ، فقالوا : قد كذب وارتدّ ! فاتبعوه يوماً فأحسّ بالشرّ ، فدخل داراً مع جماعة من أصحابه ، فصاحوا به : يادابة اخرج إلينا !! فخرج إليهم ، فقال : رجعتم بعدي كفاراً ؟! فقالوا أو لست دابة ؟ قال الله عز وجل : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) ولكنك قد كفرت بقولك أنا قد رجعتنا كفاراً ، فنبّأ إلى الله عز وجل ، فشاور عبيدة ، فقال : ان ثبت لم يقبلوا منك ، ولكن قل : إنما استفهمت فقلت أرجعتم بعدي كفاراً ، فقال ذلك لهم فقبلوه منه ، فرجع إلى منزله ، وعزم أن يبايع المقعطر العبدى ، فكرهه القوم وأبوه فقال

له صالح بن مخراقٍ عنه وعن القوم : ابغ لنا غير المقطر ، فقال لهم قطري :
أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوكم ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم
واستعدوا للقاء القوم ، فقال له صالح بن مخراق : ان الناس قبلنا قد ساموا
عثمان بن عفان أن يعزل عنهم سعيد بن العاصي ففعل ، ويجب على الإمام أن
يعفي الرعية بما كرهت ، فأبى قطري أن يعزله ، فقال له القوم : انا خلعتك
وولينا عبد ربه الصغير ، فانفصل الى عبد ربه أكثر من الشطر ، وجلبهم الموالي
والعجم ، وكان هناك منهم ثمانية آلاف ، وهم القراء ، ثم ندم صالح بن مخراق
فقال لقطري : هذه نفحة من نفحات الشيطان فأعفنا من المقطر وسر بنا الى
عدوك ، فأبى قطري الا المقطر ، فحمل قتي من العرب على صالح بن مخراق
فطعنه فأنفذه وأجره الرمح فقتله .

ومعنى « أجره الرمح » طعنه وترك الرمح فيه ، قال عنترة :

وآخر منهم أجرت رحي وفي البجلي مبة وقبع

فنشبت الحرب بينهم ، فتهابجوا ، ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم ، فلما كان
الغد اجتمعوا فاقتلوا قتالاً شديداً ، فأجلت الحرب عن ألفي قتيل ، فلما كان
الغد باكروهم القتال ، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العرب من المدينة ،
وأقام عبد ربه بها ، وصار قطري خارجاً من مدينة جيرفت يإزائهم ، فقال له
عيبة : ياأمير المؤمنين ! إن أمت لم آمن هذه العبيد عليك إلا أن تخندق ،
فخندق على باب المدينة ، وجعل يناوشهم .

وارتحل المهلب فكان منهم على ليلة ، ورسول الحجاج معه يستحثه ، فقال
له : أصلح الله الأمير ، عاجلهم قبل أن يسطلحوا ، فقال المهلب : إنهم لن يسطلحوا .
ولكن دعهم ، فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفلحون معها ، ثم دس رجلاً من
أصحابه فقال : إيت عسكر قطري فقل : إني لم أزل أرى قطرياً يصيب الرأي
حتى نزل منزله هذا ، فبان خطؤه ، أنقيم بين المهلب وعبد ربه ، يغاديه هذا
القتال ويراوحه هذا ؟ فتمى الكلام إلى قطري ، فقال : صدق ، تحوا بنا

عن هذا الموضع ، فإن اتبعنا المهلب قاتلناه ، وإن أقام على عبد ربه رأيتم فيه ما تحبون ، فقال له الصلت بن مرة : يا أمير المؤمنين ! إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم ، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ، وأنشأ الصلت يقول :

قل للمُطِيعين قد قرئت عيونكم	بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناساً على دينٍ فقيرنا	طول الجدال وخطب الجِدِّ باللعب
ما كان أغنى رجالاً خل سعيهم	عن الجدال وأغنام عن الخطب
إني لأهونكم في الأرض مضطرباً	مالي سوى فرسي والرُمح من نشب

ثم قال : أصبح المهلب يربو منا ما كنا نطمع فيه منه ، فارتحل قطري ، وبلغ ذلك المهلب ، فقال لهريم بن عدي بن أبي طحمة المجاشعي : إني لا آمن أن يكون قطري كادنا بتوك موضعه ، فاذهب فتعرف الخبر ، فمضى هريم في اثني عشر فارساً ، فلم ير في العسكر إلا عبداً وعلجاً ، فألها عن قطري وأصحابه ؟ فقالوا : مضوا يرتادون غير هذا المنزل ، فرجع هريم إلى المهلب فأخبره ، فارتحل المهلب حتى نزل خندق قطري ، فجعل يقاتلهم أحياناً بالغداة ، وأحياناً بالعشي ، ففي ذلك يقول رجل من سدوس ، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

ليت الحرائر بالعراق شهدتنا	ورأيتنا بالسفح ذي الأجيال
فكحن أهل الجزء من فرساننا	والضارين جماجم الأبطال

* * *

ووجه المهلب يزيد إلى الحجاج يخبره أنه قد نزل منزل قطري ، وأنه مقيم على عبد ربه ، ويسأله أن يوجه في إثر قطري رجلاً جليداً في جيش ، فسر ذلك الحجاج سروراً أظهره ، ثم كتب إلى المهلب يستحثه مع عبيد بن موهب ، وفي الكتاب :

أما بعد ، فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي ، فتراجع بعذرِكَ ، وذلك أنك تمسك حتى تبرأ الجراح ، وتُنسى القتلى ، ويميم الناس ، ثم تلقاهم

فتمتثل منهم مثل ما يحتملون منك ، من وحشة القتل ، وألم الجراح ، ولو كنت
تلقاهم بذلك الجد لكان الداء قد حسم ، والقرن قد قصم ، ولعمري ما أنت
والقوم سواء ؛ لأن من ورائك رجالاً وأمالك أموالاً ، وليس للقوم إلا ما معهم
ولا يدركك الوجيف بالذئيب ، ولا الظفر بالتعذير .

فقال المهلب لأصحابه : إن الله عز وجل قد أراحكم من أقران أربعة :
قطري بن الفجاءة ، وصالح بن خرقاء ، وعبيدة بن هلال ، وسعد الطلائع ،
وإنما بين أيديكم عبدٌ وبه ، في خشار من خشار الشيطان ، تقتلونهم
إن شاء الله .

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحن ، فتصيهم الجراح ، ثم يتحاجزون كأنما
انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه ، فيضحك بعضهم إلى بعض ، فقال
عبيد بن موهب للمهلب : قد بان عُذْرُكَ ، وأنا مُخْبِرُ الأمير ، فكتب
المهلب إليه :

أما بعد ، فإني لم أعط رسلك على قول الحق أجراً ، ولم أحتج منهم
مع المشاهدة إلى تلقين ، ذكرت أني أجمُّ القوم ، ولا بد من راحة يستريح
فيها الغالب ، ويحتال فيها المغلوب ، وذكرت أن في ذلك الجمام ما ينسى القتلى ،
وتبرأ منه الجراح ، وهيات أن ينسى ما بيننا وبينهم ، تأبى ذلك قتلى لم نجن ،
وقروح لم يتقرف ، ونحن والقوم على حالة ، وهم يرقبون منا حالات ، إن
طمعوا حاربوا ، وإن ملوا وقفوا ، وإن يسوا انصرفوا ، وعلينا أن نقاتلهم
إذا قاتلوا ، ونحترز إذا وقفوا ، ونطلب إذا هربوا ، فإن تركتني والرأي
كان القرن مقصوماً ، والداء ياذن الله محوماً ، وإن أعجلتني لم أطعك
ولم أعص ، وجعلت وجهي إلى بابك ، وأنا أعوذ بالله من سخط الله ،
ومقت الناس .

★ ★ ★

ولما اشتد الحصار على عبد ربّه قال لأصحابه : لا تفتقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال ، فإن المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صح توحيدُه عزّ بربّه ، وقد أراحكم الله من غلظة قطريّ ، وعجلة صالح بن خرقاء ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلال ، ووكلكم إلى بساتركم ، فalcقوا عدوكم بصبر ونية ، وانتقلوا عن منزلكم هذا ، من قتل منكم قتل شهيداً ، ومن سلم من القتل فهو المحروم .

وقدم في هذا الوقت على المهلب عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت الثقفي يستحثه بالقتال ، ومعه أمينان ، فقال له : خالفت الأمير ، وآثرت المدافعة والمطاوله ، فقال له المهلب : ما تركت جهداً ، فلما كان العشي خرج الأزارقة وقد حملوا حرمهم وأموالهم وخيف متاعهم لينتقلوا ، فقال المهلب لأصحابه : الزموا مصافكم ، وأشرعوا رماحكم ، ودعواهم والذهاب ، فقال له عبيد : هذا لعمرى أيسر عليك ، فقال للناس : ردوهم عن وجهتهم ، وقال لبيته : تفرقوا في الناس ، وقال لعبيد بن أبي ربيعة : كن مع يزيد فخذة بالمحاربة أشد الأخذ ، وقال لأحد الأمينين : كن مع المغيرة ولا ترخص له في الفتور ، فاقتلوا قتالاً شديداً ، حتى عقرت الدواب ، وصرع الفرسان ، وقتلت الرجال . فجعلت الحوارج تقاتل على القدح يؤخذ منها والسوط والعلق الحيس أشد قتال ، وسقط ومع لرجل من مراد من الحوارج ، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل ، وذلك مع المغرب ، والمرادي يقول :

الليل ليل فيه ويل ويل وسال بالقوم الشراة السيل

• إن جاز للأعداء فينا قول •

فلما عظم الخطب فيه بعث المهلب إلى المغيرة : خلّ عن الرمح عليهم لعنهم الله ، فخلوا لهم عنه .

ثم مضت الحوارج حتى نزلوا على أربعة فراسخ من جيوفت ، ودخلها المهلب وأمر يجمع ما كان لهم فيها من المتاع ، وما خلفوه من رقيق ، وختم عليه هو

والتقني والأمينان ، ثم اتبعهم ، فإذا هم قد نزلوا على عين لا يشرب منها إلا قروي ، يأتي الرجل بالبلو قد شدها في طرف رمح فيستقي بها ، وهناك قرية فيها أهلها ، فغاداهم القتال ، وضم التقني إلى يزيد ، وأحد الأمينين إلى المغيرة ، واقتل القوم إلى نصف النهار ، فقال المهلب لأبي علقمة العبدي ، وكان شجاعاً عاتياً : أمدد بخيل الیحمد ، وقل لهم : فليعيرونا جاجهم ساعة ، فقال له : إن جاجهم ليست بفخار فتعار ولبت أعناقهم كرادي فتنبت - قال أبو الحسن الاخفش : تقول العرب لأعدائهم النخل : كرادي ، وهو فارسي أعرب - وقال لحبيب بن أوس : كراً على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقول لي الأمير بغير علم تقدم حين جد به المراس
فما لي إن أطعتك من حياة وما لي غير هذا الرأس رأس

نصب « غير » ، لأنه استثناء مقدم ، وقد مضى تفسيره .

وقال لمعن بن المغيرة بن أبي صفرة : احمل ، فقال : لا ، إلا أن تزوجني أم مالك بنت المهلب ، ففعل ، فحمل على القوم فكشفهم ، وطعن فيهم ، وقال :

ليت من يشتري الغداة بمال هللكه اليوم عندنا قيرانا
نصل الكره عند ذاك بطعن إن الموت عندنا ألوانا

ثم جال الناس جولة عند حملة حملها عليهم الحوارج ، فالتفت عند ذلك المهلب إلى المغيرة فقال : ما فعل الأمين الذي كان معك ؟ قال : قُتِلَ ، وكان التقني قد هرب ، وقال ليزيد : ما فعل عبيد بن أبي ربيعة ؟ قال : لم أراه منذ كانت الجولة ، فقال الأمين الآخر للمغيرة : أنت قتلت صاحي ، فلما كان العشي رجع التقني ، فقال رجل من بني عامر بن صعصعة :

مازلت بالتقني تخطب بيتنا وتغنمنا بوصية الحجاج
حتى إذا ما الموت أقبل زاحراً وسما لنا صرناً بغير مزاج
وليت بالتقني غير مناظر تنساب بين أحزة وفجاج

ليست مقارعة الكهنة لدى الوثعبي

شرب المدامة في إناء زجاج

قوله « بين أحزة » هو جمع حزين ، وهو مثنى ينقاد من الأرض ويغلظ ،
و « الفجاء » : الطرق ، واحدها فج .

وقال المهلب للأمين الآخر : ينبغي أن تتوجه مع ابني حبيب في ألف رجل
حتى تبيتوا عسكرهم ، فقال : ماتريد أيا الأمير إلا أن تقتلني كما قتلت صاحبي !
قال : ذاك إليك ، وضحك المهلب ، ولم تكن للقوم خنادق ، فكان كل
حذراً من صاحبه ، غير أن الطعام والعدة مع المهلب ، وهم في زهاء ثلاثين
ألفاً ، فلما أصبح أشرف على وادٍ فإذا هو برجل معه رمح مكسور وقد خضبه
بالدماء ، وهو ينشد :

جزاني دوائي ذو الحمار وصنعتي	إذا بات أطواء بني الاصغر
أخادعهم عنه ليغبق دؤنهم	وأعلم غير الظن أني مغاور
كأنني وأبدان السلاح عشة	يرئ بنا في بطن فيحان طائر

فدعاه المهلب فقال : أئيمي أنت ؟ قال : نعم ، قال أحظلي ؟ قال : نعم ،
قال : أيربوعي ؟ قال : نعم ، قال : أئعلي ؟ قال : نعم ، قال : أمن
آل نيرة ؟ قال : نعم ، أنا من ولد مالك بن نيرة ، وسبحان الله أيا الأمير !
أ يكون مثلي في عسكرك لاتعرفه ؟ ! قال : عرفتك بالشعر ! !

قوله : « ذو الحمار » يعني فرساً ، وكان ذو الحمار فرس مالك بن نيرة ، قال
جرير يهجو الفرزدق :

بيربوع فخرت وآل سعد	فلا مجدي بلغت ولا اقتخاري
بيربوع فوارس كل يوم	يواري شمس رهج الغبار
عتبة ، والأحيمر ، وابن عمرو	وعتاب ، وفارس ذي الحمار

قوله : « أطواء » يقال : رجل طوي البطن ، أي منطوي ، يخبر أنه كان
يؤثر فرسه على ولده ، فيشبعه وهم جياع ، وذلك قوله :

أخادعهم عنه ليغبق دونهم

و « الغبوق » : شرب آخر النهار ، وهذا شيء تقتخر به العرب ، قال
الأسعر الجعفي :

لكن قصيدة بيتنا بحفوة
نقفي بعيشة أهلها وثابة
باد جناجن صدرها ولها غنى
أوجر شعاً نهد المراكل والشوى

* * *

قال : فكثروا أياماً على غير خنادق ، يتحازسون ودوابهم مسرجة ، فلم
يزالوا على ذلك حتى ضعف الفريقان ، فلما كانت الليلة التي قتل في صيحتها عبد
ربه جمع أصحابه وقال : يامعشر المهاجرين ! إن قطرباً وعبيدة هربا طلب البقاء ،
ولا سبيل إليه ، فالتقوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة فلا يغلبكم على الموت ،
فتلقوا الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهبوا أنفكم لله في الدنيا وبها
لكم في الآخرة .

فلما أصبحوا غادوا الملب فقاتلوه قتالاً شديداً ، نسي به ما كان قبله ،
فقال رجل من الأزد من أصحاب الملب : من يياعني على الموت ؟ فبايعه
أربعون رجلاً من الأزد وغيرهم ، فضرع بعضهم ، وقتل بعض ، وجرح بعض ،
وقال عبد الله بن رزام الحارثي لأصحاب الملب : احموا ، فقال الملب : أعرابي
مجنون ! وكان من أهل نجران ، فحمل وحده ، فاخترق القوم حتى نجم من
ناحية أخرى ، ثم رجع ، ثم كرّ ثانية ، ففعل فعلته الأولى ، وتهايج الناس
فترجلت الحوارج وعقروا دوابهم ، فتأدام عمرو القنا ، ولم يترجل هو وأصحابه
من العرب ، وكانوا زهاء أربعمائة : موتوا على ظهور دوابكم ، ولا تعقروها ،
فقالوا : إننا إذا كنا على الدواب ذكرنا الفرار .

فاقتلوا ، ونادى الملب بأصحابه : الأرض الأرض ، وقال لبنيه : تفرقوا
في الناس ليروا وجوهكم ، ونادى الحوارج : ألا إن العيال لمن غلب ، فصر

بنو المهلب ، وصبر يزيد بين يدي آية ، وقاتل قتلاً شديداً أبلى فيه ، فقال له
أبوه : يا بني إني أرى موطناً لا ينجو فيه إلا من صبر ، وما مرّ بي يومٌ مثل
هذا منذ مارست الحروب .

وكسرت الحوارج أجفان سيوفها ، وتجاولوا ، فأجلت جولتهم عن عبد ربه
مقتولاً ، فهرب عمرو القنا وأصحابه ، واستأمن قومٌ ، وأجلت الحرب عن أربعة
آلاف قتيلٍ ، وجرحى كثيرٍ من الحوارج ، فأمر المهلبُ بأن يدفع كلَّ جريحٍ
إلى عشيرته ، وظفر بعسكرهم فعوى مافيه ، ثم انصرف إلى جيوفت ، فقال :
الحمد لله الذي ردنا إلى الحفض والدعة ، فما كان عيشنا بعيشٍ ، ثم نظر إلى قومٍ
في عسكره لم يعرفهم ، فقال : ما أشدَّ عادة السلاح ! وما أولوني درعي ، فلبسها ،
ثم قال : خذوا هؤلاء ، فلما صيرَ بهم إليه قال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن قومٌ
جئنا لنطلب غرتك لنفتك بك ، فأمر بهم فقتلوا .

* * *

قال أبو العباس : ووجه المهلب كعب بن معدان الاشقري ، ومرة بن تليد
الأزدي من أزد شعوة ، فوفدا على الحجاج ، فلما طلعا عليه تقدم كعبُ فأنشده :
يا حفصَ إني عدائي عنكم السفر وقد سهرت فأردى نومي السهر
فقال له الحجاج : أشاعرٌ أم خطيبٌ ؟ قال : كلاهما ، ثم أنشده القصيدة ،
ثم أقبل عليه فقال له : أخبرني عن بني المهلب ؟ قال : المغيرةُ فارسهم وسيدهم ،
وكفى يزيد فارساً شجاعاً ، وجوادهم وسخيم قبيصة ، ولا يستحيي الشجاع أن
يفرَّ من مدرِكٍ ، وعبد الملك سمٌّ فاقعٌ ، وحبيبٌ موتٌ زعافٌ ، ومحمدٌ ليثٌ
غابٍ ، وكفالك بالمفضل نجدةٌ ، قال : فكيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلفتهم
بخير ، قد أدركوا ما أملوا ، وأمنوا ما خافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلب
فيكم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهراً ، فإذا ألبوا ففرسان الليات ، قال :
فأهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يدرى أين طرفها ، قال :
فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كما إذا أخذنا عفونا ، وإذا أخفوا يثنا

منهم ، وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، كيف أفلتكم قطري ؟ قال : كدناه ببعض ما كدنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحد عندنا أثر من الفل ، قال : فكيف كان لكم المهرب وكتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقة الوالد ، وله منا بر الولد ، قال : فكيف اغتباط الناس ؟ قال : فشا فيهم الأمن ، وشملهم النفل . قال : أكنت أعددت لي هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : فقال : هكذا تكون والله الرجال . المهرب كان أعلم بك حيث وجهك .

وكان كتاب المهرب إلى الحجاج :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ماسوا ، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد ؛ فقد كان من أمرنا ما قد بلغك ، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين ، بسرنا منهم أكثر مما يسروننا ، ويسومهم منا أكثر مما يسرهم على استدأء شوكتهم ، فقد كان علن أمرهم حتى ارتفعت له الفتاة ، ونوم به الرضيع ، فانتهزت منهم الفرصة في وقت إمكانها ، وأدريت السواد من السواد ، حتى تعارفت الوجوه ، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أما بعد ؛ فإن الله عز وجل قد فعل بالمسلمين خيراً ، وأراحهم من حد الجهاد ، وكنت أعلم بما قبلك ، والحمد لله رب العالمين ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسم في المجاهدين فيهم ، ونقل الناس على قدر بلائهم ، وفضل من رأيت تفضيله ، وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلاً تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت ، وول الحيل شهماً من ولدك ، ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم علي ، وعجل القدوم ، إن شاء الله . فولى المهرب ابنه يزيد كرمان . وقال له : يا بني ! إنك اليوم لست كما

كنتَ ، إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ، ولن تحتمل إلا على ما احتملَ عليه أبوك ، فأحسن الى من معك ، وإن أنكرتَ من انسان شيئاً فوجهه الي وتفضل على قومك ان شاء الله .

وقدم المهبُّ على الحجاج فأجلسه الى جانبه ، وأظهر اكرامه وبره ، وقال : بأهل العراق ! أنتم عبيدُ المهب ، ثم قال : أنت والله كما قال لقيطُ الأيادي :

وقلدوا أمركم الله درءكم	رحب النواع بأمر الحرب مضطلعاً
لا يطعمُ النومَ الا ريث يبعثه	هم يكادُ حشاهُ يقصمُ الضلعا
لامترقأ أن رخاء العيش ساعدهُ	ولا اذا عض مكروهٌ به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أسطره	يكونُ متبعاً طوراً ومتبعاً
حتى استمرت على شزر مريرة	مستحکم الرأي لاقعماً ولا ضرعاً

فقام اليه رجل ، فقال : أصلحَ الله الأمير ، والله لكأنني أسمعُ الساعة فطرياً وهو يقولُ : المهبُّ كما قال لقيطُ الأيادي ، ثم أنشد هذا الشعر ، فسر الحجاجُ حتى امتلأ سروراً . قوله « نفل » أي أقسم بينهم ، والنفلُ : العطيّة التي تفضل ، كذا كان الأصل ، وإنما تفضل الله عز وجل بالعتائم على عباده ، قال لبيدُ :

إن تقوى ربنا خير نفل ويأذت الله ريثٌ وعجل

وقال جل جلاله : (يسئلونك عن الأنفال) ويقال : نفلتك كذا وكذا أي : أعطيتك ، ثم صار النفل لازماً واجباً . وقول الأيادي « رحب النواع » فالرحبُ : الواسع ، وإنما هذا مثلٌ ، يريد : واسع الصدر ، متباعد ما بين المنكبين والنراعين ، وليس المعنى على تباعد الخلق ، ولكن على سهولة الأمر عليه ، قال الشاعر :

رحب الذراع بالتي لا تشينه وإن قبلت العوراء ضاق بها ذرعاً

وكذلك قوله جل وعز : (يجعل صدره ضيقاً حرجاً) وقوله « مضطلعاً »

أما هو «مفتعل» من الضليع ، وهو الشديد ، يريد أنه قويٌّ على أمر الحرب ، مستقلٌ بها . وقوله : « يكون متبعاً طوراً ومتبعاً » أي قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قد ألتنا وإيلَ علينا ، أي قد أصلحنا أمور الناس ، وأصلحت أمورنا . وقوله : « على شَرٍّ مريرته » فهذا مثلٌ ، يقال شزرت الجبل : إذا كررت قتله بعد استحكامه راجعاً عليه ، والمريرة : الجبلُ . و «الضرع» : الصغير الضعيف . و «القحم» : آخر سنِّ الشيخ ، قال العجاج :

رَأَيْنَ قَحْمًا شَابَ وَأَقْلَحَهَا طَالَ عَلَيْهِ النَّهْرُ فَاسْلَهَا

والمقْلَحُ مثل القحم ، وهو الجافُّ ، ويقال للصبيِّ ملقحمٌ : إذا كان مهيئاً للغذاء ، أو ابنَ هَرَمِين ، ويقال رجلٌ إنقحلٌ وامرأةٌ إنقحلةٌ : إذا أسن حتى يبس ، والمسلمُ الضامر ، قال الشاعر :

لَمَّا رَأَيْتِي خَلَقًا إِنْقَحَلَا .

ويقال في معنى : قحمٍ قحْرٌ ، ويقال بعيرٌ قحاريةٌ ، في هذا المعنى . وقوله « لا يطعم النومَ إلا ريثَ يبعثُهم » فريثٌ وعوضٌ مما يضاف إلى الأفعال ، وتأويله أنه لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثهم لهم ، فعناهُ مقدار ذلك ، ومما يضاف إلى الأفعال أسماءُ الزمان ، كقوله عز ذكره : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) فاسماءُ الزمان كلها تضاف إلى الفعل ، نحو قولك : آتيك يوم يخرجُ زيدٌ ، وجئتكَ يوم قام عبد الله ، وما كان منها في معنى الماضي جاز أن يضاف إلى الابتداء والخبر ، فتقولُ : جئتكَ يوم زيدٌ أميرٌ ، ولا يجوز ذلك في المستقبل ، وذلك لأن الماضي في معنى إذ ، وأنت تقول : جئتكَ إذ زيدٌ أميرٌ ، والمستقبل في معنى إذا ، فلا يجوز أن تقول : آجيتكَ إذا زيدٌ أميرٌ ، فلذلك لا يجوز آجيتكَ يوم زيدٌ أميرٌ . فأما الأفعال في إذا وإذ فهي بمنزلة واحدة ، تقول : جئتكَ إذ قام زيدٌ ، وآجيتكَ إذا قام زيدٌ ، فهذا واضحٌ بينٌ . ومما يضاف إلى الفعل « ذو » في قولك افعل ذلكَ بذِي

تسلم ، وافعلاهُ بذِي تسلمانِ ، معناه : بالذي يُسلمُكُمَا ، ومن ذلك آيةٌ في قوله :

بِآيَةٍ تَقْدِمُونَ الْحِلَّ شَعْنًا كَانَ عَلَى سَنَابِكهَا مُدَامًا

والنحو يتصل ويكثر ، وإنما تركنا الاستقصاء لأنه موضع اختصار . فقال المهلب : إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولا أحد ، ولكن دمع الحق الباطل ، وقهرت الجماعة الفتنة ، والعاقبة للتقوى ، وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحييناه من العجلة . فقال له الحجاج : صدقت ، اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم . فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج ، فقال لهم المهلب : ما ذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله . ثم ذكروا للحجاج على مراتبهم في البلاء وقفاضلهم في الغناء ، وقدمَ بنو المغيرة ويزيد ومدركا وحبيبا وقيصة والمفضل وعبد الملك ومحمداً ، وقال : إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قال الحجاج : صدقت ، وما أنت بأعلم بهم مني وإن حضرت وغبت ، إنهم لسيوف من سيوف الله . ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبي صفرة والرقاد وأشباهها ، فقال الحجاج : أين الرقاد ؟ فدخل رجلٌ طويل أجناً ، فقال المهلب : هذا فارسُ العرب ، فقال الرقاد : أيها الأمير ! إني كنتُ أقاتل مع غير المهلب فكنتُ كبعض الناس ، فلما صرتُ مع من يلزمني الصبر ويجعلني إسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء ، صرت أفا وأصحابي فرساناً ؛ فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم ، وزاد ولدا المهلب ألفين ، وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك .

قال يزيد بن حبناء من الأزارقة :

دعي اللوم إن العيش ليس بدائم	ولا تعجلي باللوم يأثم عاصم !
فإذ عجلت منك الملامة فاسمعي	مقالة معني بحقك عالم
ولا تعذلي في الهدية إنما	تكون الهدايا من فضول المغانم
فليس يهدي من يكون نهاره	جلاداً ويمسي إليه غير تائم

يريد ثواب الله يوماً بطعنة غموس كشدق العنبري بن سالم
أبيت وسربالي دلاص حصينة وميغفرها وال سيف فوق الحيازم
حلفت برب الواقفين عشية لدى عرفات حلقة غير آثم
لقد كان في القوم الذين لقيتهم بلبور شغل عن يزوز اللطائم
توقد في أيديهم زاعبيّة ومرهقة تقري شؤون الجماجم

قوله « من يكون نهاره جلاداً ويُمسي إليه غير نائم » يريد : يُمسي هو
في ليله ويكون هو في نهاره ، ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على السّعة ،
وفي القرآن (بل مكر الليل والنهار) والمعنى : بل مكرّم في الليل والنهار ،
وقال رجل من أهل البحرين من اللصوص :

أما النهار ففي قيدي وسلسلي والليل في جوف منحوت من السّاج
وقال آخر :

لقد لمّتنا يأم غيلان في السّري ومث وما ليل المطي بنائم
رلو قال : « من يكون نهاره جلاداً ويُمسي إليه غير نائم » لكان جيداً ،
وذاك أنه أراد : من يكون نهاره مجالد جلاداً ، كما تقول : إنما أنت سيّراً ،
وإنما أنت ضرباً ، تريد : تسير سيّراً ، وتضرب ضرباً ، فاضمر لعلم المخاطب أنه
لا يكون هو سيّراً ، ولو رفعه على أنت يجعل الجلاد في موضع المجالد ، على
قوله : أنت سير ، أي أنت سائر ، كما قالت الحنساء :
فإنما هي إقبال وإدبار .

وفي القرآن (قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً) أي غائراً ، وقد مضى
تفسير هذا بأكثر من هذا الشرح . ولو قال « ويُمسي إليه غير نائم » لجاز ،
يصير اسمه في « يُمسي » ويجعل « ليله » ابتداءً ، و « غير نائم » خبره على
السّعة التي ذكرنا . وقوله « غموس » يريد واسعةً محيطة . و « العنبري » بن سالم ،
رجل منهم ، كان يقال له الأشدق . و « اللطائم » واحدها « لطيمة » وهي
الإبل التي تحمل البزّ والعطر . وقوله : « توقد في أيديهم زاعبيّة » يعني

الرّماح ، والتوقّدُ للأسنة ، والزاعيةُ منسوبةٌ إلى زاعبٍ ، وهو رجل من
الخُرج كان يعمل الرماح ، و «تقري» : تقدُّ ، يقال : فرى : إذا قطع ،
وأفرى : إذا أصلح .

وقال حبيب بن عوفٍ من قواد المهلب :

أبا سعيدٍ جزاك اللهَ صالحاً فقد كَفَيْتَ ولم تعفَ على أحدٍ !
داوَيْتَ بالحلم أهلَ الجبلِ فانقمعوا وكنت كالوالدِ الحاني على الولدِ

وقال عبيدة بن هلالٍ في هربهم مع قطريّ :

ما زالت الأقدارُ حتى قدّفتني بقومسَ بين الفرّخانِ وصول

ويروى أن قاضي قطريّ وهو رجلٌ من بني عبد القيس سمع قول عبيدة

ابن هلالٍ :

علا فوق عرشٍ فوق سبع ودونهُ سمامتري الأرواح من دونها تجري

فقال له العبدي : كفرت إلا أن تأتي بخرجٍ ، قال : نعم ، روح المؤمن

تخرج إلى السماء ، قال : صدقت . وقال يذكر رجلاً منهم :

يهوي وترفعه الرّماح كأنه شلوّ تشبّ في مخالب ضارٍ

فتوى صريعاً والرماح تتوشه إن الشّراة قصيرة الأعمارِ

«تتوشه» : تأخذه وتتناوله ، قال الله عز وجل : (وأنى لهم التناوشُ من

مكانٍ بعيدٍ) أي التناول . ومثل بيته هذا قول حبيب الطائي :

فيم الشّهادةُ إعلاناً بأسدٍ وغىً أفنّاهم الصبر إذا أبقاكم الجزعُ

وقال أيضاً في شيءٍ بهذا المعنى :

إن يتحلّ حدثانُ الموت أنفسكم ويسلم الناس بين الحوض والعطن

فاللّاء ليس عجيباً أنْ أعذبهُ يفنى ويمتدُّ عمر الآجن الأسين

وقال أيضاً :

عليك سلام الله وقفاً فإني رأيت الكريم الحر ليس له عُمرُ

وقال القاسم بن عيسى :

أحبك يا جنان فانت مني مكان الروح من بدن الجبان
ولو أني أقول : مكان روحي لحقت عليك بادرة الزمان
لإقدامي إذا ما الحرب جاشت وهاب حماها حرّ الطعان

وقال معاوية بن أبي سفيان في خلاف هذا المعنى :

أكلن الجبان يرى أنه يدافع عنه الفرار الأجل ؟
فقد تدرك الحادثات الجبان وسلم منها الشجاع البطل

رجع الحديث : وقال رجل من عبد القيس من أصحاب المهلب :

سائل بنا عمرو القنا وجنوده وأبا نعامه سيد الكفار

أبو نعامه : قطري . وقال المغيرة بن حنابلة الحنظلي من أصحاب المهلب :

إني امرؤ كفتي ربي وأكرمني عن الأمور التي في رعيها وخم
إنما أنا إنسان أعيش كما عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
معاقتي عن قفول الجند إذ قفلوا عني بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولاً ما تجهمني إذن الأمير ولا الكتاب إنزقوا
إن المهلب إن أشتى لرؤيته أو أمتدحه فإن الناس قد علموا
أن الأريب الذي ترجى نوافله والمستعان الذي تجلى به الظلم
القائل الفاعل الميمون طائره أبو سعيد إذا ما عدت النعم
أزمان أزمان إذ عض الحديد بهم واذ تمت رجال أنهم هزموا

قال أبو العباس : وهذا الكتاب لم نبتدئه لتصل فيه أخبار الخوارج ،

ولكن ربما اتصل شيء بشيء ، والحديث ذو شجون ، ويقترح المقترح ما يفسخ
به عزم صاحب الكتاب ، ويصده عن سنته ، ويزيله عن طريقه ، ونحن راجعون
إن شاء الله إلى ما ابتدأنا له هذا الكتاب ، فإن مر من أخبار الخوارج شيء
مر كما يمر غيره ، ولو نسقناه على ما جرى من ذكرهم لكان الذي يلي هذا
خبر نجدة وأبي فديك وعمارة الرجل الطويل وشيب ، ولكان يكون الكتاب
للخوارج مخلصاً .

الفهرس

٥	بيعة الحوارج لعبد الله الراسي وتكرهه
٦	وقوع واصل بن عطاء في قبضة الحوارج وحيلته
٦	توجيه سيدنا علي عبد الله بن عباس للحوارج لمناقشتهم في الخروج على أمير المؤمنين علي
٧	استفتاء اعرايي عمر بن الخطاب فيمن أصاب ظيماً وهو محرم
٧	قول قطري بن الفجاءة لأبي خالد القتاني ورده عليه
٨	حديث عمران بن حطان رأس القعد من الصفرية
١٦	أول من حكم من الحوارج
١٦	أول سيف مل من سيوف الحوارج
١٧	سبب تسمية الحوارج الحوورية
١٨	كلمة الصلتان العبدى
١٩	خطاب الراعي لعبد الملك
٢٠	محاربة المهلب للأزارقة وقول شاعر الأزارقة في ذلك
٢٢	حديث الرجل الأسود مع النبي ﷺ حين قسمة غنائم خيبر
٢٤	هجاء بشار بن برد لواصل بن عطاء
٢٥	لثغة واصل بن عطاء وقدرته على تجنبها
٢٦	محاربة علي للحوارج وهرب قسم منهم إلى مكة
٢٧	اتفاق ثلاثة من الحوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو

- ٣١ رثاء أبي زيد الطائي علي بن أبي طالب
- ٣١ رثاء الكميت علي بن أبي طالب
- ٣٢ قول كثير في حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية
- ٣٤ وقف علي بن أبي طالب أمواله
- ٣٥ كتاب معاوية إلى عامله مروان بن الحكم بشأن خطبة أم كلثوم
- ٣٥ حديث أمير المؤمنين علي مع الحوارج في أول خروجهم عليه
- ٣٧ حوار عبد الله بن خباب مع الحوارج
- ٣٨ سمر غيلان بن خرشة الضبي عند زياد وحديثه عن الحوارج
- ٣٨ معارضة مرداس لزياد وهو مخطب
- ٣٩ من يرى رأي الحوارج من الفقهاء ومن لا يراه
- ٣٩ كلمة (لا أبالك) وفيه تستعملها العرب
- ٤٢ وصف النبي ﷺ الحوارج
- ٤٣ استبجاع نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس
- ٤٤ هجاء جرير لآل المهلب بن أبي صفرة
- ٤٧ تضجر ابن عباس من ابن الأزرق
- ٤٩ حوار عبد الملك مع أحد الحوارج
- ٥٠ وفادة الكتاني على معاوية
- ٥١ حديث عبد الملك مع الكتاني الذي أسلم
- ٥١ حديث ابن جعدبة للنصور
- ٥٢ أهل النخيلة وعلي بن أبي طالب
- ٥٤ أول من خرج على معاوية بعد قتل علي
- ٥٥ حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ
- ٥٦ وصية سيدنا علي لأبنائه بعد طعنه
- ٥٧ خروج قريب الأزدي وزحاف الطائي على زياد

معاملة زياد لمن خرج من النساء	٥٨
قصة البلجاء الخارجية	٥٩
أخبار مرداس الخارجي	٦٠
مدح عيسى بن فائق الخوارج	٦٣
رثاء عمران بن حطان مرداساً	٦٥
مقتل عباد بن أخضر المازني	٦٦
الفرزدق يذكر أخذ ثار عباد	٦٦
تشديد عبد الله بن زياد على الخوارج	٦٨
سياسة زياد مع الخوارج	٦٨
الرثمين	٦٩
المختار بن عبد الله الثقفي	٧٠
باب اللام التي للاستغاثة والتي للاضافة	٧٥
عود إلى أخبار الخوارج	٧٧
عبد الله بن زياد وخالده بن عباد السدوسي	٧٧
افتراق الخوارج	٧٨
حوار الأزارقة مع ابن الزبير	٨٠
خروج نافع بن الأزرق إلى الأهواز	٨٣
انقصال نجدة بن عامر عن نافع بن الأزرق وخروجه إلى اليمامة	٨٥
كتاب نجدة بن عامر إلى نافع	٨٥
جواب نافع إلى نجدة	٨٦
كتاب نافع إلى عبد الله بن الزبير	٨٧
كتاب نافع إلى من بالبصرة من المحكمة	٨٨
مقتل نافع بن الأزرق في وقعة دولاب	٩٠
قول قطري في يوم دولاب	٩٢
باب فُعل	٩٤

- ٩٥ باب النسب إلى المضاف
- ٩٧ عود إلى أخبار الحوارج
- ٩٧ الأزارقة وولادة ابن الزبير في البصرة
- ٩٩ تشاور أهل البصرة وتولية المهلب بن أبي صفرة لقتال الحوارج وأخبره معهم
- ١٠٢ كتاب المهلب إلى الوالي يبشره بالنصر وجواب الوالي عليه
- ١٠٣ خطبة المهلب في أصحابه يحثهم على قتال الحوارج
- ١٠٤ هجاء رجل من بني ثميم للمهلب
- ١٠٦ معنى الضمار وأصل كلمة كائن
- ١٠٧ يوم سلى وسليرى
- ١١١ كتاب المهلب إلى الوالي الحارث بن عبد الله وجواب الوالي عليه
- ١١١ مبايعة الحوارج الزبير بن علي
- ١١٤ تولية مصعب بن الزبير على البصرة واستقدامه المهلب
- ١١٥ تولية عمر بن عبيد الله مكان المهلب بقتال الحوارج
- ١٢٠ حصار الحوارج لعناب بن ورقاء وانتصاره عليهم
- ١٢٣ مبايعة الحوارج قطري بن الفجاءة بعد مقتل الزبير بن علي
- ١٢٤ كتاب عبد الملك إلى المهلب يوليه
- ١٢٥ منزل خالد بن عبيد الله المهلب ومحاربه الحوارج في الأهواز
- ١٢٦ مأثر فيروز حصين
- ١٢٧ تولية خالد أخاه عبد العزيز. قتال الأزارقة
- ١٣٢ كتاب خالد إلى عبد الملك يعذر أخيه عبد العزيز وجواب عبد الملك عليه
- ١٣٣ تولية بشر بن مروان مكان خالد بن عبيد الله
- ١٣٣ كتاب الخليفة إلى أخيه بشر يأمره بتولية المهلب. قتال الأزارقة وكره بشر لذلك
- ١٣٤ تأكيد الخليفة تولية المهلب قتال الحوارج
- ١٣٥ موت بشر واختلاف الكلمة على ابن مخنف

- ١٣٦ تولى الحجاج أمر العراق
- ١٣٧ رسائل الحجاج الى المهلب وردوده عليها
- ١٤١ توجيه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلب
- ١٤٤ إرسال الحجاج الجراح بن عبد الله الى المهلب يستبطنه
- ١٤٥ كتاب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحي
- ١٤٦ وقوع الخلاف بين عتاب والمهلب بسبب أرزاق الجند وسعي المغيرة بينها بالصلح
- ١٤٧ دعاء المهلب وقوة حيلته في ايقاع الخلاف بين الحوارج
- ١٥٠ كتاب الحجاج يستحث المهلب
- ١٥٢ كتاب المهلب إلى الحجاج
- ١٥٨ ما قاله عبد ربه لأصحابه عند اشتداد الحصار
- ١٦٢ رسولا المهلب الى الحجاج
- ١٦٣ كتاب المهلب إلى الحجاج بالنصر ورد الحجاج عليه
- ١٦٣ تولى المهلب ابنه يزيد على كرمان وقدمه على الحجاج
- ١٦٤ الحجاج يكرم المهلب ويثني عليه
- ١٦٦ الحجاج يطلب من المهلب أن يصف له بلاء اصحابه
- ١٦٦ قول يزيد بن حبناء من الازارقة وتفسير ماورد في ذلك من الغريب
- ١٦٩ قول المغيرة بن حبناء الحنظلي من أصحاب المهلب بمدحه
- ١٧١ الفهرس